

شرح نظم الشيخ أحمد عرب الشرنوبلي
المسمى

تأثير السلوك إلى ملك المملوك

تأليف العلامة

الشيخ عبد المجيد الشرنوبلي الأنهرري

الملك عبدالعزيز
مكتبة - بيروت



شركة أبناء شريف الأضلعي
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة الجديدة •

الخندق العميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدارة النورية •

الخندق العميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية •

بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى

٢٠١١م - ١٤٣٢هـ

Copyright© all rights reserved

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

E. Mail

alassrya@terra.net.lb

alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت

www.almaktaba-alassrya.com

ISBN 978 - 614 - 414 - 203 - 5

رأسه ويغرزها من ورائه ويرخي لها ذؤابة بين كتفيه، وقوله: (وللناس في خير الورى) أي: الخلق، وهو النبي صلى الله عليه وسلم (خير) أي: أعظم (أسوة) بضم الهمزة وكسرهما أي: اقتداء قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21].

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

53 وَخَيْطاً وَمَخِيْطاً وَمُوسَى وَسُبْحَةً وَمَا كَانَ مُحْتَاجاً إِلَيْهِ لِفِطْرَةِ

أي: (و) من آداب المريد أن يتخذ (خيطة ومخيطاً) بكسر فسكون أي: إبرة لأن شرط الفقير الصادق أن لا يكون عنده إلا ثوب واحد، فيحتاج إلى مصاحبة ما ذكر لئلا يتخرق منه فتفسد عليه صلاته إذا انكشفت عورته، فيستغني بذلك عن سؤال الناس لأن سؤالهم داء عضال للمريد، وما ألطف قول الصفي الحلبي:

لا تكن طالبا لما في يد الناس س فيزور عن لقاء الصديق إنما الذل في سؤالك لنا س ولو في سؤال أين الطريق ويتخذ أيضا (موسى) لتحسين هيئته وحلق عانته، ويتخذ أيضا (سبحة) بضم السين المهملة لأجل الذكر، فإنها تذكره ذلك، وهي من شعار الصالحين، كما قال بعضهم فيها:

ومنظومة الشمل يخلو بها الدبيب فتجمع من همته إذا ذكر الله جل اسمه عليها تفرق من هيئته

وقيل للجنيذ: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟ فقال: طريق به وصلت إلى ربي لا أفارقه، يعني أنه لم يزل ملازما على ما اعتاده في بدايته من الأوراد فإن المدد في مداومتها، وهي مجموع الأذكار والأدعية ونوافل الخيرات، كما قال سيدي إبراهيم الدسوقي: ما قطع مريد ورده يوما إلا قطع عنه الإمداد في ذلك اليوم، فإن طريق القوم تحقيق وتصديق وعمل وتنزه وغض بصر وطهارة يد وفرج ولسان، فإن خالف شيئا من ذلك رفضته الطريق ولو كرها، اهـ.

وبقي مما يلزم المريد اتخاذه أمورا منها السواك وهو عود الأراك، الذي قال فيه بعضهم:

بالله إن جزت بوادي الأراك وقبلت أغصانه الخضر فاك
فابعث إلى المملوك من بعضها فإنني والله ما لي سواك
وله فضائل كثيرة. ومنها المشط لتسريح الشعر، وينبغي أن يبدأ في تسريح
لحيته بالجانب الأيمن ويقرأ الفاتحة، ثم يقرأ ألم نشرح عند تسريح الأيسر، وقل هو
الله أحد عند تسريح الأسفل، فإنه يرى الفتح العظيم واليسير الجسيم. ومنها العكاز
فإن حمل العصا من شعار الصالحين، لأنهم دائماً مسافرون إلى الآخرة، كما قال
بعضهم:

حملت العصا لا ضعف أوجب حملها علي ولا أني تحنيت من كبر
ولكنني ألزمت نفسي حملها لأعلمها أني المقيم على سفر
ولعله أدخل ذلك في قوله: (وما كان محتاجاً إليه لفطرة) بكسر الفاء وسكون
الطاء المهملة. قال الكرمانى: الفطرة السنة القديمة التي اختارها الأنبياء، واتفقت
عليها الشرائع، فكأنه أمر جبلي فطروا عليه، أي: خلقوا عليه. وقال ابن العربي:
الفطرة أصل الخلقة. وعلى كل فالمراد بها هنا خصال يكمل بها الإنسان.
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

54 وَيَعْتَزِلُ الْخَلْقَ الْجَمِيعَ وَفَعَلَهُمْ كَذَاكَ وَلَاَةَ الْأَمْرِ فِي دَارِ دُنْيَا

أي: (و) من أركان الطريق أن (يعتزل) المريد (الخلق) الذين لا خير فيهم
(جميعهم) ويترك (فعلهم) خصوصاً (ولاة الأمر) الذين تولوا شيئاً من أمور الدنيا
الدنية فإن الخلطة بهم مبعدة عن التقرب إلى رب البرية.

وقد حكى أن الخليفة المنصور لقي سفيان الثوري فقال: ما يمنعك أن تأتينا يا
أبا عبد الله؟ فقال: إن الله سبحانه نهانا عنكم، حيث يقول: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ
ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: 113]. ودخل عليه يوماً وقد أرسل إليه فقال له: سل
حاجتك، فقال: أو تقضيها؟ قال: نعم، قال: حاجتي أن لا ترسل إلي حتى آتيك،
ولا تعطني شيئاً حتى أسألك، ثم خرج، فقال المنصور: ألقينا الحب للعلماء فلقطوا
إلا ما كان من سفيان.

وما ألطف قول بعضهم:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما
وكتب سفيان إلى عابد من العباد يقول له: اعلم يا أخي أنك في زمان كان
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذون أن يدركوه، ومعهم من العلم ما
ليس معنا، ولهم من القدم ما ليس لنا، فكيف بنا حين أدركناه على قلة العلم، وقلة
الصبر، وقلة الأعوان على الخير، وفساد من الزمان، فعليك بالخمول، فإن هذا
زمان خمول، وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس، وقد كان الناس إذا التقوا انتفع
بعضهم ببعض، فأما اليوم فقد ذهب ذلك، فالنجاة الآن في تركهم فيما ترى، وإياك
يا أخي والأمراء أن تدنو منهم أو تخالطهم في شيء من الأشياء، ويقال لك تشفع أو
تدرا عن مظلوم أو ترد مظلمة، فإن ذلك من خديعة إبليس، وإنما اتخذ ذلك القراء
سلما للقرب منهم واصطياد الدنيا بذلك.

وكان يقول للمهدي: احذر من هؤلاء الأعوان والمترددين عليك من الفقراء
والفقهاء فإن هلاكك على أيديهم، يأكلون طعامك ويأخذون دراهمك ويغشونك
ويمدحونك بما ليس فيك. ونصح يوما إنسانا رآه في خدمة الولاة فقال: فما أصنع
بعيالي؟ فقال: ألا تسمعون لهذا؟ يقول: إنه إذا عصى الله رزق عياله، وإذا أطاعه
ضيعهم.

وكان يقول: إذا رأيتم العالم يلوذ بباب السلطان فاعلموا أنه لص، وإذا
رأيتموه يلوذ بباب الأغنياء فاعلموا أنه وراء. وكان يقول: هذا زمان لا يأمن فيه
الخامل على نفسه، فكيف بالمشهور فيه؟. وكان يقول: هذا زمان عليك فيه
بخويصة نفسك ودع العامة، اه.

وما ألطف قول بعضهم يمدح العزلة:

أخص الناس بالإيمان عبد	خفيف الحاذ مسكنه الغفار
له في الليل حظ من صلاة	ومن صوم إذا طلع النهار
وقوت النفس يأتيها كفافا	وكان له على ذاك اضطبار
وفيه عفة وبه خمول	إليه بالأصابع لا يشار
فذلك قد نجى من كل شر	ولم تمسه يوم البعث نار

والحاذ بتخفيف الذال المعجمة الظهر. وحكي أنه وجدت تحت وسادة الغزالي هذه الأبيات:

كنت عبد والهوى حاكمي فصرت حرا والهوى خادمي
وصرت بالعزلة مستأنسا من شر أنواع بني آدم
ما في اختلاف الناس خير ولا ذو الجهل بالأشياء كالعالم
يا لائي في تركهم جاهلا عذري منقوش على خاتمي
فنظروا فإذا نقشه: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾
[الأعراف: 102] ول بعضهم:

نصحتك لا تغترر بالمقال فرب فعال أنت بالنقيض
ولا يخدعنك بشر الوجوه فإن الصواعق تحت الوميض
ويا طالما كان في العائدين خليل تمنى وفاة المريض
وما ألطف قول بعضهم:

لا تركزن إلى ذي منظر حسن فرب رائية قد ساء مخبرها
ما كل أصفر دينار لصفوته صفر العقارب أرواها وأنكرها
وما أصدق قول بعضهم:
من لم يكن في الله خلته فخليله منه على خطر
وللصفدي:

وجدت في عشرة صحبي أذى لما لزم البيت في الوقت زال
يا عجبا من أشعري غدا يحمد رأى الناس في الاعتزال
وقال بعضهم:

لا أرى كثرة التصادق إلا تعب القلب في اقتضاء الحقوق
فاصرف الود عن كثير من النا س فما كل من ترى بصدوق
وقال آخر:

عذيري من الإنسان ما إن جفوته صفا لي ولا ان صرت طوع بنانه
وإني لمشتاق إلى ظل صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

وما ألطف قول الصفي الحلي:

وليس صديقا من إذا قلت لفظة يحاول في أثناء موقعها أمرا
ولكنه من لو قطعت بنانه توهمه قصدا بمصلحة أخرى

ولعزة الأخ المشاكل، اتضح قول القائل:

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا
ولله ذر أبي المواهب الشاذلي حيث قال:

تغير إخوان هذا الزمان فكل خليل عراه الخلل
وكانوا قديما على صحة وقد داخلتهم حروف العلل
قضيت التعجب من أمرهم فصرت أطالع باب البدل

وكان يقول: إياك وعثرة اللسان عند بعض الأصدقاء، فقد أصيب من هذا
الباب خلق كثير لثقتهم بأصدقائهم وما علموا أنهم جعلوا ذلك سلاحا لوقت
العداوة، فإياك ثم إياك اه. وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال وأجاد:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق فكان أدرى بالمضرة
وفساد الزمان يوجب شكر من كان شره مقطوعا، وإن كان خيره ممنوعا.

كما قال المتنبي:

إننا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال
فعليك أيها العاقل بتجنب الأشرار، وصحبة الأخيار، إن كانوا على حد ما

قيل:

أحب من الإخوان كل مواتي وكل غضيض الطرف عن عثاتي
يوافقني في كل أمر أريده ويحفظني حيا وبعد وفاتي
فمن لي بهذا ليت أني أصبته فقاسمته ما لي من الحسنات
أو على حد ما قيل:

اصحب من الإخوان من وده أصفى من الياقوت والجوهر
ومن إذا شرك أودعته لم يذكر السر إلى المحشر

ومن إذا غابت عن عينيه أقلقه الشوق لم يصبر
ومن إذا أذنبت ذنبا أتى معذرا عنك ولم يهجر
وقليل ما هم، وإن أتعبت نفسك لا تراهم، فاحتبس نفسك في زاوية العزلة،
فإن عزلة المرء عزله، ولقد أنصف من قال:

هم الناس والدنيا ولا بد من قذى يلم بعين أو يكدر مشربا
ومن قلة الإنصاف أنك تبتغي المذهب في الدنيا ولست المهذب
وينبغي أن تكون العزلة بعد التحقيق بالعلم والزهد، فإنها بغير عين العلم زلة،
وبدون زاي الزهد علة، ويلزم المريد أن يقصد باعتزاله عن الخلق سلامتهم من
شره، فإن من استصغر نفسه كان من المتواضعين، ومن رأى لها مزية على غيره كان
من الهالكين، وقد أشبعنا الكلام على هذا المبحث في كتابنا: «تحفة العصر
الجديد»، فعليك به إن أردت المزيد. ومن النصائح في التحذير من الدنيا الدنية قول
بعضهم:

يا مولعا بالأمانى غير معتبر كيف الإقامة والدنيا على سفر
لا تركزن إلى دار الغرور ولا تسكن إلى وطن فيها ولا وطر
وسالم الناس تسلم من مكائدهم مسلما لقضاء الله والقدر
كم منحة بدرت ما كنت تأملها ومحنة لم تكن منها على حذر
وقال آخر:

ألم تر أن المرء طول حياته معنى بأمر لا يزال يعالجه
يدور كدود القز ينسج دئما ويهلك غما وسط ما هو ناسجه
وقال أبو العتاهية:

عش ما بدا لك سالما في ظل شاهقة القصور
يسعى إليك بما اشتهيت لدى الرواح وفي البكور
فإذا النفوس تغرغرت بزفير حشجة الصدور
فهناك تعلم موقنا ما كنت إلا في غرور

وللسيد الرضى:

ما أسرع الأيام في طينا
في كل يوم أمل قد نأى
أنذرنا الدهر وما نرعوي
فعابث والموت في جده
تمضي علينا ثم تمضي بنا
مramه عن أجل قد دنا
كأنما الدهر سوانا عنى
ما أوضح الأمر وما أبينا

وقال التهامي:

تنافس في الدنيا غرور وإنما
وإننا لفى الدنيا كركب سفينة
تصارع غناها أن تعود إلى الفقر
نظن وقوفا والزمان بنا يجري

وما ألطف قول بعضهم:

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم
تأمل إذا ما نلت بالأمس لذة
وما خير عيش لا يكون بدائم
وأفنيته هل أنت إلا كحالم

ومما ينسب إلى الإمام علي كرم الله وجهه:

إن الذين بنو فطال بناؤهم واستمتعوا بالمال والأولاد
جرت الديار على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد
ولما سئل رضي الله عنه في أيام شيخوخته عن حاله فقال: هو ذا أموت قليلا
قليلا. وكان يقول: إذا أدركت الدنيا الهارب منها جرحته، وإذا أدركت الطالب لها
قتلته. وكان يقول: سرور الدنيا أن تقنع بما رزقت، وغمها أن تغتم لما لم ترزق.
وكان بعض العارفين يقول: ما أصنع بدنيا إن بقيت لم تبق لي وإن بقيت لم
أبق لها. وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن تعرف قدر الدنيا فانظر عند من هي.
وقال بعض العارفين: دخلت المارستان فرأيت مجنونا مقيدا فوقفت عنده متفكرا،
فقال: يا أخي! لا تفكر فالدنيا إن حلت أنحلت، أو جلت أوجلت، أو حلت
أوحلت، أو كست أو وكست، أو هنت أو هنت، فالسعيد من خرب رباعها وإن مدت
إليه باعها باعها، كم من قبور تبنى ولا تبنى، وكم من مريض عدنا ولا عدنا، يا مغرا
بالسلامات كم من عاشق سلا مات، وكم من ملك دقت له الطبول ونشرت على
رأسه العلامات فلما علا مات، فلما سمعت كلامه اتعظت به، وقلت في نفسي: أنا
المجنون، ثم حول رأسه علي وجعل يخلط كلامه.

ومن كلام بعض البلغاء: الدنيا إن أقبلت بلت، أو أدبرت برت، أو أطنبت نبت، أو أركبت كبت، أو أبهجت هجت، أو أسعفت عفت، أو أينعت نعت، أو أكرمت رمت، أو عاونت ونت، أو ماجنت جنت، أو سامحت محت، أو صالحت لحت، أو واصلت صلت، أو بالغت لغت، أو وفرت فرت، أو زوجت وجت، أو نوهت وهت، أو ولهت لهت، أو باسطة سطة.

ولله در القائل:

من نال من دنياه أمنية أسقطت الأيام منها الألف
وقال آخر:

ألا يا نفس إن ترضي بقوت فأنت عزيزة أبدا غنية
دعي عنك المطامع والأمانى فكم أمنية جلبت منية
ومن حكم سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: الدنيا ثلاثة أيام؛ يوم مضى وليس بيدك منه شيء، ويوم يأتي لا تدري أتدركه أم لا، ويوم أنت فيه فاغتنمه.

وما ألطف ما قيل:

إنما هذه الحياة متاع والغرور الغرور من يصطفئها
ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها
وقال بعضهم: الدنيا ساعة فاجعلها طاعة.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

55 وَلَا يُلْتَفَتُ يَوْمًا إِلَى غَيْرِ شَيْخِهِ فَذَلِكَ وَصْفٌ مُوجِبٌ لِلْقَطِيعَةِ

أي: ينهى مريد التربية الصادق على الهمة عن أن يلتفت يوما) أو بعضه (إلى غير شيخه) المستجمع للخصال الحميدة شرعا، وهو شيخ التربية، (ف) إن (ذلك) الالتفات إلى شيخ آخر (وصف) قبيح (موجب للقطيعه) عن الحصول على ما به الوصول، وأما إذا كان الشيخ من الذين قيل فيهم من بعض واصفيهم:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نساءها

فلا يكون له هذا الحكم، ولذا قال الإمام الشعراني في الأنوار القدسية: احذر أن تقتصر على شيخ واحد في هذا الزمان فإنه تحجير عليك، وقلة نفع لك، بل اعتقد في كل شيخ يحصل لك الخير على يديه، وإنما كان أهل العصر الخالي يقيدون بذلك على تلامذتهم، لأنهم كانوا أولياء عارفين بالله وبالأحكام حتى لو فقدوا الجواب من طريق النقل أجابوا من طريق الكشف، وأما مشايخ هذا الزمان فليس معهم من العلم اللدني شيء، اهـ.

وقال الإمام الغزالي: إن متصوفة أهل هذا الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزي والمنطق والهيئة والسماع والرقص والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمفكر وتنفس الصعداء وخفت الصوت في الحديث إلى غير ذلك، فظنوا بذلك أنهم منهم فلم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل المتصوفة، ولو فرغوا جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم من الصوفية، كيف ولم يحرموا أحوالها قط بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون في الفلس والرغيف والجبة، ويتحاسدون على النقيير والقطمير ويمزق بعضهم أعراض بعض، وليسوا من الرجال بل هم أعجز من العجائز في المعارف، فإذا كشف عنهم الغطاء فوا فضيحتاه على رؤوس الأشهاد.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

56 | وَأَعْضَاؤُهُ لِلطَّرْفِ حَالٌ جُلُوسِهِ | لَدَيْهِ وَفِي حَالَاتِ أَنْسٍ وَوَحْشَةٍ |

أي: ويجب على المريد (إغضاض الطرف) بسكون الرائ، أي: البصر، بمعنى أنه يحبس بصره عن النظر إلى شيخه (حال جلوسه لديه) أي: عنده إجلالا له ويستصحب ذلك في جميع الحالات، لا فرق بين حالة الأنس التي من شأنها أن ترتفع فيها الحشمة لحصول الانبساط بالمحسوب، ولا بين حالة الخلوة عن الناس، فيلزمه مراعاة هذا الأدب في جميع الحالات، فإنه يرقى بذلك في طريق القوم أعلى الدرجات.

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

57	وَيَرْفَعُ تَوْقِيرًا كَبِيرًا لِسَنِّهِ كَذَا فَاضِلًا عَنْهُ وَلَوْ ابْنُ لَيْلَةٍ
----	--

أي: ويجب على المريد أن يرفع قدر الكبير في السن لأجل توقيره، أي: تعظيمه، فقلوه: «توقيرا» مفعول لأجله مقدم على المفعول به الذي هو «كبيراً». وفي الحديث: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا» وقال صلى الله عليه وسلم: «من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم» وورد: «ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قبض الله له من يكرمه عند سنه».

وقوله: (كذا فاضلا) أي: وكذا يجب على المريد أن يرفع فاضلا، أي: زائدا في الفضل عنه (ولو) كان (ابن ليلة) واحدة لأن الله سبحانه يخص بفضله من شاء، ولا يتوقف فضله على عمل ولا على طول أجل، فإن السعادة قبل الولادة. وقد قيل: إن أبا يزيد البسطامي كان إذا أكلت أمه طعاما فيه شبهة لا يقبل ثديها في ذلك اليوم.

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

58	وَيَرْفَعُ أَبْنَاءَ الطَّرِيقِ وَيَتَصِفُ بِأَوْصَافِهِمْ يَسْمُو بِنَفْسِ زَكِيَّةٍ
----	---

أي: (و) من الواجب على المريد أنه (يرفع) أي: يعظم (أبناء الطريق) الواصلين المتصفين بمكارم الأخلاق (ويتصف) بالسكون لأجل الوزن، أي: يتخلق (بأوصافهم) المحموده فإنه عند ذلك (يسمو) أي: يعلو إلى مقام الأبرار (بنفس زكية) أي: طيبة طالبة لمرضاة العزيز الغفار.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: الفقراء كالملوك، فمن لم يعرف أدب الملوك لا ينبغي له مجالستهم، لأنه ربما جرّه عدم احترامهم إلى العطب.

وقال أبو مدين الغوث:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا	هم السلاطين والسادات والأمرا
فاصحبهمو وتأدب في مجالسهم	وخل حظك مهما قدموك ورا
واستغنم الوقت واحضر دائما معهم	واعلم بأن الرضا يأتي لمن حضرا

قال بعض المريدين لأستاذه: متى نصل إلى مقامك يا سيدي؟ فقال له: حتى يصير أقل إخوانك الفقراء عندك في منزلتي، يشير إلى أن تعظيم مقام المريدين، واسطة انتظام هذا العقد الثمين. ولذا قال المصنف رضي الله عنه:

59 | فَتَعْظِيمُهُمْ أَجْرٌ وَتَحْقِيرُ نَفْسِهِ | وَإِنْصَافُهُمْ مِنْهَا جَدِيرٌ بِجَنَّةٍ

أي: فتعظيم أبناء الطريق سبب للأجر والثواب، لأنه في الحقيقة تعظيم للملك الوهاب، (وتحقير نفسه) أي: المرید بأن يعدها أمرا حقيرا (وإنصافهم) أي: أبناء الطريق (منها) أي: من نفسه بأن يعترف لهم بحقوقهم عليها (جدير) أي: حقيق (بجنة) والمراد أن من فعل هذه الخصال، كان من السابقين الحائزين في الجنة مراتب الكمال.

"قنیه": كان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: لا يكون الفقير فقيرا حتى يكون حمالا للأذى من جميع الخلق إكراما لمن هم عبيده سبحانه وتعالى، فلا يؤدي من يؤذيه، ولا يتحدث فيما لا يعنيه، ولا يشمت بمصيبة، ولا يذكر أحدا بغيبة، ورعا من المحرمات، موقوفا عن الشبهات، إذا بلي صبر، وإذا قدر غفر، غضيض الطرف، يعمر الأرض بجسده، والسماء بقلبه، طريقه الكظم والبذل والإيثار والعفو والصفح والاحتمال.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

60 | وَبَرُّهُمْ إِنْ تَسْتَطِعَهُ فَوَاجِبٌ | وَإِنْقَادُهُمْ مِنْ كُلِّ ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ

يعني أن بر أبناء الطريق بمعنى التوسعة عليهم، والإحسان إليهم، واجب في طريق القوم مع الاستطاعة، وكذلك يجب إنقاذهم، أي: تخليصهم من كل ضيق اعتراهم وشدة نزلت بهم، لما في الحديث: «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه» فقم أيها المرید بما يلزم الإخوان، وبادر بما يخلصهم من الشدة إن كنت من أهل العرفان، ولا تكن كمن قيل فيه من بعض واصفيه:

إذا كنت في اليسر لا ترتجي ولا لك فضل ولا توسعة
فما أنت إلا كمن لم يكن وإن كنت ذا ضيعة واسعة
ولا كمن قيل فيه، عند عيادة أخيه:

لما مرضت زارني من ليس معه خردلة
تعسا له من زائر وعائد بلا صلة
بل كن كصاحب هذه الفضيلة التي تقر بها العين، وهي أن بعض الظرفاء
مرض فكتب إلى السلطان هذين البيتين:

انظر إلي بعين مولى لم يزل يولي الندى وتلاف قبل تلافي
أنا كالذي احتاج ما يحتاجه فاغنم دعائي والثناء الوافي
فحضر السلطان إلى عيادته بنفسه وأتى إليه بألف دينار، وقال له: أنت الذي،
وهذه الصلة، وأنا العائد، ولا يخفى ما في قوله: «وأنا العائد» من حسن التورية،
فإنه يحتمل أنه عائد الموصول وهو «الذي»، وأنه من العيادة وأنه من العود بالصلة
مرة أخرى، وفي الحديث الشريف أن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على
أخيك المسلم.

ومن جملة بر الإخوان المصافحة كلما لقيهم، لما في الحديث: «إذا تصافح
المسلمان لم تفترق أكفهما حتى يغفر لهما». ومن جملة برهم ملاقاتهم بالترحيب
وطلاقة الوجه لما في الحديث: «إن للقدام دهشة فتلقوه بالترحاب». ومن جملة برهم
أن يفرش لهم شيئا يقيهم من التراب لما في الحديث: «إذا زار أحدكم أخاه فألقى له
شيئا يقيه من التراب وقاه الله عذاب النار». ومن جملة برهم التفسح لهم في
المجالس لما في الحديث: «إن للمسلم حقا إذا رآه أخوه أن يتزحزح له».

ومن آداب الصحبة السؤال عن اسم الصاحب واسم أبيه، لما في الحديث:
«إذا آخيت رجلا فاسأله عن اسمه واسم أبيه فإن كان غائبا حفظته وإن كان مريضا
عدته وإن مات شهدته». ورد «إذا أحب أحدكم أخاه في الله فليعلمه فإنه أبقي للألفة
وأثبت في المودة».

وقد قسموا الصحبة إلى ثلاثة أقسام؛ صحبة مع من هو أعلى وهي في الحقيقة
خدمة له، وصحبة مع من هو أدنى وهي تقضي على المتبوع بالشفقة والرحمة وعلى

التابع بالوفاق والحرمة، وصحبة الأكفاء والنظراء وهي مبنية على الإيثار والفتوة، والتغابي أي التغافل عن زلات الصديق فإن ذلك من مقتضيات الأخوة، على حد ما قيل:

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي
واعلم أنه ينبغي الاستكثار من الإخوان الأخيار، لما في الحديث: «استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة يوم القيامة» وقال صلى الله عليه وسلم: «رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس وأن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة وأن أهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة وأن صنائع المعروف تقي مصارع السوء». وقال الإمام الشافعي: لولا صحبة الأخيار، ومناجاة الحق بالأسحار ما أحببت البقاء بهذه الدار. وقال الإمام الشاذلي: عليك بصحبة الفقراء فإنه لو لم يكن إلا أخذهم بيدك يوم القيامة مع ما يحملون عن أصحابهم في دار الدنيا من المصائب لكان في ذلك كفاية.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

61 | إِذَا حَازَ هَذَا الْوَصْفَ أَغْنِي جَمِيعَهُ فَبَشِّرْهُ بِالْقُرْبِ السَّنِيِّ لِحَضْرَةِ

يعني (إذا حاز) المريد (هذا الوصف) أي: الأوصاف السابقة لأن «ال» في «الوصف» للجنس فيشمل جميع ما تقدم من الأصول والأركان والآداب، ولذا قال (أعني جميعه) أي: جميع ما سبق، (فبشره) أي: فبشر هذا المريد الصادق (بالقرب السني) نسبة إلى السناء بالمد، أي: الرفعة وهو قرب معنوي لكونه (لحضره) الله جل وعلا.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

62 | وَيُظَفَّرُ بِالْدَّارِ الَّتِي عَزَّ وَصَفُهَا وَفِيهَا الْبُدُورُ الْغِيدُ أَسْقَتْ وَغَنَّتْ

أي: ويفوز هذا المريد الصادق (بالدار) الآخرة وهي الجنة، وإنما قال: (التي عز وصفها) لأن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فلا يمكن (وصفها) حقيقة تفصيلاً إلا بعد المعاينة، وأما وصف ما فيها على سبيل

الإجمال فهو ممكن، ولذا قال: (وفيها البدور) أي: الحور العين التي تشبه البدور أي: الأقمار في الحسن وهذا على سبيل التقريب، وإلا فقد ورد «إن الحوراء لو برزت أنملة من أناملها إلى دار الدنيا لغلب ضوءها على ضوء الشمس»، وقوله: (الغيد) بكسر الغين المعجمة، أي: الناعمات في لين، يقال: امرأة غادة، أي: ناعمة لينة، وقوله: (أسقت) أي: ناولت الإناء الذي يستقى منه، يقال: سقيته وأسقيته يأتي ثلاثيا ورباعيا، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَسَقَيْنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: 21] ومن الثاني قوله تعالى: ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16]، وقوله: (وغنت) من الغناء بالكسر والمد، وهو الصوت الذي فيه ترنم يحصل به الطرب، وأما بالكسر والقصر فهو اليسار، وفي الحديث «إن الحوار العين يغنين أزواجهن في الجنة بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الحور الحسان خلقن لأزواج كرام».

"فائدة": سئل بعضهم عن سماع الغناء بالألحان المطربة عند الذكر أو بعده، فقال: قد حرمه من لا ينكر عليه لصدق مقاله، وأباحه من لا يعترض عليه لقوة حاله، فمن كان عنده شيء من نور المعرفة فليتقدم، وإلا فالوقوف عند ما له الشارع أولى وأسلم، والله أعلم.

وسئل بعضهم عن جماعة يجتمعون وينشد لهم المنشد أبياتا في المحبة وغيرها، فمنهم من يتواجد حتى يصير كأنه يرقص، ومنهم من يصيح ويكي، ومنهم من يغشاها شبه الغيبة عن حواسه، فأجاب بقوله:

الرقص نقص والسماع رقاعة وكذا التواجد خفة في الرأس
والله ما رقصوا لطاعة ربهم بل للذي طحنوه بالأضراس
وقال بعضهم في ذلك:

صوفية الوقت فيهم من البراغيث قرب
فيهم خصال ثلاث أكل ورقص ودب

والصحيح أنه لا بأس بسماع الإنشاد المحرك للأحوال السنية، الخالي عما يوجب الخروج عن حد الشريعة المطهرة المرضية، إذا كان السامع من أهل هذه المراتب الثلاث فإنهم قسموا أهل السماع إلى ثلاثة أقسام: منهم من يشاهد الوعيد فيهرب، ومنهم من يشاهد الوعد فيرغب، ومنهم من يشاهد الحق فيطرب، ولا لوم

على من بلغ هذه المقامات، إذا تواجد مما سمع من النغمات، فقد حكي أن سفيان الثوري سمع من يقول:

أتوب إلى الذي أضحى وأمسى وقلبي يتقيه ويرتجيه
تشاغل كل محبوب بشغل وشغلي في محبته وفيه
فجعل يبكي ويتواجد ويكرر قوله: وشغلي في محبته وفيه. وحكي أن ذا النون المصري لما دخل بغداد دخل عليه جماعة ومعهم قوال، فاستأذنه أن يقول شيئاً، فأذن له فأشد:

صغير هواك عذبنى فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت من قلبي هواً قد كان مشتركاً
أما ترثى لمكتئب إذا ضحك الخل بكى
فطاب قلبه وتواجد حتى سقط على جبهته وتقاطر منها الدم. وسمع الشبلي قائلاً يقول:

أسائل عن سلمى فهل من مخبر يكون له علم بها أين تنزل
فزق وقال لا والله ما في الدارين مخبر، وكان المصنف يتواجد إذا سمع المنشد يقول:

رعى الله أياماً تقضت بقربكم فما كان أهنأها وأحلى وأطيباً
وكان شيخ الشيوخ صدر الدين ممن يحب السماع وكان له قوال وحيد في صناعة الغناء، ف وقعت منه هفوة وتقصير في خدمة الفقراء، فطرده وهجره عاماً، وأحضر قوالاً غيره، فلما ضاق به الحال جاء مستخفياً إلى الرباط بعد أن اجتمع فيه الشيخ وجماعته، وأنشأ يقول:

جئت مستخفياً وقد عرفوني ها أنا تائب فهل يقبلوني
أنا بالباب واقف لي دهر كلما رمت وصلهم أبعدوني
أبعدوني وقربوا الغير دوني ولهذا أموت من غير حين
لم أكن للوصال أهلاً ولكن أنتموا في الوصال أطمعتموني
كنت إن جئت قيل أهلاً وسهلاً وأنا اليوم يغلق الباب دوني
فاجبروا كسر مذهب قد أتاكم يرتجي عفوكم بكم فارحموني

في بحار الهوى غرقت بوجدني طال شوقي لهم وقد تركوني
أيها النفس ساعديني ونوحني ويح قلبي أحبتي هجروني
فطاب شيخ الشيوخ عند ذلك، وقام وسط الحلقة إلى أن وصل إليه، وأخذ
بيده وأجلسه على سجاده وخلع عليه، وطاب القوم وكانت ليلة عظيمة، فلا يصلح
السمع إلا لمن كان قلبه حيا ونفسه ميتة، وأما من كان قلبه ميتا ونفسه حية فلا، وكل
هذا ما لم يكن المنشد أمرد تنجذب النفوس إليه، وإلا كان المنع متفقا عليه.
وقد سئل بن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن فقال: ميعاد ما بيننا
أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا كانوا من
الصادقين.

وسئل الشبلي عن السماع فقال: ظاهره فتنة، وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارة
من الكلام حل له استماع العبرة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية، اهـ.
والحاصل أن السماع عندهم لا يكون مباحا إلا بشروط؛ منها أن يكونوا في
مكان لا يطلع عليهم فيه غيرهم، وأن يكون القوال ملتجيا، وأن يكون كلامه مما
تقوى به قلوبهم على السير إلى الله تعالى بالترقي إلى المقامات العلية، وأن يكون
بغير أجر، وأن لا يكون معهم شبان، وأن يكون سماعهم مع السكون والأدب لا مع
الحركة والرقص وضرب الأرض بالأقدام لإظهار التواجد ولا سيما إذا كان ذلك في
المساجد على الطريقة المعلومة الآن مع رفع الصوت بالألحان المهيجة للشهوات،
وتمايل الأمرد الجميل بالحركات والسكنات، فإن ذلك حرام بإجماع المسلمين، ولا
يقول بحله إلا من ابتدع أو تزندق أو كان من الضالين المضلين، خصوصا إذا اجتمع
مع ذلك التصفيق، أو الضرب على مثل الدف في المسجد الذي جعلوه على طريقهم
كالطريق، مع أنه ينزه عن رفع الصوت المشوش على المصلين حتى بالقرآن الكريم،
فإن دام هذا فلا يسعنا إلا أن نرفع أكف الشكوى لله فنقول: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ
عَظِيمٌ﴾ [النور: 16].

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

يُشَاهِدُ أَقْمَاراً بِهَا وَعَرَائِيسَا وَيَشْرَبُ مِنْ كَأْسِ الْهَنَاءِ وَالْمَسَرَّةِ

أي: (يشاهد) هذا المريد الواصل إلى درجات الكمال، (أقماراً) في الجنة (وعرائس) في غاية الحسن والجمال، ولعله أراد بالأقمار الولدان، وبالعرائس الحور الحسنان. وقد روي أن الواحدة من الحور العين تلبس سبعين حلة ومع ذلك يرى مخ ساقها من وراء الحلل من الحسن، وللمؤمن في الجنة سبعون حورية أو أكثر على حسب مراتب الأعمال، وما ينوف عن ألف خادم من الولدان الذين لا يفنى شبابهم ولا يعتريهم زوال، (ويشرب المريد) بمناولة الحور والولدان له (من كأس الهنا والمسرة) قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: 5] و«الهنا» بالقصر الفرح والمسرة والسرور، بما أعده له العزيز الغفور. ثم قال المصنف رضي الله عنه:

64 هُنَاكَ الْكَرَامُ النَّازِلُونَ مِنَ الْعَلَا مَنَازِلَ أَفْرَادٍ مَعَاهِدَ سَادَةِ

الإشارة بهناك إلى الجنة التي أعدها ذو الجلال والإكرام، لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام، فإن الموصفين بهذه الأوصاف ينزلون فيها من الدرجات العلى منازل أفراد مخصوصين بمزيد الإكرام من المنعم الجواد، وتوصف تلك المنازل بكونها معاهد سادة الناس أي: أماكنهم التي عهدت لهم، فإن المعهد المنزل، والسادة جمع سيد، وهو: من له السيادة على غيره.

قال المصنف:

65 بِحَيْثُ الْبَهَاءِ وَالْأَنْسُ بِالْقُدْسِ يَنْجَلِي عَلَى السَّرِّ جَهْرًا فِي جَمَالٍ وَبَهْجَةٍ

يعني أن هؤلاء الكرام، المخصوصين بمزيد الإكرام في دار السلام، ينزلون منها بحيث البهاء الخ أي: بمنزل ينجلي، أي: ينكشف فيه البهاء، أي: الحسن والأنس بالمحبوب، أي: يظهر لهم ذلك بسبب ما في قلوبهم من القدس، أي: الطهارة القلبية، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾ [الحجر: 47] أي: ما في قلوبهم التي في الصدور ﴿مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّنتَقِلِينَ﴾ [الحجر: 47] وفيه إشارة إلى مقعد الصدق المختص بالمتقين المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ

مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿[القمر: 55] فيتجلى ما ذكر من البهاء والأنس (على السر) أي: اللطيفة المودعة في القلب التي هي محل المشاهدة (جهرًا) بلا خفاء، (في جمال) أي: في حلل جمال (وبهجة) أي: هيئة حسنة تبهج بها النفس وتنسر، ويحتمل أن المعنى أن هذا المريـد إنما يكون في هذه المنازل العالية إذا كان في الدنيا بحيث البهاء الخ، أي: إذا كان بهذه الحالة التي يتجلى فيها البهاء والأنس على سره بسبب القدس، أي: الطهر القائم بقلبه فلا يكون في قلبه غل ولا غش ولا حسد، ليتضح قوله رضي الله عنه:

66 وَحَيْثُ كَمَالُ الذَّاتِ بِالذَّاتِ وَاحِدٌ تَغَانَتْ بِهِ الْأَكْوَانُ عَنْ كُلِّ وَجْهَةٍ

أي: ويكون المريـد في تلك المنازل العالية إذا وصل إلى معرفة أن (كمال الذات) الأقدس (بالذات) أي: بذاته تعالى (واحد) أي: فرد جامع لجميع أوصاف الكمال (تغانت) بالغيـن المعجمة أي: استغنت، يقال: تغانيت تغانيا بمعنى استغنيت، وقوله: (به) أي: بذلك الكمال (عن كل وجهة) أي جهة ومقصد، فلا ينبغي للمريـد أن يقف مع الأسباب، بل ينظر إلى مسببها فإنها في الحقيقة كسراب. ثم قال المصنف رضي الله عنه:

67 وَحَيْثُ الْبَقَا بَعْدَ الْفَنَاءِ لِسَالِكٍ أَزَالَ حِجَابَ الْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ نُقْطَةٍ

أي: ويكون المريـد في منازل الأبرار إذا وصل إلى مقام البقاء بالله بعد مقام الفناء فيه، بمعنى أنه بعد أن يتجلى الله عليه بصفاته السنية، فيفنى عن أوصافه البشرية، ويشاهد اضمحلال ما دون الحق بالكلية، ويتجلى عليه ثانيا بتجلي الذات في حضرة الأسماء، فيبقى متصفا بصفات الحق جل شأنه من حيث أنه يكون عاملا بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم: «تخلقوا بأخلاق الله» أي: بأوصافه التي تليق للبشر من الصفح والحلم ونحو ذلك، وعند ذلك يتحقق بمقام الحب المشار إليه في الحديث القدسي بقوله: «لا يزال عبي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به...» إلى آخره، وإلى هذين المقامين أشار البكري في ألفيته التي في التصوف بقوله:

كم لذة فاقت على اللذات تجلى علينا في تجلي الذات
ففي تجلي وصفه يفنينا وفي تجلي ذاته يبقينا

وقوله: (أزال) أي: كشف ذلك الشهود والتحقق بمقام البقاء بعد الفناء عن
هذا السالك (حجاب) أي: سائر (العين) أي: عين القلب المسماة بالبصيرة الكائن
ذلك الحجاب (من غين نقطة) بفتح الغين المعجمة وهو في الأصل الغيم الرقيق
أطلق هنا على ما يغشى القلب، فيكون على عين البصيرة كالنقطة على عين البصر،
فيحول بين البصيرة وبين إدراك الحقائق كما إن النقطة تمنع البصر من رؤية الشيء،
وقد يطلق الغين على التجليات الإلهية، كما في حديث: «إنه ليغان على قلبي وإني
لأستغفر في اليوم مائة مرة» فهو صلى الله عليه وسلم بعد أن يتجلى الله عليه بالتجلي
الذاتي يرى حاله الأولى أقل من الحالة التي انتقل إليها، فإنه ما من كمال إلا وعند
الله أكمل منه، قال تعالى: ﴿وَلَا آخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: 4] أي: وللحظة
المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة فيستغفر الله من الحالة الأولى، من باب:
«حسنات الأبرار سيئات المقربين» وإياك أن تفهم أن الغين رين يخالط قلبه الشريف،
فتزل بك القدم وتستحق اللوم العنيف، بل هي أغيان أنوار، وليست أغيان أعيار.
فنزله قلبه عن كل وصف يباعده عن الذات العلية

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

68	وَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْخٌ يُرِيهِ شُخُوصَهَا	وَيُدْنِيهِ مِنْ أُمِّ الْقُرَى وَبَثْنَةٍ
69	فَلَيْسَ لَهُ مِنْ عُمْرِهِ غَيْرَ رَسْمِهِ	وَعِيشَتُهُ فِينَا كَعِيشِ الْبَهِيمَةِ

أي: (وإن لم يكن) للمريد (شيخ) عارف بأصول الطريق التي بها (يريه
شخوصها) أي: يقربه بإمداده (من أم القرى) وهو من أسماء مكة، وإنما سميت «أم
القرى» لأن الدنيا دحيت من تحتها لما في الحديث: «أول بقعة وضعت في الأرض
مواضع البيت ثم مدت منها الأرض» أو لأن أهل القرى يقصدونها للحج فهي أم بهذا
المعنى، وهذا كناية عن كونه يقربه للمحل الذي هو أحق بالقصد من غيره، كما أنه
كنى بـ (بثينة) عن الذات العلية، وبعضهم يكتفي عنها بـ «ليلى» وبعضهم بـ «سلمى»
وبعضهم بـ «عزة» ونحو ذلك كما قال البكري:

وهذه كناية العرفان ورمز أهل الحق والإيقان
عن سرها كنيت بالألحان وحانها ونعمة القيان
وكيف لا يستر سر عزة ومجدها له أجل عزة
وقال آخر:

تمنت سلمى أن نموت صباية وأهون شيء عندنا ما تمت
وقال سلطان العاشقين ابن الفارض:

فكل مليح حسنه من جمالها معار له أو حسن كل مليحة
بها قيس لبنى هام بل كل عاشق كمجنون ليلى أو كثير عزة
وقال بعض العاشقين المحبين لرب العالمين:

نسمات هواك لها أرج تحيا وتعيش بها المهبج
وينشر حديثك يطوي الغم عن الاراح وينفرج
وببهجة وجه جلال جما ل كمال صفاتك أبتهج
لا كان فؤاد ليس يهيى م على ذكراك وينزعج
ما الناس سوى قوم عرفو ك وغيرهمو همج همج
قوم فعلوا خيرا وصلوا وعلى الدرج العليا درجوا
دخلو فقراء إلى الدنيا وكما دخلوا منها خرجوا
شربوا بكؤوس تفكرهم من صرف هواك وما مزجوا
يا مدعيا لطريقهم قوم نظرا بك ينعوج
تهوى ليلى وتنام الليلى ل وحققك ذا طلب سمج

ثم إن جواب الشرط قوله: (فليس له) أي للمريد الذي لم يكن له شيخ (من عمره) الذي عاشه (غير رسمه) فقط، ورسم الدار في الأصل هو ما درس منها وكان لاصقا بالأرض، أي: أن عمره صار لا منفعة به بل تكون (عيشته فينا) معاشر الصوفية (كعيش البهيمة) كما قال بعضهم:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردا لك لازم
وتنصب فيما سوف تكره عينه كذلك في الدنيا تعيش البهائم

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

70	وَيُدْعَى لَقِيْطًا أَيْنَ حَلٍّ مُعْطَلًا وَإِنْ كَانَ ذَا عِلْمٍ كَزَوْجِ عَقِيْمَةٍ
71	دَعِيًّا مَعَ السَّادَاتِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ كَذَا نَقْلُوهُ جُلَّ أَهْلِ الْحَقِيْقَةِ

يعني أن من لم يكن له شيخ فإنه (يدعى) أي: يسمى عند القوم (لقيطا أين حل) أي: نزل، واللقيط في الأصل الولد الملقوط، أي: المأخوذ من الأرض من غير أن يعلم له أب، والمراد مقطوع النسب، وقوله: (معطلا) أي: من التحلية بالاندرج في سلك القوم (وإن كان ذا علم) لأنه حيثئذ يكون هو وعلمه (كزوج) امرأة (عقيمة) لأن علمه لا ينتج له شيئا كالمرأة العقيمة التي لا تلد لزوجها، ولذا قال الغزالي: إذا وجدت الرجل قد طبق الأرض علما، ولم يكن له شيخ يوصله إلى سلسلة القوم، فهو عقيم لم يكن يلقي الحكمة، اهـ. وحيثئذ يدعى (دعيا مع السادات) أي: غير منسوب لهم (في كل موطن) فهو كابن الزنا عند القوم (كذا نقلوه جل) بضم الجيم أي: معظم (أهل الحقيقة) وهم السادات الصوفية.

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

72	وَأَيَّامُهُ تَمْضِي وَأَعْمَالُهُ بِهَا بَلَا وَفَقٍ شَرَعٍ فِي أُمُورِ الشَّرِيعَةِ
----	---

أي: (وأيام) الذي لم يكن له شيخ (تمضي) سدى (وأعماله بها) أي: فيها تكون (بلا وفق) أي: موافقة (شرع) لأنه لم يأخذها عن شيخ عارف متبحر (في) علوم (الشريعة) وحيثئذ فيجب اتخاذ الشيخ الذي يحسن به الوصول إلى إصلاح الأعمال، ويبلغ به المريد درجات العرفان غاية الكمال.

[خاتمة]

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

73	وَهَذَا الَّذِي قَدْ يَسَّرَ اللَّهُ نَظْمَهُ عَلَى أَحْمَدِ الْمَشْهُورِ بَيْنَ الْخَلِيقَةِ
74	بِوَالِدِهِ عُثْمَانُ مَرَبًّا وَمَنْشَأَ بِحَانَاتِ شَرْنُوبٍ بِأَرْضِ الْبُحَيْرَةِ

اسم الإشارة راجع إلى الكلام (الذي قد يسر) أي : سهل (الله نظمه) من البحر الطويل الذي وزنه : «فعلون مفاعيلن فعولن مفاعلن» مرتين، وقد أشار الشهاب الخفاجي إلى وزن هذا البحر في منزع صوفي مع حسن الاقتباس فقال :
 أيا من طويل الليل بالنوم قصرُوا أنيبوا وكونوا من أناس به تاهوا
 وإن شئتمو تحيوا أميتوا نفوسكم ولا تقتلوا النفس التي حرم الله
 وقوله : (على أحمد) أي : على لسان ناظمه القطب الشهير والبدر المنير سيدي أحمد عرب الشرنوبي ولي الله المحبوب وخرانة الأسرار والغيوب، فلا تعجب إذ ظهرت على يديه الكرامات، وخرقت له في عالم الملك سبل العادات، فإنه الإنسان الكامل عند كل إنسان، (المشهور بين الخليقة) أي : الخلق (بوالده عثمان) وهأنذا أذكر نسبه الشريف لتحصل لي بركة جنابه المنيف، فأقول :

هو سيدي أحمد عرب ابن سيدي عثمان ابن سيدي أحمد ابن سيدي علي نور الدين ابن سيدي أحمد أبي العباس ابن سيدي محمد ابن سيدي أحمد ابن سيدي محمد ابن سيدي أحمد ابن سيدي علي البرهاني - المكنى بأبي الوفاء الحال ضريحه بشرنوب - ابن سيدي خضر ابن سيدي علي ابن سيدي محمد ابن سيدي يوسف ابن سيدي سليمان ابن سيدي عبد المهيمن ابن سيدي عبد الخالق صلاح الدين ابن سيدي محمد قمر الدولة - الحال ضريحه بنفيا كناه بذلك سيدي أحمد البدوي عند إجتماعه به وقال له : أنت قمر دولتي - ابن سيدي حسن ابن سيدي حسن الصياد ابن سيدي إبراهيم الغالي - الحال ضريحه بفاو - ابن سيدي عمر - بالصعيد الأعلى - ابن سيدي محمد عبد السلام ابن سيدي إبراهيم الرضى ابن سيدي موسى الكاظم ابن سيدي جعفر الصادق ابن سيدي محمد الباقر ابن سيدي علي زين العابدين ابن سيدنا الحسين ابن سيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين . كذا وجد بخط

سيدي علي نجل الأستاذ.

وقد أشار رضي الله عنه إلى البلدة التي نشأ بها بقوله: (مربا ومنشأ بحانات شرنوب) أي: إن مرباه ومنشأه كان في حانات جمع حان، وهو في الأصل محل إجتماع الندمان. والمراد هنا أماكن القرية التي يقال لها شرنوب الكائنة (بأرض البحيرة) وهي من أعمال مصر، وفي تلك القرية نبي الله «جرجيس». وقد ظهر حال الأستاذ بها وهو ابن سبع سنين، وكانت والدته من الصالحات واسمها عايدة، وتنسب إلى سيدي أبي بكر الراعي الحال ضريحه بمحلة مرحوم، وكانت تربط له الخبز والجبن على مئزره وتقول له: احترز على غذائك من الأولاد، لأنه كان يسرح معهم بالغنم، فيأخذه الحال فيستغرق في الذكر حتى يرمي بالمتزر، فيأخذ الأولاد ما عليه ويجعلون مكانه شقفا، فإذا أفاق يقولون له اجلس يا أحمد للغداء، فيجلس ويحل إزاره فإذا بخبزه على حاله فيتعجبون من ذلك.

ولما اشتد به الحال توجه إلى مقام ولي هناك بناحية شرنوب يقال له: سيدي محمد الأعرج البرهاني، فكان لا يفارقه ليلا ولا نهارا، وقد ترك الأغنام واشتغل بالعبادة وابتلي بالإيذاء من أهل شرنوب، وكان عدة أهلها إذ ذاك تسعة آلاف رجل، وكانت والدته تقول له: اصبر يا أحمد فإنه لا يرجم إلا الشجرة المثمرة، وكان من جملة المنكرين عليه رجل يقال له حماد، قال: أتيت ذات يوم إلى المقبرة فرأيت الشيخ أحمد عرب قد علق على مواضع بجوار سيدي محمد الأعرج قطعاً من خرق، فقلت له: ما هذا الجنان الذي تفعله وتترك أغنامك؟ فقال لي: إن ههنا أولياء تدوسون عليهم بنعالكم فأحببت أن أظهرهم، قال: فتركته وأتيت بعد يوم في وقت السحر ورميت ما عليهم، وقلت: إنه مجنون، وإذ أنه قد أتى إلي فقيدت بقيد القدرة فمسك أذني ورماني في الأرض فما أفقت إلا وقت الضحى، فتبت بعد ذلك إلى الله تعالى.

ثم إن الأستاذ غاب في السياحة سبع سنين حتى أن أهله لا يدرون أين توجه، ثم إنه أتى وأقام مدة بمدينة دمنهور البحيرة، قال الشيخ سليمان بن صالح وهو من خواص أتباع الأستاذ، سألت أستاذي الشيخ أحمد عرب عند اجتماعي به بمدينة دمنهور البحيرة فقلت له: يا سيدي أأذن لي في سؤال ورد علي؟ فقال: يا سليمان تسألني إلى أين انتهت بنا السياحة؟ فقلت: نعم قال: يا ولدي إلى المغرب الأقصى وجبال الزيتون وساحل البحر المحيط، قال: فقلت في نفسي: إن الأستاذ لم يخبرنا

عن جبل قاف، فتبسم الأستاذ وقال: يا مبارك هاهو قاف، قال: فنظرت الجبل وما حوله ورأيت الأولياء والعباد يتعبدون هناك فغشي علي من ذلك اه. فانظر يا أخي إلى هذه الكرامة من هذا الأستاذ الذي بلغه الله مراده:

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار وأقام رضي الله عنه بمصر مدة بالدرب الأحمر في زاويته المشهورة، وله بين العلماء الأعلام الكرامات الماثورة، كما قال سيدي إبراهيم اللقاني صاحب الجوهرة: قد شاهدت من سيدي أحمد عرب الشرنوبى الكرامات الخارقة عند اجتماعي به حال بدايتي في مصر المحروسة بزاويته التي بالدرب الأحمر، ورأيت متمسكا بالكتاب والسنة، ورأيت جميع أتباعه مشغولين في الزاوية بالقرآن وطلب العلم، وسمعت منه علوما لم أسمعها من غيره، وسألني جماعة من أهل الأزهر في الاجتماع عليه، وقالوا: يا إبراهيم لابد تجمعنا على شيخك، فقلت: حبا وكرامة، فلما توجهنا إلى الزاوية قال أحدهم: في خاطري ملوخية، وقال الآخر: وتكون بإوز، قال الثالث: وأنا أريد عسل نحل وجبنا، وقال الرابع: وأنا أسأله عن علم الذات والصفات، فقلت: حيث إنكم أتيتم ممتحنين فلا أتوجه معكم، فقالوا: تبنا، فلما دخلوا على الشيخ قال لهم: مرحبا بمن تابوا قبل وقوع الذنب، ثم قال: يا نقيب هل بقي عندك شيء من الطعام؟ فقال: نعم، فأحضر زبدية فيها ملوخية فضرب الذي كان طالبا الإوز أصبعه فلم يجد مقصوده، فقال له الشيخ: يا مبارك من فاته اللحم فليقنع بالمرق، ثم إن الشيخ فتت فيها بعضا من الخبز وجعل يعطي هذا وركا وهذا كتفا وهذا جناحا، ثم قال: يا نقيب هات ما تحت القصعة، فإذا هو عسل نحل وجبن قديم، ثم قال والله يا أولادي من أطلعه الله على علم الذات والصفات وسكت عنه كان أولى له، فاندھش الجماعة وأخذوا عن الشيخ العهد، فقال الشيخ: يا إبراهيم الفقراء مثل النحل، والمجاورون مثل الزنابير، ثم قال: يا إبراهيم طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة ليس فيها دغل ولا غش ولا تلون، من أحدث فيها ما ليس منها أفقره الله وكشف حاله اه.

وقال العلامة الصاوي في حاشية الجوهرة: كان الشيخ إبراهيم اللقاني من أرباب الأحوال والكشف، وأنشأ هذه المنظومة ليلا، بإشارة شيخ التربية في التصوف سيدي أحمد عرب الشرنوبى، وعلمه أنه إذا قرأ في أذن المولود سورة القدر عند ولادته، لم يقدر الله عليه زنا مدة حياته اه باختصار.

وللأستاذ مع العارف الشعراني كرامات سنية وأحوال بهية أقر له فيها بالفضل والتقديم، وقال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21].

وقد أقام الأستاذ سبع سنين بمكة والمدينة وظهرت له ولأتباعه الكرامات العجيبة، قال الشيخ سليمان بن صالح: كنت أنا والشيخ نور الدين والشيخ محمد نور الدين اللقاني من جملة من صحب الأستاذ في السفر إلى مكة، فاتفق أننا تأخرنا عنه فنظرت إليهم فإذا هم صافون أقدامهم والأرض تطوى من تحتهم فكتمت أمري حتى لحقنا الأستاذ وعرفته الخبر، فقال: يا ولدي الآن عندنا من الفقراء نحو أربعة عشر تطوى لهم الأرض، ثم بعد ذلك توجه الأستاذ إلى شرنوب، ثم توجه إلى البلاد الرومية حيث رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وهو يقول له: يا أحمد امض إلى الشيخ نور الدين زاده بالقسطنطينية وخذ عنه الطريق، لأنه الآن رأس العارفين، فتوجه إليه ومعه جملة من أصحابه الأكابر، فلما وصل إلى الشيخ نور الدين خرج إليه من الخلوة، وقال: مرحبا بمن أتانا بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ومرحبا بأولاد الفقراء، ثم دخل هو والأستاذ الخلوة وأخذ عنه الطريق وأقام معه مدة بجامع السليمانية وكساه جبة من الصوف الأخضر وأعطاه سبحة نحو الألف حبة، فلما عزم السلطان سليم على فتح قبرص أتى إلى سيدي نور الدين يسأله الدعاء، فدعا له وأمر سيدي أحمد عرب بالتوجه معه، ففتح الله قبرص في تلك المرة، ورجع الأستاذ إلى القسطنطينية وأخرج مرسوما تأمر السلطان بإبطال العوائد والمظالم عن أهل شرنوب، فلما رجع الأستاذ إلى شرنوب وأعلمهم بذلك ذهبوا إلى حاكم القرية وقالوا: لا تزيد حماية عليك وليس لنا رغبة في إقامة هذا الرجل وأتباعه في بلدنا، بل رغبتنا نفيهم من الديار فإنهم لصوص بالليل وفقراء بالنهار، وشهدوا هذه الشهادة الزور وأظهروا ما كانوا عليه من الفجور، وقد انقرض الآن نسل جميع المنكرين، وتلا عليهم ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوَمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 45]، فتأمل يا أخي ما جرى للأكابر العارفين، وكن على ما ابتليت به من أهل بلدك من الصابرين، فإن هوى الوطن لا يحرك من قلبك ما سكن.

ومن العجائب أن مقتول الهوى أبدا يحن إلى لقاء القاتل وكانت طريقة الأستاذ شاذلية، وقد نقل عنه أنه قال: مشايخنا الذين أخذنا عنهم هم الشيخ عبد الرحمن التاجوري والشيخ عبد السلام بن عبد الرحمن

المغربي، وسيدي علي السكري، وسيدي علي المتقي الهندي بمكة المشرفة، وسيدي عبد الرحيم البيروتي، وسيدي الحسن البكري، وسيدي سليمان الخضيري، وسيدي إبراهيم الذاكر، وسيدي بدر الدين العالي، وسيدي محمد الشهاوي، وسيدي زين ابن بنت المرصفي، وسيدي نور الدين زاده القاطن بالقسطنطينية، اهـ.

وقد اشتهر رضي الله عنه بأنه وزير سيدي إبراهيم الدسوقي، لأنه كان على قدمه وشرب من مشربه، فهو وزيره حقيقة من حيث ائتلاف الأرواح وإن لم يجتمع معه في عالم الأشباح، فإن الأستاذ أخذ الطريق أولاً عن سيدي محمد الشهاوي، وثانياً عن سيدي سبط المرصفي وهو أخذ عن سيدي أبي القاسم البناء وهو وسيدي جلال الدين السيوطي أخذ عن سيدي محمد بن عبد السلام الشاذلي وهو وسيدي محمد العتريس أخذ عن سيدي محمد بن موسى أبي عمران وهو وأبوه وسيدي مرزوق الكفافي أخذوا عن القطب الحقيقي سيدي إبراهيم الدسوقي.

وقد أخذ عن الأستاذ جملة من الخواص الذين ظهر سرهم بين الأنام ببركة ما لهم من الإخلاص، منهم سيدي سليمان ابن صالح الدمنهوري، وسيدي إبراهيم اللقاني صاحب الجوهرة كما تقدم، وسيدي داود اللقاني، وسيدي علي المنير اللقاني، وسيدي شهاب الدين الدمياطي، والشيخ أبو البركات الحساوي، والشيخ إبراهيم الشبرخيتي، والشيخ حجازي السكندري، والشيخ شمس الدين التلبناني، والشيخ علي العلقمي، والشيخ عامر النقيب، والشيخ أحمد خاطر المدفون بجوار مقام سيدي ياقوت العرشي، والشيخ عبد ربه الأبيشيطي الحال ضريحه بالمحلة الكبرى، والشيخ محمد البلقيني الحال ضريحه ببلقين، والشيخ عبيد التمامي الحال ضريحه بالعكريشة، والشيخ أبو النصر الدسوقي الحال ضريحه بدسوق، والشيخ سليمان البرهاني الحال ضريحه بسنديون، والشيخ شرف الدين المرشدي، والشيخ البولين، والشيخ سليمان العلقمي، والشيخ حميدة الخويلدي المعروف بأبي عمران الحال ضريحه بالبهي، والشيخ محمد بن سكران الخوانكي، والشيخ عامر البقلي، والشيخ إبراهيم ابن الشيخ عبد الجليل الشرنوب، والشيخ إبراهيم السمديسي، والشيخ حسن المنزللاوي، والشيخ حسن النواصري، والشيخ سليمان العشماوي، والشيخ عبد الله المغربي، والشيخ سالم بن نعمة الدمنهوري، والشيخ زين المحلاوي، والشيخ محمد الدسوقي، إلى غير ذلك من أكابر الرجال أرباب المقامات والأحوال، الذين بذكرهم تنزل الرحمات، نفعا الله بهم وجعلنا من

المحيين لنشر مناقب السادات.

وكانت أوراڊ الأستاذ بعد صلاة العشاء سورة يس والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ومجلس التوحيد، وبعد صلاة الصبح سورة الواقعة والدخان وهل أتى على الإنسان والبروج وألم نشرح وأسماء الله الحسنى، وبعد العصر سورة عم يتساءلون وتبارك الملك والفتح وحزب البحر ومجلس التوحيد، وكان يأمر أصحابه بقراءة القرآن وطلب العلم وكان كثير الجود والكرم، حتى قال بعض أتباعه صحبت الأستاذ نحو أربعين سنة، فما سمعته يوما يقول ادخروا هذا لغد بل كان يوجد بجميع ما عنده على حد ما قيل:

من ظن بالله خيرا جاد مبتدئا والبخل من سوء ظن العبد بالله
وقد كان رضي الله عنه يترنم بهذه الأبيات:

أوسع رحلي على من نزل وزادي مباح لمن قد أكل
تقدم ما عندنا حاضر ولو لم يكن غير خبز وخل
فأما الكريم فيرضي به وأما اللئى فمن قد أقل
ومن كلامه رضي الله عنه:

وليس أخى من ودني بلسانه ولكن أخى من ودني في المصائب
وكان يقول: يا أولادي إن الشيخ يحفظ المريد الصادق في قربه وبعده.

وقد اتفق أن الشيخ سليمان بن صالح تلميذ الأستاذ كان مقيما بالزاوية التي بالدرب الأحمر في مصر والأستاذ في شرنوب، وكان الشيخ سليمان المذكور دخل الخلوة بالزاوية المذكورة وأقام بها أربعة عشر يوما، فأرسل له الأستاذ مكتوبا يقول فيه إذا قرأت كتابي فاخرج من الخلوة عاجلا، فلما قرأه امتثل لأمر الأستاذ وقال: هذا جزاء من يدخل الخلوة بغير إذن أستاذه، فما استتم الخروج من الخلوة حتى سقط سقفها فعلم أن الأستاذ ملاحظ للمحافظة عليه.

وقال بعض أتباع الأستاذ: سافرت مرة إلى الحج فحصل لي مرض برجلي، فطلبت الركوب فقال لي رجل معه ناقة: أعطني عشرة أنصاف وأنا أعطيك ناقتي تركبها، فركبتها وقلت هذا من بركة أستاذي، فقال: ومن أستاذك؟ قلت: سيدي أحمد عرب الشرنوبي، فرماني من فوق الناقة فنزلت على رجلي الأخرى، وقال: لو

تعطيني عشرة دنائير ما ركبته، فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله لو علمت أن هذا يكره أستاذي ما ذكرته له، وإذا أنا بالأستاذ قادم ويده ناقة بيضاء فمسح على رجلي حتى برئت، ثم قال لي: إن الرجل الذي حملك على ناقته ثم رماك من أهل شرنوب من بيت الإنكار علينا، وأحمد الله حيث لم يقتلك، فقلت له: يا سيدي أنا أعلم أنك في الحج، فقال: أكنتم أمرك واركب هذه الناقة فركبتها، فلما رجعت أتيت لزيارة الشيخ بشرنوب وإذا بالرجل الذي رماني دخل على الأستاذ وسلم عليه وصار يقول: يا سيدي حملت رجلا في الحج على ناقتي من أجلك، فقلت له: لأي شيء رميتني من فوق ظهرها كسرت رجلي، فلما عرفني خجل ولى.

ثم إن الأستاذ توجه ثاني مرة إلى الديار الرومية سنة أربع وتسعين وتسعمائة في شفاعة لبعض أتباعه عند السلطان، وكان معه جملة من خواصه، فلما مر على أهل الشام أهدى له بعض الناس قماشا، ففصل منه مزارا طوله سبعة أذرع وعرضه ثلاثة أذرع وقميصا واسعا وأمر النقيب بحفظ ذلك إلى وقت الحاجة، فلما وصل إلى بلدة من بلاد الروم يقال لها «أرجلي» مرض بها ثلاثة عشر يوما ومات رضي الله عنه، فأمر الوزير إبراهيم باشا بأن يبنى للأستاذ مقام وزاوية، فبنى له ذلك ورتب فيها ترتيبا عجيبا ووقف أهل الناحية أيضا من الثمار ما يقوم بالزاوية والمترددین عليها لما شاهدوه من الكرامات الظاهرة، والأنوار الباهرة، فإن مقامه عليه من الأنوار ما يبهز الزوار، وقد كان عمر الأستاذ إذ ذاك ثلاثا وستين سنة، فيكون مولده سنة تسعمائة وواحد ثلاثين، وكان رضي الله عنه يقول من باب التحدث بالنعمة: عرفت العلم اللدني وأنا ابن ثمان سنين، واطلعت على اللوح المحفوظ وأنا ابن عشرين سنة، وأقمت قطبا خمس وعشرين سنة.

وقد ألف سيدي علي نجل الأستاذ كتابا في مناقب والده وكراماته فانظره إن شئت، وكان عمر سيدي علي حين مات الأستاذ تسع سنين، وأما سيدي محمد وسيدي يوسف فقد مات الأستاذ وهما صغيران، وقد حصلت لهما بركة والدهم حتى بلغوا أعلى الدرجات، وظهرت على أيديهم الكرامات، ولكل من هؤلاء الثلاثة مقام بشرنوب، تلوح عليه الأنوار وتنفس به الكروب، وقد مات للأستاذ جملة أولاد في حياته، ومنهم سيدي يوسف المدفون بدمنهوور البحيرة المشهور بسيدي حجاج، ومنهم سيدي عثمان ودفن بمصر بالدرب الأحمر، ومنهم سيدي محمد الأول وسيدي أحمد الأول والثاني وقد دفنوا بزاوية سيدي علي أبو الوفاء بشرنوب،

وكذلك جملة بنات دفنوا بالزاوية المذكورة.

وأما والد الأستاذ فهو مدفون بثغر الإسكندرية وعلى مقامه ما يهر الزوار من الأنوار البهية، رضي الله عنهم ونفعنا بهم أجمعين، وجعلنا في سلوكهم من المنتظمين، انتهى ملخصا من الطبقات الشرونية، المسماة بالأنوار القدسية، مع زيادة قليلة، أتيت بها لنشر محاسن المآثر الجميلة.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

75 وَأَرْجُو مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ قَبُولَهُ وَسَتْرُ عَيْبٍ فِيهِ طَمَتْ وَعَمَّتْ

لما فرغ رضي الله عنه مما كان بصده من بيان أصول الطريق، شرع يرجوا قبوله وستر عيوبه من ولي التوفيق، فإن الكريم لا يخيب من ارتجى ولا من إليه التجا، وقوله: «طمت» بفتح المهملة وتشديد الميم، أي: غلبت، و«عمت» بتشديد الميم، أي: شملت، ولبعضهم:

كرم المهيمن منتهى أمني لا نيتي أرجو ولا عملي
يا مفضلا جلت فواضله عن بغيتي حتى انقضى أمني
كم قد أفضت علي من نعم كم قد سترت علي من زلي
إن لم يكن لي ما ألوذ به يوم الحساب فإن عفوك لي
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

76 وَيَنْفَعُنَا بِالْعِلْمِ ثُمَّ يُعِينُنَا بِتَوْفِيقِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَلَحْظَةٍ

أي: (و) أرجو من الله بمعنى أطلب منه أن (ينفعنا بالعلم) وإنما بدأ بنفسه لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم إذا دعا بدأ بنفسه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 19] وذنبه صلى الله عليه وسلم من باب حسنات الأبرار سيئات المقرين، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم معصوم من وقوع ذنب، وإنما أتى المصنف بنون العظمة في قوله: «وينفعنا» إشارة إلى جواز التعاضد بالعلم، أي: إظهار عظمتهم لما في الحديث: «ليس منا من لم يتعاضد بالعلم» أي: يعده عظيما، ولأن العلم أشبه شيء بالجماعة، وقوله (ثم يعيننا) أي: على القيام بحقه

(بتوقيفه) أي: خلق القدرة على الطاعة فينا (في كل وقت) من الأوقات، (ولحظة) من اللحظات، وهي الزمان اليسير بقدر ما تلاحظ العين أي: تنظر بلحظها.
ثم قال المصنف:

77 وَيَجْعَلْ إِخْلَاصِي إِلَيْهِ مُحَقَّقًا وَيَرْحَمْ شَيْبِي فِي شَتَاتِي وَغُرْبَتِي

أي: (و) أسأله سبحانه أن (يجعل إخلاصي إليه) في الأعمال (محققاً) غير مشوب بشيء من الرياء والسمعة، (و) أن (يرحم شيبتي) الحاصل (في) وقت (شتاتي)، أي: فرقتي عن أوطاني (وغربتي) أي: بعدي عنها، وفي الحديث القدسي: «الشيب نوري وأنا أستحي أن أحرق نوري بناري».
ومما قيل في مزية التغرب عن الأوطان:

ارحل عن الأهل والأوطان قاطبة
فالكحل نوع من الأحجار مطروح
لما تغرب حاز الفضل أجمعه
وقال آخر:

ارحل عن الأهل والأوطان قاطبة
أما ترى يوسف الصديق حين أتى
ولبعضهم وأجاد:

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه
فالأسد لولا فراق الغاب ما اقتنصت
والتبر كالترب ملقى في أماكنه
فإن تغرب هذا عز مطلبه
وقال الطغرائي:

إن العلا حدثتني وهي صادقة
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى
فيما تحدث أن العز في النقل
لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل
وقال بعضهم:

وليس بقاء المرء في دار غربة مضرا إذا ما كان في طلب المجد
"فائدة": نقل عن سيدي أحمد زروق أنه قال: من كان مسافرا ودخل بلدة لا
يعرف بها أحدا فإنه يبادر إلى المسجد قبل أن يكلم أحدا، فيصلّي ركعتين، ثم
يقول: «يا فتاح» مائة مرة، «يا رزاق» مائة مرة، «يا مغيث» مائة مرة، «يا أرحم
الرحامين» مائة مرة، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة، ثم يخرج،
فإنه يجد قبولا عظيما عند أهل هذه البلدة. وفي الحديث الشريف: «لا غربة على
المؤمن ما مات مؤمن بأرض غربة غابت عنه بواكيه إلا بكت عليه فيها السماء
والأرض» وروي أن الميت في الغربة يقاس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة.
ثم إن بعضهم نظم الأمور التي تعجل الشيب فقال:

الشيب من سبعة يأتي الرجال ومن يأتي له السبع لم يأمن من الخطر
هم ودين ركوب البحر رابعها موت اليقين عيال عند مفترق
قهر الرجال وقطاع الطريق حكوا وقيل من بلغهم يأتي بلا نكر
شاب الخليفة قالوا شبت قال لهم من المنابر خوف اللحن فاعتبر
وقيل للمصطفى قد شبت قال لهم هود وأخواتها قد صح في الخبر

يعني أنه صلى الله عليه وسلم قال: «شيئتي هود وأخواتها» عندما نزل قوله
تعالى فيها: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: 112] فإن قوله: «كما أمرت» يدل على أن
الاستقامة تكون بحسب المعرفة، فمن كملت معرفته بربه عظم عنده أمره ونهيه، فإذا
سمع «كما أمرت» علم أنه طوبى باستقامته تليق بمعرفته بكمال الأمر له، ويحق لمن
فهم ذلك يشيب إذ لا يطيق أحد أن يأتي بعبادة على حسب ما يعرف من عظمة ربه،
بل لا بد أن يستصغر جميع ما يأتي به بالنسبة إلى عظمة ربه، ولذلك لما نزل قوله
تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: 102] قلقت الصحابة خوفا من كونهم لا
يقدرّون على القيام بذلك فأنزل الله رحمة بهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾
[التغابن: 16]. ثم إن أخوات هود هي السور التي ذكرت فيها أهوال القيامة كالواقعة
والحاقة وسأل سائل والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت والقارعة، وقد
كان شبيه صلى الله عليه وسلم قليلا لا يزيد عن عشرين شية، وأكثره في عنفقه،
وما أحكم قول الإمام الشافعي:

أنعم عيشا بعد ما حل عارضي طلائع شيب ليس يغني خضابها

أيا بومة قد عشتت فوق هامتي
رأيت خراب العمر مني فزرتني
إذا اصفر لون المرء وابيض رأسه
فدع عنك فضلات الأمور فإنها
وما هي إلا جيفة مستحيلة
فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلها
فطوبى لنفس أوطنت قعر دارها
وما ألطف قول بعضهم:

أنذرك الشيب فخذ نصحه
وعلة الشيب إذا ما اعترت
وقال آخر:

إلام تجر أذيال التصابي
لسان الشيب في فوديك نادى
وأجاد القائل:

وما أقبح التفريط في زمن الصبا
ترحل عن الدنيا بزاد من التقى
وقال بعضهم:

لم أقل للشباب في دعة الله
زائر زارنا أقام قليلاً
وقال آخر:

لقد نزل المشيب على شبابي
فقلت له أترحل يا شبابي
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

على الرغم مني حين طار غرابها
ومأواك من كل الديار خرابها
تبغض من أيامه مستطابها
حرام على نفس التقى ارتكابها
عليها كلاب همهن اجتذابها
وإن تجتذبها نازعتك كلابها
مغلقة الأبواب مرخى حجابها

فإنما الشيب نذير نصيح
أعيت ولو كان المداوي المسيح

وشيبك قد نضى برد الشباب
بأعلى الصوت حي على الذهاب

فكيف به والشيب في الرأس نازل
فعمرك أيام تعد قلائل

ولا حفظه غداة استقلا
سود الصحف بالذنوب وولى

وقال له ارتحل ها قد نزلنا
وتتركني فقال نعم عزلنا

أي: (و) أسأله سبحانه أن (يدرجنا في سلك قوم أحبهم) لكونهم من خواصه المقربين، فهو تعالى يحبهم ويحبونه، أولاهم من المقام الأمين قد (رضوه) ربا ومالكا ومتصرفا في جميع الأحوال، فلا يعترهم من تصرفات في أبدانهم ضجر ولا فيما لهم من الأموال، ولذا قربهم لديه (وأرضاهم بحسن مزية) خصوا عمن سواهم. ثم قال المصنف:

79	وَيَعْفُو عَنِّي وَالَّذِينَ أَحَبُّهُمْ	وَيَدْفَعُ عَنَّا كُلَّ سُوءٍ وَفِتْنَةٍ
----	--	--

أي: (و) أسأله سبحانه أن (يعفو عني) أن يمحو ذنوبي من ديوان الحفظه، (و) كذلك يعفو عن (الذين أحبهم) (و) أسأله أن (يدفع) أي: يصرف (عنا كل سوء) أي: مكروه يسيء الإنسان أي: يحزنه، (وفتنة) أي: بلية وامتحان واختبار من ذلك فتنة القبر، أي: امتحان الميت فيه بالسؤال هل كان مطيعا أم لا؟. وما ألطف قول الصفي الحلبي:

تب وادع ذا الجلال بالصدق تجد الله للدعاء سميعا
لا تخف مع رجاء ربك ذنبا إنه يغفر الذنوب جميعا
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

80	وَيَرْزُقُنَا وَالْمُسْلِمِينَ بِأَسْرِهِمْ	يَقِينًا يَقِينًا كُلَّ شَكٍّ وَرَيْبَةٍ
----	---	--

أي: (و) أسأله سبحانه أن (يرزقنا والمسلمين) بأجمعهم (يقينا) أي: جزما مطابقا للواقع فهو عبارة عن قوة الإيمان ورسوخه حتى يصير كأنه الطود الشامخ لا تزلزله الشكوك ولذا وصفه بقوله: (يقينا) من الوقاية، أي: يمنع عنا (كل شك وريبة) والعطف مرادف فإن الريبة هي الشك، قال سهل بن عبد الله التستري: يتفاضل الناس يوم القيامة بقدر يقينهم وأدنى مراتب اليقين الثقة بالله. ثم إن المصنف رضوان الله عليه، توسل إلى الله في إجابة دعائه أعظم الوسائل إليه، فقال:

81	بِحَاجَةِ نَبِيِّ مِنْ سُلَالَةِ آدَمَ	بِمَنْ خَلَقَهُ الْأَمْلاَكُ وَالرُّسُلُ صَلَّتْ
----	--	--

أي: أتوسل إليك يا الله (بجاه نبي) عظيم (من سلالة) أي: نسل (آدم) أبي البشر، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم» ويجوز التوسل أيضا بغير الأنبياء كالشهداء والأولياء والعلماء الصالحين، ويشهد لذلك ما رواه البخاري عن أنس أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، ويقول: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا محمد صلى الله عليه وسلم فاسقنا وإنا نتوسل إليك بعم بنينا فاسقنا، قال: فيسقون. ومن كلام بعض آل الصديق المجرب لدفع كل هم وضيق:

نبي الهدى ضاقت بي الحال في الورى وأنت بما أملت منك جدير
فسل خالقي تفريج كربى فإنه على فرجى دون الأنام قدير
ومما جرب لدفع كل شدة، هذان البيتان فاتخذهما لك عدة:

إليك رسول الله أشكو نوائبا عن الدهر لا يقوى لها المتحمل
وإني لأرجو أنها بك تنجلي فإنك لي جاه وحصن ومعقل
ومما جرب لدفع الكرب قراءة هذه الأبيات المختومة بالتوسل بسيد
السادات، وقد قال السيوطي نقلا عن النووي ما قرأها أحد ثم دعا الله عقبها بشيء
إلا استجيب له:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع يا من يرى ما في الضمير ويسمع
يا من يرجى للشدائد كلها يا من يرجى للشدائد كلها
يا من خزائن رزقه في قول كن يا من خزائن رزقه في قول كن
ما لي سوى فقري إليك وسيلة ما لي سوى فقري إليك وسيلة
ما لي سوى قرعى لبابك حيلة ما لي سوى قرعى لبابك حيلة
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه ومن الذي أدعو وأهتف باسمه
حاشا لجودك أن تقنط عاصيا حاشا لجودك أن تقنط عاصيا
بالذل قد وافيت بابك عالما بالذل قد وافيت بابك عالما
وجعلت معتمدي عليك توكلنا وجعلت معتمدي عليك توكلنا
فبحق من أحببته وبعثته فبحق من أحببته وبعثته
اجعل لنا من كل ضيق مخرجا اجعل لنا من كل ضيق مخرجا

أنت المعد لكل ما يتوقع أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من إليه المشتكى والمفرع يا من إليه المشتكى والمفرع
أمنن فإن الخير عندك أجمع أمنن فإن الخير عندك أجمع
فبالافتقار إليك فقري أدفع فبالافتقار إليك فقري أدفع
فلئن رددت فأني باب أقرع فلئن رددت فأني باب أقرع
إن كان فضلك عن فقيرك يمنع إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
الفضل أجزل والمواهب أوسع الفضل أجزل والمواهب أوسع
أن التذل عند بابك ينفع أن التذل عند بابك ينفع
وبسطت كفي سائلا أتضرع وبسطت كفي سائلا أتضرع
وأجبت دعوة من به يتشفع وأجبت دعوة من به يتشفع
والطف بنا يا من إليك المرجع والطف بنا يا من إليك المرجع

ومن الفوائد الشريفة، قول بعضهم في فضل الصلاة على صاحب الدرجة المنيفة:

إذا كنت في هم وضقت بحمله وأصبحت محزوناً وقلبك في حرج
فصل على المختار من آل هاشم كثيراً فإن الله يأتيك بالفرج
ومن الأدعية المجابة أن تقول بعد أن تصلي على طه الرسول: يا الله يا واحد
يا أحد يا واجد يا جواد نفحنا منك بنفحة خير إنك على كل شيء قدير. وقد زاد
المصنف في الاستعطاف بذكر الأوصاف التي من الله بها على حبيبه حيث قال (بمن
خلفه) أي: وراءه (الأملاك) جمع ملك بفتح اللام وهم أجسام نورانية لهم قدرة على
التشكل لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ولا يأكلون ولا يشربون، ولا يعصون الله ما
أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، (والرسل) بإسكان السين جمع رسول وهو إنسان ذكر
حر من بني آدم أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، كان له كتاب أم لا، ولذا كثرت الرسل
وقلت الكتب، وأما النبي فهو إنسان ذكر حر من بني آدم أوحى إليه بشرع أمر بتبليغه
أم لا، فهو أعم من الرسول على الأصح، والمراد من الرسل ما يعم الأنبياء، وعدد
الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر وقيل
 وخمسة عشر، يجب الإيمان بهم إجمالاً، وأما تفصيلاً فلا، إلا بخمسة وعشرين
مجموعين في قول بعضهم:

حتم على كل ذي التكليف معرفة بأنبياء على التفصيل قد علموا
في تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عشر ويبقى سبعة وهموا
إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا
وقوله: (صلت) إلى بيت المقدس ليلة أسري به صلى الله عليه وسلم، فإن
الأنبياء اجتمعت هناك لملاقاته، فلما وصله وكان صحبته جبريل وميكائيل أثنى كل
من الأنبياء على مولاه تحدثاً بما أنعم به عليه وأولاه، فقال إبراهيم الخليل: الحمد
لله الذي اتخذني خليلاً، وقال موسى: الحمد لله الذي اتخذني كليماً، إلى أن قال
سيد الأولين والآخرين: الحمد لله الذي بعثني رحمة للعالمين، فقال له الخليل:
بهذا فضلتنا تقدم فأنت الإمام، فصلى بهم ركعتين من النوافل، لأن الصلوات
الخمسة لم تفرض إلا ليلة الإسراء، وهل حضور الأنبياء في بيت المقدس وفي
السموات بعد ذلك كان بأرواحهم؟ وإنما تشكلت بصور أجسادهم؟ أو كان

بالأجساد حقيقة؟ في ذلك خلاف، فذهبت طائفة إلى الأول واستدلوا برواية أبي هريرة «فلقي أرواح الأنبياء»، وذهبت طائفة إلى الثاني واستدلوا برؤية النبي صلى الله عليه وسلم لموسى عليه السلام قائما يصلي في قبره، وقالوا إن البرزخ ينسحب عليه بحكم الدنيا في الاستكثار من الأعمال وزيادة الأجور، لأن الذي ينقطع بالموت إنما هو التكليف، وأما أعمال الآخرة فهي على سبيل التلذذ بها.

ثم قال المصنف رضي الله عليه:

82 | وَلَوْلَا مَا كَانَتْ لَادَمَ صُورَةً وَلَا تَابَ عَنْهُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ أَكْلِهِ

أي: (ولولا) الحبيب المحبوب الذي خلقت لأجله الأرض والسموات (ما) كانت لآدم صورة) في الوجود ولا شيء من الموجودات ولذا قيل على لسان الحضرة النبوية:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوتي وذلك لأن آدم خلق من نوره صلى الله عليه وسلم، فإن الحقيقة المحمدية هي الذات المتعين بالتعيين الأول، كما يشير إلى ذلك حديث جابر حيث قال صلى الله عليه وسلم له: «أول ما خلق الله نور نبيك من نوره» ويلزم أن تقول: إن الحقيقة المحمدية لا تحتاج إلى محل تقوم به لأنها خلقت من النور، فهي من قبيل المجردات التي لا تحتاج إلى محل حتى يصح أنها أول ما خلق الله، وأما أن قلنا إنها تحتاج إلى محل فلا بد من سبق المحل الذي تقوم به، فلا تتحقق لها الأولية كما أفاده أستاذنا السقا نقلا عن العلامة الأمير.

وقوله: (ولا تاب عنه الله) أي: من الذنب الصوري الذي اقترفه هو وزوجته حواء بالأكل من شجرة الحنطة بعد أن نهاهما الله عنها بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35] وتسميتها «شجرة» مجاز لأن الشجر ما له ساق، وقيل: هي شجرة العنب، وإنما قلنا: من الذنب الصوري، لأنه لم يعتمد الأكل منها، وإنما أكل ناسيا، لقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115] وفي الحقيقة أن آدم لما اطلع على اللوح المحفوظ ورأى أنه سبق في علم الله أكله من الشجرة وعلم ما يترتب على نزوله إلى الأرض من تناسل الأنبياء والمرسلين وظهور سيد الأولين وآخرين بادر بتنفيذ القضاء، فتسمية ما فعله ذنبا بحسب الظاهر فقط،

لأنه وإن كان منها ظاهرا مأمور باطنا، ولذا قال بعض العارفين: لو كنت بدل آدم لأكلت الشجرة بتمامها، يعني حيث ترتب على ذلك النفع العام بظهور البدر التمام، وقد ورد أن آدم لما اقترف الخطيئة قال: يا رب أسألك بحرمة محمد إلا غفرت لي، فقال له: يا آدم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه، فقال: يارب لما خلقتني ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعرفت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله تعالى: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي، وحيث سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

83	فَفِي فَضْلِهِ الْقُرْآنُ جَاءَ مُبَيَّنًّا وَنَاهِيكَ قَوْلُ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ خَلْقَةٍ
----	--

أي: ففي فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان عظيم قدره «جاء» القرآن الكريم حال كونه «مبيناً» أي: موضح الدلالة على ذلك قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿[الأحزاب: 45-46] إلى غير ذلك من الآيات المشعرة بما لجنابة المنيف من أعلى الدرجات فهو سيد الأولين والآخرين، وأفضل الخلائق أجمعين، كما قال اللقاني في جوهريته:

وأفضل الخلق على الإطلاق
والانبيا يلونه في الفضل
وبعدهم ملائكة ذو فضل
وما ألطف قول الإمام البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبهم واحكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف
بما شئت مدحا فيه واحتكم
وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له
حد فيعرب عنه ناطق بفم
وحكي أنه رؤي ابن الفارض في المنام فقيل له: لِمَ لم تمدح النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال:

أرى كل مدح في النبي مقصرا وإن بالغ المثنى عليه وأكثر

إذ الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما تمدح الورى
ولذا قال المصنف: «وناهيك» أي: كافيك عن طلب غيره دليلا على فضله
«قول الله» العلي العظيم الذي أنزل عليه «من غير خلقه» بل هو كلامه القديم.
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

84 وَمَنْ قَالَ مَخْلُوقٌ كَلَامَ إِلَهِنَا سَيَصِلَى سَعِيرًا لِلْعُصَاةِ أَعَدَّتْ

أي: ومن قال أن القرآن الذي هو كلام الله تعالى مخلوق فإنه سيصلى أي:
يدخل يوم القيامة سعيرا وهي طبقة من طبقات النار أعدت أي: هيئت للعصاة بل هو
قال:

85 كَلَامٌ قَدِيمٌ مُنْزَلٌ غَيْرٌ مُحَدَّثٌ بِهِ جَاءَ جَبْرِيلُ عَلَى خَيْرِ أُمَّةٍ

أي: بل هو (كلام) الله ال (قديم)، ال (منزل) على نبيه العظيم، (به جاء) أي:
نزل (جبريل على) أي: لأجل (خير أمة) وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم حبيب
الرحمن ومجتباؤه، المنزل في شأنها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

وقد أنزل القرآن من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة
القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]، ثم نزل به جبريل
مفرقا على حسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة.

وقد روي في كيفية نزول القرآن أن الله تعالى إذا أراد إنزال سورة أو آية نظر
بصفة العلم في قلب جبريل عليه السلام فحصل فيه علم ضروري، ثم نظر بصفة
الكلام ففتق لسانه عليه السلام على ألفاظ القرآن مع النظم، فأنزله على نبينا محمد
صلى الله عليه وسلم، فالناظم له في الحقيقة هو الله تعالى حيث فتق بلسان جبريل.

قال الإمام الشعراني في كتابه القواعد الكشفية: واعلم يا أخي أن مسألة كيفية
كلام الله تعالى والكلام على حدوثه وقدمه من عضال المسائل، وقد حصل بسببها
ضرب وقتل لبعض الأئمة، فلنذكر لك أحسن ما رأيناه من كلام المتكلمين، ثم ما
رأيناه من كلام العارفين، فنقول وبالله التوفيق: اعلم أن القرآن يطلق بالاشتراك على

معنيين كما قال الكمال ابن أبي شريف؛ أحدهما: الكلام القائم بالذات الأقدس، الثاني: اللفظ المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم إن القرآن بالمعنى الأول محل نظر علماء أصول الدين، وبالمعنى الثاني محل نظر علماء العربية والفقه، ووجه الإضافة في تسمية كلام الله تعالى بالمعنى الأول أنه صفة الله تعالى، وبالمعنى الثاني أنه أنشأه برقومه في اللوح المحفوظ، لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ نَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: 21-22] أو بحروفه في لسان الملك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: 40]. ثم قال وقد منع السلف الصالح القول بكون القرآن مخلوقا بالمعنى الثاني، أدبا واحترازا عن ذهاب الوهم إلى القرآن بالمعنى الأول الذي هو كلام الله النفسي القائم بذاته تعالى.

وقال الإمام ابن العربي في الباب التاسع والستين وثلاثمائة المراد بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ [الأنبياء: 2] أنه محدث الإتيان لهم لا الوجود فهو قديم في العين حادث في الإتيان، ثم قال: ومما يدل على أن الكلام لله والترجمة للمتكلم قوله تعالى مقسما: ﴿إِنَّهُ﴾ يعني القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: 40] فأضاف الكلام إلى الوساطة والمترجم كما أضافه تعالى إلى نفسه بقوله: ﴿فَاجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6] فإذا تلي علينا القرآن فقد سمعنا كلام الله، وموسى عليه السلام لما كلمه ربه سمع كلام الله ولكن بين السماعين، أبعد من المشرقين، لأن الذي يدرکه من سمع كلام الله بلا واسطة لا يساويه من يسمعه بالواسطة.

وقال في باب الأسرار: ذكر القرآن أمان، وبه يجب الإيمان أنه كلام الرحمن، مع تقطع حروفه في اللسان، ونظم حروفه فيما رقم باليراع والبنان، فحديث الألواح والأقلام، وما حدث الكلام، وحكم على العقول والأوهام، بما عجزت عن إدراكه الأفهام.

وقال فيه أيضا: الذكر القديم ذكر الحق، وإن حكى ما نطق به الخلق، كما أن ذكر الحادث ما نطق به الخلق وإن كان كلام الحق إذا كان الحق تعالى يتكلم على لسان عبده فالذكر قديم، ومزاجه بالعبد من تسنيم، لا يعرف الحق في هذه المسألة إلا من كان الحق قواه، ولا يكون قواه إلا إن أيده وقواه.

ثم قال: فإن قال قائل: فهل كان يجوز لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن

يتصرف فيما أنزل عليه بعبارة أخرى نظير جواز رواية الحديث بالمعنى للعارف؟
 فالجواب لا يجوز لأحد أن يعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصرف
 في اللفظ المنزل عليه أو أنه رواه بالمعنى لأنه لو صح في حقه ذلك لكان مبينا لنا
 صورة فهمه صلى الله عليه وسلم لا صورة ما نزل عليه، وقد قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنَ
 لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44] وقال تعالى ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ
 رَبِّكَ﴾ [المائدة: 67] اه باختصار.

واعلم أن كلام الله تعالى لا يكيف كسائر صفاته من علم وإرادة وقدرة حتى
 لو سئل موسى عليه السلام كيف سمعت كلام ربك؟ لا يقدر على إيصال علم كيفية
 ذلك إلينا بعبارة، لأنه من جملة علوم الأذواق، كما لو قلت لمن ذاق طعم العسل
 دونك صف لي طعمه، فإنه لا يقدر على إيصال صورة ذوقه لك في عبارة، فافهم
 ذلك والله يتولى هداك.

ثم اعلم أن القرآن إنما نزل مفردا ولم ينزل جملة كغيره من الكتب، لأن إنزاله
 كذلك فيه تثبيت لقلب من أنزل عليه وعناية لاستلزامه كثرة نزول الملك إليه، وجميع
 الكتب التي أنزلت من السماء مائة وأربعة، منها؛ خمسون صحيفة على شيت،
 وثلاثون على إدريس، وعشرة على إبراهيم، وعشرة على موسى قبل التوراة، وتوراة
 موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود، وفرقان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم
 وعليهم أجمعين، وإنما سمي فرقانا لكونه فارقا بين الحق والباطل، كما أنه سمي
 قرآنا من القرء بفتح القاف وهو الجمع، لجمعه معاني الكتب السماوية جميعها.

وقد جمعه أبو بكر رضي الله عنه بإشارة عمر ثم جمعه ثانيا عثمان رضي الله
 عنه بإجماع الصحابة، والفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان، أن جمع أبي بكر
 كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعا في
 موضع واحد في زمنه صلى الله عليه وسلم، لتردد الوحي بالناسخ والمنسوخ، وإنما
 كان بعض الصحابة يحفظ سورة والبعض سورا والبعض آيات ويكتبون ذلك في
 أوراق أو على عسيب النخل أو نحو ذلك، فجمعه أبو بكر في صحائف مرتبا لآياته
 وسوره على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فلا تتوهم من قول بعضهم:

مخلف طه سبحتان ومصحف

أن القرآن كان مجموعا في مصحف واحد على عهده صلى الله عليه وسلم،

وإنما المراد بعض آيات كانت مكتوبة أطلق عليها اسم المصحف مجازاً، وأما جمع عثمان فكان لما كثر الاختلاف في وجوه القرآن من أهل العراق والشام حين قرؤوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض، فخشي من تفاقم الأمر واختلافهم فيه كما اختلفت اليهود والنصارى في كتبهم، فسخ تلك الصحف في مصحف واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش نظراً لكونه نزل بلغتهم، وكان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم دفعا للحرص والمشقة في ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت، واقتصر على لغة واحدة فكان التأليف للآيات والسور بالتوقيف في الزمن النبوي، والجمع في المصحف في زمن الصديق، والنسخ في المصاحف في زمن عثمان.

والمشهور أن عدة المصاحف التي أرسلها إلى الآفاق خمسة وقيل سبعة، وأمر بحرق ما عداها من الصحف، فأرسل مصحفاً إلى مكة ومصحفاً إلى الشام ومصحفاً إلى اليمن ومصحفاً إلى البحرين ومصحفاً إلى الكوفة وأمسك مصحفاً بالمدينة، وحفظ الله من الاختلاف كتابه المكنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9] وقد كانت الكتابة في المصاحف العثمانية وغيرها وكتب الحديث بالخط المسمى بالكوفي، واستمرت على ذلك مدة تقرب من ثلاثة قرون، إلى أن جاء بن مقله في أواخر القرن الثالث وحولها إلى هذه الطريقة المعروفة وحاز بذلك فضيلة السبق، ثم جاء بعده علي ابن هلال الكاتب البغدادي وهذبه، وكانت المصاحف بدون شكل، لأن العرب لا تلحن بطبعها، فلا يلتبس عليها المرفوع مثلاً بالمنصوب والمجرور حتى تحتاج للشكل الذي يميزه، ولكن لما كثرت الفتوح واختلطت العرب بالعجم وتغيرت ألسنتهم وسمع أبو الأسود الدؤلي من يقرأ: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: 3] بكسر اللام بادر بوضع قواعد من علم العربية، كان أخذها عن الإمام علي كرم الله وجهه وشكل الكتاب العزيز بالحركات الثلاث والتنوين، وأما بقية الشكل كالشدة والمدة والقطعة فمن عمل الحجاج.

ثم اعلم أنه قد ورد في فضل القرآن أحاديث كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: «ما من شفيح أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن لا نبي ولا ملك» ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: «أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن» ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: «من

قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي فضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله تعالى» ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: «إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد» قيل وما جلاؤها يا رسول الله قال: «تلاوة القرآن وذكر الموت» .

"فائدة": قال الدميري من كتب هذه الآيات ووضعها في متاع أو غيره حفظ بإذن الله تعالى، ومن حملها معه حفظ بإذن الله ولم ير في نفسه ولا عياله مكروها، وإذا علقت على صبي حفظ من القرائن والتوايع وأم الصبيان ونشأ منشأ صالحا، قال: وحيث وصلت إليك هذه الذخيرة فعرض عليها بالنواجذ فمنافعها كثيرة، وهي: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 96] ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: 10] ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: 42] ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: 18] ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23] ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَىٰ﴾ ﴿الْحَمْدُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَىٰ﴾ [طه: 4-5] ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88-89] ﴿أَتَيْنَا طَافِيِينَ﴾ [فصلت: 11] ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 22] .

وقال أيضا: ومما جرب لإذهاب الخوف والهم والغم أن يكتب هاتين الآيتين ويحملهما فإن الله تعالى يبارك له في جميع أحواله وينصره على أعدائه، وهما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَافِيفَةً مِّنكُمْ وَطَافِيفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّوْنَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفِّفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهم فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرَجٍ أَخْرَجَ شَطْرَهُمْ فَذَارَهُمْ فَاَسْتَغَاظُوا فَاَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقِهِمْ يُعْجِبُ الزَّرَّاعُ لِيَغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 29] قال: وهما ينفعان أيضا للأمراض الباطنة والظاهرة التي تحدث في البدن كالدمامل والقروح والنفخ والحرارة ونحو ذلك، فيكتب الآيتين في إناء نظيف ويمحو بدهن ورد أو زيت طيب أو شيرج ويطلبي به ذلك فإنه يبرأ. قال: وهما من الأسرار المخزونة.

ومن اللطائف أن بعض الأكابر كان يلتزم التكلم بالقرآن، خوفا من الوقوع فيما يغضب الرحمن فمن ذلك ما حكى أن عبد الله بن المبارك، قال: خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام، وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، فبينما أنا في بعض الطريق وإذا بسواد على الطريف فتميزته فإذا عجوز عليها درغ من صوف وخمار من صوف، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقالت: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ [يس: 58]، فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان، فقالت: ﴿مَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُادَى لَّهُ﴾ [الأعراف: 186]، فعلمت أنها ضالة عن الطريق، فقلت لها أين تريدان، فقالت: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: 1]، فعلمت أنها قد قضت حجبها وهي تريد بيت المقدس، فقلت لها: كم لك في هذا الموضع، فقالت: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: 10]، فقلت لها: ما أرى معك طعام تأكلين منه، فقالت: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: 79]، فقلت فبأي شيء تتوضئين، فقالت: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: 43]، فقلت لها: إن معي طعاما فهل لك في الأكل، فقالت: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلِّ﴾ [البقرة: 187]، فقلت: ليس هذا شهر صيام رمضان، فقالت: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ حَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 157]، فقلت: قد أبيع لنا الإفطار في السفر، فقالت: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 184]، فقلت: لم لا تكلميني مثل ما أكلمك، فقالت: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]، فقلت: فمن أي الناس أنت، فقالت: ﴿وَلَا تَقَفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]، فقلت قد أخطأت فاجعليني في حل، فقالت: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: 92]، فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة، فقالت: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 197]، قال: فأنختها، فقالت: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: 30] فغضضت بصري عنها، وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: 30]، قلت لها: اصبري حتى أعقلها، فقالت: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ﴾ [الأنبياء: 79]، فعقلت الناقة، وقلت لها: اركبي فلما ركبت، قالت: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَكُمْ مُّقْرِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 13-14]، قال: فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ

مِنْ صَوْنِكَ ﴿[لقمان: 19]، فجعلت أمشي رويدا رويدا وأترنم بالشعر، فقالت: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَتَسَّرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: 20]، فقلت لها: ألك زوج، فقالت: ﴿يَتَأْتِيهَا الْذِّبْتُ ءَامِنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: 101]، فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة، فقلت لها: هذه القافلة فمن لك فيها فقالت: ﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46] فعلمت أن لها أولادا فقلت: وما شأنهم في الحج، فقالت: ﴿وَعَلَّمْنِي وَابْتَغِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16]، فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها الخيام، وقلت: هذه الخيام فمن لك فيها: فقالت: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125] ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164] ﴿يَتَخَيَّ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: 12] فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت: ﴿فَاذْكُرُوا أَهْلَكُمْ بِوَرَفِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ [الكهف: 19] فمضى أحدهم فاشترى طعاما فقدموه بين يدي فقالت: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 24]، فقلت: الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها، فقالوا: هذه أمانة لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن، فقلت: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: 4].

غير أنه لا ينبغي التكلم بالقرآن إذا خرج عن حده كما يحصل من بعض أفراد طلبة العلم وفقهاء الأرياف.

ثم إن المصنف رضي الله عنه صرح باسم من به توسل ونعته الذي فاق به غيره من الرسل الكامل فقال:

86	مُحَمَّدٌ الْمَبْعُوثُ لِلْخَلْقِ رَحْمَةً	وَدَعَوْتُهُ فِيمَا سَوَى اللَّهِ عَمَّتْ
----	--	---

أي: أن الذي توسلت بجاهه هو سيدنا (محمد) الذي حمده أهل السماء والأرض ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. واتفق النسابون على صحة النسب إلى عدنان، وأما فوجه فيه نزاع. وأمه صلى الله عليه وسلم أمانة بنت وهب

ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة الخ.

وقوله: (المبعوث) أي: المرسل للخلق كافة لا فرق بين العرب والعجم ولا بين الإنس والجن قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158] وإذا قيل: إن لفظ «الناس» لا يشتمل الجن على بعض الأقوال، فنقول: دليل إرساله للجن قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1-2] وهم مكلفون من حين الخلقة وأما إرساله صلى الله عليه وسلم للملائكة فإرساله تشریف لا تكليف، لأنهم معصومون من المخالفة كما قال تعالى في حقهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: 6] وفي الحقيقة هو الرسول الأعظم لجميع الناس، والأنبياء السابقون نواب عنه، كما قال الإمام البوصيري:

كأنه شمس فصل هم كواكبها يظهرون أنوارها للناس في الظلم
فشرعه صلى الله عليه وسلم قد نسخ جميع الشرائع السابقة عليه، كما قال
اللقاني:

ونسخه لشرع غيره وقع حتما أذل الله من له منع
وفي الحديث الشريف: «لو جئت في زمن موسى ما وسعني إلا إتباعي» وكانت
بعثته صلى الله عليه وسلم (رحمة) (للخلق) كلهم مؤمنهم وكافرهم بالهداية
للمؤمن، تأخير العذاب عن الكافر، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ
فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33] في الحديث الشريف: «إنما أنا رحمة مهداة» وورد أنه صلى الله
عليه وسلم قال لجبريل: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟» فقال: كنت أخشى
العاقبة فأمنت.

وقد أكد المصنف تعميم بعثته للخلق بقوله: (ودعوته فيما سوى الله تعالى
عمت) أي: ودعوته الناس للإسلام عمت وفشت فيما سوى الله تعالى، ومعلوم أن
ما سوى الله اسم لجميع العوالم من إنس وجن وملك، بل قيل: إن بعثته عمت
الحيوانات والجمادات، بدليل شهادة الضب له صلى الله عليه وسلم بالرسالة وإجابة
دعوته، وتسييح الحصى في يده.

وقد توفي صلى الله عليه وسلم عن مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً من
الصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، وجعلنا من التابعين لهم بإحسان إلى يوم

الدين، ولما كان نبينا صلى الله عليه وسلم هو الواسطة العظمى في نعمة كل إنسان وجب علينا مدحه والثناء عليه، لقوله تعالى ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: 60] ولكن لعلمي بقصور باعي عن مدح هذا الجنب المنيف، وعجز يراعي عن رقم ما يليق بمنصبه الشريف، استحسنت أن أزين كتابي بما نمقه سلطان العاشقين للحضرة المحمدية سيدي محمد البوصيري في قصيدته اللامية حبا في نشر محاسن الحبيب المحبوب ورجاء أن أنال بذلك منه كل مطلوب ومرغوب، فإنها اشتملت على غرر الخصائص الشريفة التي تزري بقلائد العقيان واحتوت على المعجزات المنيفة التي يشف بها سمع المحبين لإنسان عين كل إنسان، وقد ابتدأها بجملة من التصوف ترشد المريد إلى سلوك سبيل الرشاد، فقال رضي الله عنه موفيا بالمراد:

إلى متى أنت باللذات مشغول في كل يوم تُرَجِّي أن تتوب غدا أما يرى لك فيما سَرَّ من عمل فجرد العزم إن الموت صارمه واقطع حبال الأمانى التي اتصلت أنفقت عمرك في مال تحصله ورحت تعمّر دارا لا بقاء لها جاء النذير فشمّر للمسير بلا وصن مشيبك عن فعل تشان به لا تنكرنه وفي الفودين قد طلعت فإن أرواحنا مثل النجوم لها وإن طالعها منا وغاربها حتى إذا بعث الله العباد تبين الربح والخسران في أمم فأخسر الناس من كانت عقيدته وأمة تعبد الأوثان قد نُصبت	وأنت عن كل ما قدمت مسؤول وعقدُ عزمك بالتسويق محلل يوما نشاط وعما ساء تكسيل مجرد بيد الآمال مسلول فإنما حبلها بالزور موصول وما على غير إثم منك محصول وأنت عنها وإن عُمرت منقول مهل فليس مع الإنذار تمهيل فكل ذي صبوة بالشيب معذول منه الثريا وفوق الرأس إكليل من المنية تسيير وترحيل جيل يمر ويأتي بعده جيل إلى يوم به الحكم بين الخلق مفصول تخالفت بيننا منها الأقاويل في طيها لنشور الخلق تعطيل لها التصاوير يوما والتمثيل
--	--

وأمة ذهبت للعجل عابدة
 وأمة زعمت أن المسيح لها
 فثلثت واحدا فردا نوحده
 تبارك الله عما قال جاحده
 والفوز في أمة ضوء الضوء لها
 تظل تتلوا كتاب الله ليس به
 فالكتب والرسل من عند الإله أتت
 والمصطفى خير خلق الله كلهم
 محمد حجة الله التي ظهرت
 نجل الأكارم والقوم الذين لهم
 من كمل الله معناه وصورته
 وخصه بوقار منه قر له
 بادي السكينة في سخط له ورضا
 يقابل البشر منه بالندی خلق
 من آدم ولحين الوضع جوهره الـ
 فللنبوة إتمام ومبتدأ
 أتت إلى الناس من آياته جمل
 أنبا سَطِيحٌ وشِقُّ وابنُ ذي يَزَن
 وعنه أنبا موسى والمسيح وقد
 بأنه خاتم الرسل المباح له
 وليس أعدل منه الشاهدون له
 وإن سألتهمو عنه فلا حرج
 كم آية ظهرت في حين مولده
 علوم غيب فلا الأرصاد حاكمة
 إذ الهواتف والأنوار شاهدها

فنالها من عذاب الله تعجيل
 رب غدا وهو مصلوب ومقتول
 وللبصائر كالأبصار تخييل
 وجاحد الحق عند النصر مخذول
 قد زانها غرر منه وتحجيل
 كسائر الكتب تحريف وتبديل
 ومنهمو فاضل حقا ومفضول
 له على الرسل ترجيح وتفضيل
 بسنة ما لها في الخلق تحويل
 على جميع الأنام الطول والطول
 فلم يفته مدى الحالين تكميل
 في أنفس الخلق تعظيم وتبجيل
 فلم يزل وهو مرهوب ومأمول
 ذاك على العدل والإحسان مجبول
 مكنون في أنفس الأصداف محمول
 به وللفخر تعجيل وتأجيل
 أعت على الناس منهن التفاصيل
 عنه وقُسُّ وأحبارٌ مقاويل
 أصغت حوارِيَّه العُرُّ البهاليل
 من الغنائم تقسيم وتنفيل
 ولا بأعلم منه إن همو سيلوا
 إن المحك عن الدينار مسؤول
 به البشائر منها والتهاويل
 ولا التقاويم فيها والتحاويل
 لدى المسامع والأبصار مقبول

ونار فارس أضحت وهي خامدة
ومذ هداننا إلى الإسلام مبعثه
وانظر سماء غدت مملوءة حرسا
فردت الجن عن سمع ملائكة
كل غدا وله من جنسه رصد
لولا نبي الهدى ما كان في فلك
لما تولت تولى كل مسترق
إن رمت أكبر آيات وأكملها
وانظر فليس كمثل الله من أحد
لو استطاع له مثل لجيء به
لله كم أفحمت أفهامنا حكم
يهدي إلى كل رشد حين يبعثه
تزداد منه على تزداده مَقَّةٌ
وربما مجَّه قَلْبٌ به ريب
ما بعد آياته حق لمتبع
وما محمد إلا رحمة بعثت
هو الشفيع إذا كان المعاد غدا
فما على غيره للناس معتمد
إن امرأ شملته من شفاعته
نال المقام الذي ما ناله أحد
وأدرك السؤل لما قام مجتهدا
لو أن كل علا بالسعي مكتسب
أعلى المراتب عند الله رتبته
مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى لَهُ نُزْلُ
سرى إلى المسجد الأقصى وعاد به

ونهرهم جامد والصرح مثلول
دهى الشياطين والأصنام تعديل
كأنها البيت لما جاءه الفيل
إذ ردت البشر الطير الأبابل
للجن شهب وللإنسان سجيل
على الشياطين للأملاك توكيل
عن مقعد السمع منه وهو معزول
كفاك من محكم القرآن تنزيل
ولا كقول أتى من عنده قيل
والمستطاع من الأعمال مفعول
منه وكم أعجز الألباب تأويل
إلى المسامع ترتيب وترتيل
وكل قول على الترداد مملول
كما يمج دواء الداء معلول
والحق ما بعده إلا الأباطيل
للعالمين وفضل الله مبذول
واشتد للحشر تخويف وتهويل
ولا على غيره للناس تعويل
عناية لامرؤ بالفوز مشمول
وطالما ميز المقدار تنويل
وما بكل اجتهد يدرك السؤل
ما جاز حين نزول الوحي تزميل
فاعلم فما موضع المحبوب مجهول
وحق منه له مثوى وتحليل
ليلا براق يباري البرق هذلول

يا حبذا حال قرب لا أُكَيِّفه
 وكم مواهب لم تدر العباد بها
 هذا هو الفضل لا الدنيا وما رجحت
 وكم أتت عن رسول الله بينة
 نور فليس له فيء يرى وله
 ولا يرى في الثرى أثر لأخمصه
 دنا إليه حنين الجذع من شغف
 فليت من وجهه حظي مقابلة
 بيض ميامين يستسقى الغمام بها
 ما إن يزال بها في كل نازلة
 فاعجب لأفعالها إن كنت مدركها
 كم عاود البرء من إعلاله جسدا
 ورد ألفين في ري وفي شبع
 ورد ماء ونورا بعد ما ذهب
 ومنبع الماء عذبا من أصابعه
 وكم دعا ومحبا الأرض مكتئب
 فأصبح المحل فيها لا محل له
 فبالظراب ضروب للغمام كما
 وآض من روضها جيد الوجود به
 وعسكر لجب قد لج في طلب
 دعا نزال فولى والبوار به
 وا غيرتا حين أضحى الغار وهو به
 كأنما المصطفى فيه وصاحبه الصديق
 وجلل الغار نسج العنكبوت على
 عناية ضل كيد المشركين بها

وحبذا وصل عنه مغفول
 أتت إليه وستر الليل مسدول
 به الموازين منها والمكاييل
 في فضلها وافق المنقول معقول
 من الغمامة أنى سار تظليل
 إذا مشى وله الصخر توحيل
 إذنا له منه بعد القرب تزيل
 وليت حظي من كفيه تقبيل
 للشمس منها وللأنواء تخجيل
 للقل كثر وللتعصيب تسهيل
 واطرب إذا ذكرت لك الأقاويل
 بلمسه واستبان العقل مخبول
 إذ ضاق باثنين مشروف ومأكول
 ريق له بكلا العينين متفول
 وذاك صنع به فينا جري النيل
 ثم انثنى وله بشر وتهليل
 وعال ذكر الغلا من خصبها غول
 عن البناء عز إليها معازيل
 من لؤلؤ النور ترصيع وتكليل
 لغزوه غره بأس وترعيل
 من الصبار والحصى والرعب منزول
 كمثل قلبي معمر ومأهول
 ليثان قد آواهما غيل
 وهن فيا حبذا نسج وتجليل
 وما مكايدهم إلا الأضاليل

إذ ينظرون وهم لا يبصرونهما
 أن يقطع الله عنه أمة سفهت
 فإنما الرسل والأملاك شافعها
 ما عذر من منع التصديق منطقته
 والذئب والعيير والمولود صدقه
 والبدر بادر منشقا بدعوته
 والنخل أثمر في عام وسر به
 إن أنكرته النصارى واليهود على
 فقد تكرر منهم في جحودهم
 قل للنصارى الأولى ساءت مقالاتها
 من اليهود استفدتم ذا الجحود كما
 فإن عندكمو توراتهم صدقت
 ظلمتمونا فأضحوا ظالمين لكم
 منكم لنا ولكم من بعضكم شغل
 لقد علمتم ولكن صدكم حسد
 أما عرفتم نبي الله معرفة الأبناء
 هذا الذي كنتمو تستفتحون به
 فلا ترجوا جزيل الأجر من عمل
 تؤذنون بزق من جهالتكم
 موتوا بغيط كما قد مات قبلكمو
 يا خير من رويت للناس مكرومة
 كم قد أتت عنك أخبار مخبرة
 تسري إلى النفس منها كلما وردت
 من كل لفظ بليغ راق جوهره
 لم تبق ذكرا لذي نطق فصاحته

كأن أبصارهم من زيغها حول
 نفوسها فلها بالكفر تعليل
 لوصلة منه تسأل وتطفيل
 وقد نبا عنه محسوس ومعقول
 والظبي أفصح نطقا وهو محبول
 له كما شق جيب وهو مبتول
 سلمان إذ بسقت منه العثاكيل
 ما بينت منه تورا وإنحيل
 للكفر كفر وللتجهيل تجهيل
 فما لها غير محض الجهل تعليل
 من الغراب استفاد الدفن قابيل
 ولم تصدق لكم منهم أناجيل
 وذاك مثل قصاص فيه تعديل
 والناس بالناس في الدنيا مشاغيل
 أنا بما جاءنا قوم مقابيل
 لكنكم قوم مناكيل
 لولا اهتدى منكمو للرشد ضليل
 إن الرجاء من الكفار مخذول
 به انتفاخ وجسم فيه ترهيل
 قابيل إذ قرب القربان هابيل
 عنه وفصل تحريم وتحليل
 في حسننها أشبه التفريع تأصيل
 أنفاس ورد سرت والورد مطلول
 كأنه السيف ماض وهو مصقول
 وهل تضيء مع الشمس القناديل

جاهدت في الله أبطال الضلال إلى
شكا حسامك ما تشكو جموعهمو
لله يوم حنين حين كان به
ويوم أقبلت الأحزاب وانهزمت
جاءوا بأسلحة لم تحم حاملها
من بعد ما زلزلت بالشرك أبنية
وظن كل امرئ في قلبه مرض
فأنزل الله أملاكاً مسمومة
شاكى السلاح فما تشكوا الكلال ومن
من كل موضونة خضراء سابغة
وكل أوتر للحق المبين به
لم تبق للشرك من قلب ولا سبب
ويوم بدر إذ الإسلام قد طلعت
سيئت بما سرنا الكفار منه وقد
كأنما هو عرس فيه قد جلّيت
والخيل ترقص زهوا بالكمة وما
ولا مهور سوى الأرواح تقبلها ال
ولو ترى كل وصل من كماتهم
كأحرف أشكلت خطأ فأكثرها
وكل بيت حكى بيت العروض له
وداخلت بالردى أجزاءهم علل
وكل ذي ترة تغلي مراجله
وكل جرح بجسم يستهل دما
وعاقل من سلاح قد غدا وله
والأرض من جثث القتلى مجللة

أن ظل للشرك بالتوحيد تظليل
ففيه منها وفيها منه تفليل
كساعة البعث تهويل وتطويل
وكم خبا لهب بالشرك مشعول
إن الكمة إذا لم ينصروا ميل
وأنت حبلى بأيدي الرب مفتول
بأن مواعده بالنصر ممطول
لبوسها من سكينات سراويل
صنع الإله لها نسج وتأثيل
ترد حد المنايا وهو مفلول
وللضلالة تعديل وتميل
إلا غدا وهو متبول ومبتول
به بدور لها بالنصر تكميل
أفنى سراتهمو أسر وتقتيل
على الظبا والقنا روس مفاصل
غير السيوف بأيديها مناديل
بيض البهائر والسمر العطابيل
مفصلا وهو مكعوف ومشلول
بالطن والضرع منقوط ومشكول
بالبيض والسمر تقطيع وتفعيل
غدا المرفل منها وهو مجزول
غدا يقاد ذليلا وهو مغلول
كأنه مبسم بالراح معلول
أساور من حديد أو خلاخيل
والترب من أدمع الأحياء مبلول

غصت قلوب كما غص القلب بهم
وأصبح البئر إذ أهل البوار به
وأصبحت أيّامات محصناتهمو
لا نمسك الدمع من حزن عيونهمو
وصار فقرهمو للمسلمين عنى
ورد أوجههم سودا وأعينهم
سالت وساءت عيون منهمو مثلاً
أبغض بها مقلاً قد أشبهت لبنا
ويوم عم قلوب المسلمين أسا
ونال إحدى الثنايا الكسر في أحد
وفي مواطن شتى كم أتاك بها
وملكت يدك اليمنى ملائكة
يسارعون إذا ناديتهم لوغى
من كل نضو نحول ما يزال به
بنانه بدم الأقران مختضب
آل النبي بمن أو ما أشبهكم
وهل سبيل إلى مدح يكون به
يا قوم بايعتكم أن لا شبيه لهم
جاءت على تلو آيات النبي لهم
معاشر مارضوا إنني لمبتهج
وإن من باع في الدنيا محبتهم
وحسب من نكلت عنهم خواطره
إن المودة في قربى النبي غنى
وكم لأصحابه الغر الكرام يد
قوم لهم في الوغى من خوف ربهم

فلأسى فيهمو والنار تأكيل
مثل الوطيس به خرر رعابيل
وأمهاتهمو وهي المشاكيل
إلا كما يمسك الماء الغرابيل
وفي المصائب تفويت وتحصيل
بيضا من الله تنكيل وتشكيل
كأنما كلها بالشوك مسمول
طفأ الذباب عليه وهو ممقول
بفقد عمك والمفقود مجذول
وجاء يجبر منها الكسر جبريل
نصر من الله مضمون ومأمول
غر كرام وأبطال بهاليل
إن الكرام إذا نودوا هذاليل
إلى المكارم جد وهو مهزول
وطرفه بسنا الإيمان مكحول
لقد تعذر تشبيه وتمثيل
لأهل بيت رسول الله تأهيل
من الورى فاستقبلوا البيع أو قولوا
دلائل هي للتاريخ تذييل
بهم وما سخطوا إنني لمثكول
ببغضه الله في الأخرى لمرذول
إن مات أو عاش تنكيل وتشكيل
لا يستميل فؤادي عنه تمويل
عند الإله لها في الفضل تخويل
حسن ابتلاء وفي الطاعات تبثيل

كأنهم في محاريب ملائكة
 حكى العبادة قلبي حين كان بها
 ولي فؤاد ونطق بالوداد لهم
 فإن ظننت بهم ختلا لبعضهم
 أئمة الدين كل في محاولة
 ليقضي الله أمرا كان قدره
 حسبي إذا ما منحت المصطفى مدحي
 مدح به ثقلت ميزان قائله
 وكيف تأبى جني أوصافه همم
 وليس يدرك أدنى وصفه بشر
 كل البلاغة عي في مناقبه
 لو أجمع الخلق أن يحصوا مناقبه
 عذرا إليك رسول الله من كلمي
 إن لم يكن منطقي في طيه غسل
 ها حلة بخلال منك قد رقمت
 جاءت بحبي وتصديقي إليك وما
 ألبستها منك حسنا فازدهرت شرفا
 لم أنتحلها ولم أغضب معانيها
 وما على قول كعب أن توازيه
 وهل توازنه حسنا ومنطقها
 وحيث كنا معا نرمي إلى غرض
 إن أقف آثاره إني الغداة بها
 لما غفرت له ذنبا وصنت دما
 رجوت غفران ذنب موجب تلف
 وليس غيرك لي مولى أو مله

وفي حروب أعاديهم رأيل
 للال تغطية والصحب ت خليل
 وبالمدائح مشغوف ومشغول
 إني إذن بغرور النفس مختول
 إلى صواب اجتهد منه موكل
 وكل ما قدر الرحمن مفعول
 في الحشر تزكية منه وتعديل
 وخف عنه من الأوزار تثقيل
 يروقها من قطوف العز تذليل
 أيقطع الأرض ساع وهو مكبول
 إذا تفكرت والتكثير تقليل
 أعيتهمو جملة منها وتفصيل
 إن الكريم لديه العذر مقبول
 فإنه بمديح منك معسول
 ما في محاسنها للعب ت خليل
 حبي مشوب ولا التصديق مدخول
 بها الخواطر منا والمناويل
 وغير مدحك مغصوب ومنحول
 وربما وازن الدر المثاقيل
 عن منطق العرب العرباء معدول
 فحبذا ناضل منا ومنضول
 على طريق نجاح منك مدلول
 لولا ذمامك أضحي وهو مطول
 له من النفس إملاء وتسويل
 عند الإله وحسبي منك تأميل

ولي فؤاد محب ليس ينفعه
يميل بي لك شوقا أو يخيل لي
يهم بالسعي والأقدار تمسكه
متى تجوب رسول الله نحوك بي
وأنثني ويدي بالفوز ظافرة
في معشر أخلصوا لله دينهمو
شعث لهم من ثرى البيت الذي شرفت
محلقي أرؤسا زيدت وجوههمو
قد رحب البيت شوقا والمقام بهم
نذرت إن جمعت شملي ببابك أو
أبل من طيبة بالدمع طيب ثرى
دامت عليك صلاة الله يكفلها
ما لاح ضوء صباح فاستسر به
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

87 | عَلَيْهِ صَلَاةُ اللَّهِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا وَمَا نَاحَ طَيْرٌ فَوْقَ غُصْنٍ أُرِيكَهْ

أي: أطلب أن تتوارد عليه صلاة الملك الرحيم، وهي رحمته المقرونة بالتعظيم، وتدوم ما دام هبوب الصبا بفتح الصاد المهملة وهي الريح التي تأتي من جهة الشرق ويقال لها القبول بفتح القاف، وهي القائل فيها صلى الله عليه وسلم: «لما نصرت بالصبا وأهلك عاد بالدبور» وإنما أتى بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في الحديث: «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب» قوله: «وما ناح» أي: صاح طير كحمام وقمري، أي: ومدة صياح الطيور فوق غصن، أي: فرع أريكة بفتح الهمزة وكسر الراء، أي: شجرة أراك ونحوها، والغرض من ذلك طول المدة التي تتوارد فيها الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، فالمقصود التأيد. وفي الحديث: «إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم

علي صلاة». وقال صلى الله عليه وسلم: «أنا جبريل ببشارة لم يأتي بمثلا قط فقال: من صلى عليك مرة واحدة صلى الله عليه بها عشرا ومن صلى عليك عشرا صلى الله عليه بها مائة ومن صلى عليك مائة صلى الله عليه بها ألفا ومن صلى عليك ألفا حرم الله جسده على النار» ولله در من قال:

إن شئت من بعد الضلالة تهتدي صل على الهادي البشير محمد
يا فوز من صلى عليه فإنه يحوي الأماني بالنعيم السرمدي
يا قومنا صلوا عليه لتظفروا بالبشر والعيش الهني الأرغد
ويخصكم رب الأنام بفضله والفوز بالجنات يوم الموعد
صلى عليه الله جل جلاله ما لاح في الآفاق نجم الفرقد
ثم أتى المصنف بالسلام لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56] فقال:

88	وَتَسْلِيمُهُ الْأَزْكَى عَلَيْهِ يَحْفُهُ	وَرِضْوَانُهُ عَنِ آلِهِ وَالصَّحَابَةِ
----	--	---

والتسليم من الله على نبيه الكريم، معناه التحية اللائقة بجنابه العظيم، والأزكى معناه الأطيب، وقوله: «يحفه» أي: يحيط به من كل جانب، ولما كان الترضي عن آل والصحب مطلوبا طلبا أكيدا قال المصنف: «ورضوانه عن آله والصحابة»، وكما يستحب الترضي عن آل والصحب يستحب الترضي عن العلماء العاملين، وعباد الله الصالحين، خلافا لقول بعضهم: يقال في حق العالم مثلا رحمه الله ولا يقال رضي الله عنه فإنه تحجير على فضل الله.

ثم إنه يختلف تفسير آله صلى الله عليه وسلم باختلاف المقامات ففي مقام الزكاة هم الذين تحرم عليهم الزكاة كبنو هاشم وفي مقام المدح أهل بيته الكرام، الذين بحبهم وبزيارتهم يبلغ العبد المراد. وفي الحديث: «ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له»، ولله در القائل:

أرى حب آل البيت عندي فريضة على رغم أهل البعد يورثني القربا
فما اختار خير الخلق منا جزاؤه على هدية إلا المودة في القربى
وهم أهل العباء الذين جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم تحت الكساء،

وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33] وهم الحسن والحسين وأمهما وأبوهما كما قال بعض الأفاضل:

إن النبي محمدا ووصيه وابنيه وابنته البتول الطاهرة
أهل العباء وإنني بولائهم أرجو السلامة والنجا في الآخرة
وقال بهاء الدين العاملي:

وثقت بعفو الله عني في غد وإن كنت أدري أنني المذنب العاصي
وأخلصت حبي في النبي وآله كفى في خلاصي يوم حشري إخلاصي
وأما في مقام الدعاء كما هنا فكل مؤمن به صلى الله عليه وسلم.

والصحابا جمع صحابي، وهو من اجتمع به صلى الله عليه وسلم اجتماعا متعارفا فدخل في ذلك عيسى عليه السلام، فإنه اجتمع به صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء في بيت المقدس اجتماعا متعارفا، وهو حي لأن الله تعالى رفعه إلى السماء حيا ونزل إلى بيت المقدس ليلة الإسراء لمقابلته صلى الله عليه وسلم، فهو أفضل الصحابة وآخر من يموت منهم، وفيه ألغز التاج السبكي بقوله:

من باتفاق جميع الناس أفضل من خير الصحاب أبي بكر ومن عمر
ومن علي ومن عثمان وهو فتى من أمة المصطفى المختار من مضر

89 وَعَنْ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدٍ وَنُعْمَانَ وَالثَّوْرِيِّ وَبَاقِي الْأَئِمَّةِ

أي: (و) رضوان الله تعالى (عن) الإمام (مالك) بن أنس إمام دار الهجرة ونجم السنة الذي كان مكتوبا على فخذه بقلم القدرة مالك حجة الله في أرضه، وفي الحديث «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة». وناهيك قول الإمام الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب وما أحد أمن على من مالك، وقال: كنت أتصفح الورقة بين يدي مالك تصفحاً رقيقاً هيبه له لثلا يسمع وقعها، كما قيل فيه:

يأبى الجواب فلا يراجع هيبة والسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعز سلطان التقى فهو المطاع وليس ذا سلطان

وقد ثبت أن الإمام أبا حنيفة مع كونه أسن منه تلقى عنه بعض أحاديث، ولد رضي الله عنه سنة ثلاث وتسعين من الهجرة على الأصح، وقيل: سنة تسعين، ومكث في بطن أمه ثلاث سنين، وقيل: ستين. ومات سنة تسع وسبعين ومائة عن سبع وثمانين سنة، وأقام مفتياً بالمدينة ستين سنة، ودفن بالبقيع الشريف، وعلى مقامه من الأنوار ما يليق بمقامه المنيف، وفي الليلة التي مات فيها رأى عمر بن يحيى بن سعيد الأنصاري قائلاً يقول:

لقد أصبح الإسلام زعزع ركنه غداة ثوى الهادي إلى ملحد القبر
إمام هدي ما زال للعلم صائناً عليه سلام الله في آخر الدهر
قال فانتبهت وكتبت البيتين على السراج وإذا الصارخة على مالك، كان رضي
عنه عابداً زاهداً مبالغاً في تعظيم علم الدين، حتى كان إذا أراد أن يقرأ الحديث توضع
وسرح لحيته واستعمل الطيب ومنع الناس أن يرفعوا أصواتهم ثم جلس في صدر
المجلس على وقار وهيبة، فقليل له ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم. وبلغ من تعظيمه للحديث أنه لدغته عقرب وهو يحدث ست
عشرة مرة، فصار يصفر ويلتوي حتى تم المجلس ولم يقطع كلامه.

وكتب بيده مائة ألف حديث، وجلس للتدريس وهو ابن تسع عشرة سنة،
وكان الناس يزدحمون على بابهِ لأخذ الحديث والفقه كازدحامهم على باب
السلطان، وكان له حاجب يأذن أولاً للخاصة، فإذا فرغوا أذن للعامة، وكان إذا
أكثر السؤل قال: حسبكم، من أكثر فقد أخطأ، ومن أحب أن يجيب عن كل
مسألة فليعرض نفسه على الجنة والنار ثم يجيب، وقد أدركناهم إذا سئل أحدهم
فكان الموت أشرف عليه.

وكان يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه لا أدري ليكون أصلاً لهم يفزعون
إليه، وقد سئل عن ثمانية وأربعين مسألة، فقال في ثنتين وثلاثين منها: لا أدري،
وكان لا يدخل الخلاء إلا كل ثلاثة أيام مرة، ويقول: والله قد استحييت من كثرة
تردي للخلاء، وقيل له: كيف أصبحت؟ فقال: في عمر ينقص وذنوب تزيد.

ولما ألف الموطأ اتهم نفسه في الإخلاص فيه فألقاه في الماء، وقال: إن ابتل
فلا حاجة لي به، فلم يبتل منه شيء، وقال له هارون الرشيد يوماً: يا أبا عبد الله
ينبغي أن تتردد علينا حتى نسمع صبياننا منك الموطأ، فقال له: أعز الله مولانا الأمير

إن هذا العلم منكم خرج، فإن أنتم أعززتموه عز، وإن أنتم أذللتموه ذل، العلم يؤتى ولا يأتي، فقال: صدقت يا أبا عبد الله، ثم قال لأولاده: أخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس.

وكان إذا دخل بيته يكون شغله تلاوة القرآن في المصحف. وكان يقول: بلغني أن العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وكان يقول: مثل المنافقين في المسجد كمثّل العصافير في القفص، إذا فتح باب القفص طارت العصافير.

وقد أخذ رضي الله عنه العلم عن تسعمائة شيخ، منهم ثلاثمائة من التابعين، ثم إن بعض مشايخه أخذ عنه، فسبحان الله ذي الفضل العظيم. وكان رضي الله عنه يقول: ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يضعه الله تعالى في القلب. وكان يقول: حق على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية. وكان يقول: لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيعه، فإنه ذل وإهانة للعلم.

ولما منعه جعفر بن سلمان من رواية الحديث في طلاق المكره، وحمله على بعير وقال له: ناد على نفسك، لم يمتنع رضي الله عنه من روايته، بل قال وهو على تلك الحالة: ألا من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس، أقول: طلاق المكره ليس بشيء، فبلغ ذلك جعفر، فقال: أدركوه وأنزلوه.

واتفق أن امرأة غسلت امرأة فالتصقت يدها بفرجها، فتحير الناس في قطعها أو قطع فرج الميتة، فاستفتوه في ذلك، فقال: سلوها ما قالت حين وضعت يدها عليها، فسألوها فقالت: قلت: طالما عصى هذا الفرج ربه، فقال: اجلدوها حد القذف، فجلدوها ثمانين جلدة فخلصت يدها، فمن ثم قيل: لا يفتى ومالك بالمدينة.

ثم قال المصنف: (والشافعي) أي: ورضوان الله تعالى عن الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، الوارد فيه: «عالم قریش يملأ طباق الأرض علماً»، ولد بغزة سنة خمسين ومائة يوم وفاة أبي حنيفة، ثم رحل إلى مكة وهو ابن سنتين، ونشأ يتيماً في حجر أمه، وحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، وحفظ موطأ الإمام مالك في تسع ليالي وهو ابن عشر سنين، وتفقه على مسلم بن خالد مفتي مكة وأذن له في الفتوى وهو ابن خمس عشرة سنة، وكان يكثر التردد على الإمام مالك بالمدينة

ويأخذ عنه العلم، وكان يجالس العلماء ويكتب ما يستفيده على العظام ونحوها لأنه كان في قلة من العيش، وقد قسم الإمام مالك عليه ماله ثلاث مرات، ولكثرة كرمه وإنفاقه ما كان يدخر شيئاً.

ثم رحل إلى بغداد وصنف فيها كتابه القديم، ثم عاد إلى مكة فأقام بها مدة، ثم رجع إلى بغداد، ثم خرج منها إلى مصر وأقام بها أربع سنين، وصنف كتبه الجديدة ولم يزل ناشراً لواء العلم بجامعة العتيق إلى أن مات سنة أربع ومائتين، ودفن بالقرافة في دار ابن الحكم، وعلى مقامه من الأنوار ما يبهر الزوار. ومما جرب لقضاء الحوائج أن يقول الزائر هذه الأبيات التي قالها سيدي أحمد البدوي عند زيارته:

يا إماما يرجى لكل ملم وهماما يرد بأس القوي
يا حسيبا إنا عليك حسبنا ودخلنا في كهفك المحمي
وبطل الجناح منك احتمينا من عدو وحاسد وبغي

وله دعاء مشهور بالإجابة وهو: «اللهم يا لطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير» فمن واطب عليه كل يوم مائة وإحدى وأربعين مرة كان محفوظاً من شر الحوادث. وكان رضي الله عنه يقول: لا شيء أزين للعلماء من الفقر والقناعة والرضا بهما. وكان يقول: جمال العلماء هو كرم النفس، وزينة العلم الورع والحلم. وكان يقول: لا عيب بالعلماء أقبح من رغبتهم فيما زهدهم الله فيه. وكان يقول: من طلب العلم بعز النفس لم يفلح، ومن طلبه بذل النفس وخدمة العلماء أفلح. وكان يقول: أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب في مودة من لا ينفعه، وقبل مدح من لا يعرفه. وكان يقول: طلب فضول الدنيا عقوبة عاقب الله بها أهل التوحيد. وكان يمشي على العصا فليل له في ذلك، فقال: لأذكر أني مسافر من الدنيا. وكان يقول من غلبته شدة الشهود للدنيا لزمته العبودية لأهلها. وكان يقول: من أحب أن يفتح الله تعالى عليه بنور القلب فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين لا يريدون بعلمهم إلا الدنيا. وكان يقول: ما شبت منذ ست عشرة سنة لأن الشبع يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة، فانظر إلى حكمته في ذكر آفات الشبع. وسئل عن مسألة فسكت، فليل له: ألا تجيب رحمك الله، فقال: حتى أرى

الفضل في سكوتي أو في جوابي، فانظر إلى مراقبته للسانه.

وكان رضي الله عنه شديد الخوف والوجل، حكي أنه سمع القارئ يقرأ: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَكُمْ فَيَعْزِدُونَ ﴿[المرسلات: 35-36] فتغير لونه واقشعر جلده وخر مغشيا عليه، فلما أفاق قال: أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين، اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين، إلهي هب لي جودك وجللني بسترِكَ واعف عن تقصيري بكرم وجهك. وقال له بعض أصحابه: علمني مما علمك الله، فقال له: أعلم أن من صدق الله نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يراه من ثواب الله غدا، ثم قال: أفلا أزيدك؟ قال: نعم، قال: من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان؛ من أمر بالمعروف واثمر، ونهى عن المنكر وانتهى، وحافظ على حدود الله تعالى، ثم قال: ألا أزيدك؟ قال: بلى، قال: كن في الدنيا زاهدا، وفي الآخرة راغبا، واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين.

وكان يقول: ما كلمت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى، ولا أبالي ظهر الحق على لساني أو على لسانه. وكان يقول: لو اجتهدت كل الجهد على أن ترضي كل الناس فلا سبيل إلى ذلك، فأخلص عملك ونيتك لله. ولما حضرته الوفاة أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضافت مذهبني جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاضمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
وقال رضي الله عنه:

بموقف ذلي دون عزتك العظمى بمخفي سر لا أحيط به علما
بإطراق رأسي باعترافي بذلتي بمد يدي أستمطر الجود والرحما
أسمائك الحسنی التي بعض وصفها لعزتها يستغرق النثر والنظما
بعهد قديم من ألت بربكم بمن كان مجهولا فعلمته الأسماء
أذقنا شراب الأنس يا من إذا سقى محبا شرابا لا يضام ولا يظما

ثم قال المصنف: (وأحمد) أي: رضوان الله تعالى عن الإمام أحمد بن حنبل ناصر السنة، والصابر على المحنة. وقد بالغ أئمة السلف في مدح الظاهر والباطن

من حاله، وأطبقوا على تحسين ما صدر عنه من أقواله وأفعاله، وناهيك قول شيخه الإمام الشافعي: خرجت من بغداد وما خلفت فيها أروع ولا أتقى ولا أفقه ولا أعلم من أحمد. ولد سنة أربع وستين ومائة ومات سنة إحدى وأربعين ومائتين، ولما مات ارتجت الدنيا وهرع أهل بغداد للصلاة عليه بالصحراء، فكان يوما مشهودا اجتمع فيه للصلاة عليه ما ينوف عن تسعمائة ألف نفس ما بين رجال ونساء، وأسلم يوم موته من اليهود والنصارى والمجوس نحو عشرين ألفا، وبالجمل ففضائله كثيرة ومناقبه شهيرة.

نقل عنه أنه قال: رأيت رب العزة في المنام، فقلت: يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك؟ فقال: بكلامي يا أحمد، فقلت: بفهم أو بغير فهم؟ فقال: بفهم وبغير فهم. وكان إذا جاع أخذ الكسرة اليابسة فنفضها من الغبار ثم صب عليها الماء في قصعة حتى تبتل ثم يأكلها بالملح، وكانوا في بعض الأوقات يطبخون له في فخاره عدسا وشحما، وكان إذا مشى في الطريق لا يمكن أحدا يمشي معه، وكان يحيي الليل كله منذ كان غلاما، وكان له في كل يوم وليلة ختمة، وكان ورده كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة، فلما ضرب بالسياط أيام المحنة وهي القول بخلق القرآن، ضعف بدنه، فكان يصلي مائة وخمسين ركعة.

قال الفضيل بن عياض: حبس الإمام أحمد رضي الله عنه ثمانية وعشرين شهرا، وكان فيها يضرب كل قليل بالسياط إلى أن يغمى عليه، وينخس بالسيف، ثم يرمى على الأرض يداس عليه، ثم خلي عنه، وأول هذه المحنة كان في زمن المأمون سنة ثمان عشرة ومائتين، لكنه مات قبل أن يتمكن من قتل الإمام أحمد، وكان الذي أغراه على ذلك أحمد بن أبي داود، ولما مات المأمون أوصى المعتصم بحمل الناس على القول بذلك، ولما مات المعتصم وولي بعده الواثق أتى بشيخ مقيد فامتحنه ابن أبي داود، فقال له الشيخ: هذا هو الذي تقوله شيء علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه أو جهلوه؟ قال: بل علموه، فقال: هل دعوا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا؟ قال بل سكتوا، قال: فهل وسعك ما وسعهم من السكوت؟ فسكت ابن أبي داود، وأعجب الواثق كلام الشيخ وخلي سبيله، وقام الواثق من مجلسه وهو يقول: فهل وسعك ما وسعهم؟ وجعل يكررها.

ولما مات الواثق وولي بعده المتوكل رفع المحنة، وأظهر السنة، وكتب إلى الآفاق بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وخمدت المعتزلة وأمر السنة بإحضار أحمد

وإكرامه .

ثم قال المصنف: (ونعمان) أي: رضوان الله تعالى عن الإمام أبي حنيفة النعمان الذي قال فيه الإمام مالك حين قيل له: هل رأيت أبا حنيفة؟ فقال: رأيت رجلا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهابا لقام بحجته. ولد بالأنبار سنة ثمانين، وتوفي بالسجن لمتنعه من القضاء بعد أن ضرب مائة سوط، وقيل: مات خارجه ببغداد سنة خمسين ومائة، وكان كثير العبادة، قيل: إنه صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة، ومع ذلك كان يكثر البكاء في آخر الليل بعد التهجد، ويقول: فوا حزنا أن لا حياة هنيئة ولا عمل يرضى به الله صالح ومن ورعه أنه كان لا يجلس في ظل جدار غريمه، ويقول: كل قرض جر نفعا فهو ربا. وكان يقول: إذا ارتشى القاضي فهو معزول وإن لم يعزله الإمام. وسئل رضي الله عنه أيما أفضل علقمة أو الأسود؟ فقال: والله ما نحن بأهل أن نذكرهم فكيف نفاضل بينهم. وكان يقول: جالست الناس منذ خمسين سنة، فما وجدت رجلا غفر لي ذنبا، ولا وصلني حين قطعته، ولا ستر علي عورة، ولا ائتمته على نفسي إذا غضب، فالاشتغال بهؤلاء حمق كبير. وكان يقول: بلغني أن ليس في الدنيا أعز من فقيه ورع. وقال له رجل: إني أحبك، فقال: وما يمنعك من محبتي ولست جاري ولا ابن عمي. وكان يقول: لا ينبغي للقاضي أن يترك على القضاء أكثر من سنة، لأنه إذا مكث فيه أكثر من سنة ذهب فقهه.

ثم قال المصنف: (والثوري) أي: ورضوان الله تعالى عن الإمام أبي عبد الله سفيان الثوري بفتح المثناة وإسكان الواو، ولد سنة سبع وتسعين، ومات بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة، وكان له مذهب وأتباع مقلدون له لكنهم انقضوا بعد الخمسمائة، كان رضي الله عنه عالم الأمة وعابدها وزاهدها. وكان يقول: قد ظهر من الناس أمور يشتهي الرجل أن يموت قبلها. وكان يقول: إلهي إن البهائم يزجرها الراعي فتزجر عن هواها، وأراني لا يزجرني كتابك عما أهواه، فيا سواتاه. وكان يقول: أحب لطالب العلم أن يكون في كفاية، فإن الآفات وألسن الناس تسرع إليه إذا احتاج وذل. وكان يقول: إن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد في الدنيا، وإن الرجل ليكون فقيرا وهو راغب فيها.

وكان قد جعل على نفسه ثلاثة أشياء؛ أن لا يخدمه أحد، ولا يطوى له ثوب،

ولا يضع لبنة على لبنة. وكان يقول: إن الملكان ليجدان ريح الحسنات والسيئات إذا عقد القلب على ذلك، فكما لا يؤذونك لا تؤذهم. وقيل له: ألا تدخل على الولاة فتتحفظ وتعظهم وتنهاتهم؟ فقال: أتأمروني أن أسبح في بحر ولا تبتل قدماي، إني أخاف أن يرحبوا بي فأميل إليهم فيحبط عملي. وكان يقول: إذا أرضيت ربك أسخطت الناس، وإذا أسخطتهم فتهياً للسهم، والتهيو للسهم أحب إلي من أن يذهب دين الرجل.

ثم قال المصنف: (وباقى الأئمة) كسفيان بن عيينة والإمام الليث بن سعد وداود الظاهري وغيرهم من الأئمة الذين انقضت مذاهبهم، وقبر الإمام الليث يزار وعلى مقامه من الأنوار ما يبهر الزوار. ولد رضي الله عنه سنة أربع وتسعين، وتوفي سنة خمس وسبعين ومائة، قال ابنه شعيب: خرجت مع أبي حاجا فلما قدم المدينة بعث إليه الإمام مالك بن أنس بطبق رطب، فجعل على طبق ألف دينار عند رده إليه، قيل: كان دخله في كل سنة ثمانين ألف دينار، ومع ذلك لم تجب عليه زكاة قط.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

90 وَعَنْ مُنْشِئِ الْآيَاتِ مِنْ فِكْرِهِ وَمَنْ قَرَأَهَا وَأَقْرَأَهَا بِفَهْمٍ وَفِطْنَةٍ

أي: (و) رضوان الله تعالى (عن منشئ) أي: مخترع هذه (الآيات من فكره) أي: ذهنه مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وعدتها أحد وتسعون بيتاً ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن كراماته أنه كان إذا سمع القرآن وغلط القارئ يقوله له: أمسك فقد غلطت، فقل له في ذلك، فقال: لأنني أنظر نورا يخرج من فم القارئ كالعمود يتصاعد إلى السماء فإذا انقطع ذلك النور علمت أنه غلط.

ومن مؤلفاته كتاب «فتح المواهب»، وكتاب في معنى لا إله إلا الله، وكتاب في صفة تلقين الذكر، وعقيدتان صغرى وكبرى، وله ديوان فيه عقائد وموشحات، وله كتاب في أسئلة وردت عليه وأجاب عنها نثراً ونظماً، وله قصائد غير هذه الثائية، ومن كلامه رضي الله عنه:

كل من كان ذا دناءة أصل واعتلى رفعة فهي مستعارة

ود قتل الذي حباه قديما خيفة أنه سيكشف عاره
 حكمة الله لا ترد ولكن رفع قدر الأندال فقع المرارة
 وقوله: (ومن قراها) بالألف بدون همزة لأجل الوزن، وكذلك ما بعده، أي:
 ورضوان الله عمن قرأها لنفسه (وأقرأها) أي: أسمعها لغيره (بفهم) أي: إدراك
 للمعاني (وفطنة) أي: جودة ذهن.
 ثم قال المصنف رضي الله عنه:

91 وَمَنْ قَدْ رَأَى عَيْبًا وَأَصْلَحَهُ وَلَوْ بِحِطِّ حُرُوفٍ أَوْ تَغْيِيرِ شَكْلَةٍ

أي: (و) رضوان الله (من) قد عاين في هذه الأبيات (عيبا وأصلحه) بالتنبيه
 عليه في الشرح أو على الهامش لا أنه يمحوه ويثبت غير في الأصل، فإنه ربما كان
 على حد قول بعضهم:
 وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
 وقول الآخر:

كالنجم تستصغر الأبصار رؤيته والعيب للعين لا للنجم في الصغر
 فقوله: (بخط حروف) أي: بكتابة الكلمات التي يرى أنها الصواب في
 الشرح الذي يكتبه أو على هامش الكتاب. وقوله: (أو بتغيير شكلة) مراده أن الناظر
 ينبه على أن الصواب تغيير الشكلة التي وقعت خطأ بشكلة غيرها أن لو كان هناك
 شكل، فإنه بذلك يدخل في دعاء الناظم رضي الله عنه وأرضاه.

والله تعالى يوفقنا ويبلغنا ببركة دعائه ما نتمناه والحمد لله وحده، والصلاة
 والسلام على من لا نبي بعده، وكان الفراغ من هذا الشرح ليلة القدر المباركة السابعة
 والعشرين من رمضان سنة اثنين وثلاثمائة وألف من هجرة سيد ولد عدنان صلى الله
 وسلم عليه وعلى آله الكرام، وأصحابه الأعلام، ما لاح بدر التمام، وفاح مسك
 الختام، صلاة وسلاماً دائماً متلازمين إلى يوم الدين، وسلام على المرسلين
 والحمد لله رب العالمين.

[تقاريض بعض العلماء]

ولما اطلع على هذا الشرح الجميل ، حضرة أستاذ الجهادة الجليل ذو التأليف التي نورها في الأكوان ساري ، أستاذنا العلامة السيد عبد الهادي نجا الأبياري ، قال :



الحمد لله الذي به مبدأ كل شيء وإليه انتهاء ، والصلاة والسلام على من أوضح الطريق الموصلة إلى الله ، وعلى آله وصحبه وكل من اهتدى بهداه ، ما كشف الحجاب لسالك فرأى الله في كل ما يراه .

وبعد ، فقد اطلعت على هذا الشرح اللطيف والكتاب الكريم ، فرأيت شرحا ينشرح به صدر كل ذي قلب سليم ، جمع من لطائف العوارف وعوارف اللطائف ما به تقتطف النفوس المطمئنة قطوف الأنس في روض القدس الوارف ، ورفع منار الطريق لمريدي حسن السلوك ، ونظم من جواهر الطريقة والحقيقة ما يعز مثله من الفرائد عند الملوك ، ولعمري لقد انكشفت به عن عرائس الوصول لعاشقها الأستار ، وظهرت لأولي الأبصار والبصائر في طي عباراته البارة نفائس الأسرار ، عبارات هي أحلى من التسليم ، وأجلى من البدر الشريق في الليل البهيم ، وأرق في إيراد الرقائق من مر النسيم ، وأشوق من سمر الغانيات لمن بها يهيم ، ترد على الأفئدة المظلمة فتنورها ، وعلى النفوس الساهية اللاهية فتذكرها ، وعلى القلوب القاسية فتلينها ، وعلى الأخلاق السيئة فتحسنها ، لاسيما بسريان سر إخلاص مؤلفه وحسن نيته ، وجريان ماء بركته من عيون أنهار فضيلته ، فلقد منح من التوفيق وهو عزيز ما به عز بين الأنام ، ومن التأليف والتأنيق ما إن مفاتحه لتنوء بكثير من ذوي الأفهام ، ولا غرو فهو المفيد المجيد والسيد الوحيد عبد المجيد ، أدام الله تعالى به نفع العباد إلى يوم المعاد ما صلى مصلي على الرسول الأعظم وسلم ، وجلى مجل في ميادين الهداية فسلم وسلم ، آمين آمين والحمد لله رب العالمين .

كتبه عبد الهادي الأبياري

وقال وحيد الدهر الذي ليس له مداني، أستاذنا العلامة الشيخ محمد البسيوني البياني.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله حمدا تتفتق من رياض قبوله كمائم أزهاره، وأشكره شكر أهل العرفان الذين أينعت في حظائر قدسهم نصيرات أثماره، ونصلي ونسلم على أفضل نبي وأكرم رسول مختار، سيدنا محمد الآتي في السلوك إلى ملك الملوك بما لا تبقى معه حيرة محتار، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه.

أما بعد، فقد وقفت على تائية السلوك إلى ملك الملوك التي نظمها قطب دائرة الوجود، وإمام كل موجود، الولي الأمي الذي يضرب بعلمه اللداني الأمثال، والعارف الصمداني الرباني الذي عز عن المثال، من حققت له المقامات، ووضحت له الكرامات، وأتى في طريقه وسلوكه بالآيات البينات، فهيئات الدهر أن يسمح الدهر بمثله هيئات، ألا وهو سيدي وسندي السيد أحمد عرب الشرنوب، فرج الله به كروبي وغفر ذنوبي، فوجدتها متألفة من شقيق ومنتور، متألفة بنظمها الزاهي على البدور، تدير بأيدي المحبين شمس الراح، وتذهب ما يغشى القلوب من الهموم والأتراح، فهي في طريق القوم كعبة القصاد، والبيت المعمور لكل حاضر وباد، فحبذا منهاج الأصول للسائرين إلى حضرة القدس، والطريق الأقوم في الوصول إلى معارج الأنس، حقق ما في الطريق غاية التحقيق آخذا بالكتاب والسنة، فعظمت به على أهل كل عصر المنة، والإجماع منعقد على علو شأنه، فالقياس أن لا يعدل عن رسالة أحمد إلى البعث وزمانه، بيد أنها انطوت على أسرار تحتاج إلى كشف أستاذ، وتضمنت من الرقائق رموزا، وحوت من الدقائق المخبأة كنوزا، فاحتاجت إلى شرح يشرح صدور المطلعين عليها، وموقف موفق يوقف من ألقى زمام الاسترشاد إليها، وما زالت تنادي بلسان حالها لحلها، وتخطب هي بنفسها كفوا يسهر الليالي في طلب اللآلي الجليلة من أجلها، حتى يسر الله لها ما تروم وأنالها، وقبض لها خيرا بها، حين دعا الداعي قال له أنالها، حضرة القدوة المحقق، والفهامة المدقق، واسطة العقد الفريد، والمراد لكل مريد، الشهاب الثاقب لكل مريد، الأستاذ المجيد، الشيخ عبد المجيد بلدي، الأستاذ المشار إليه الحائز قصب السبق في مضمار حوز

مدده لديه، الهمام الكامل الفرد الذي جمع أنواع الفضائل، وتقدم على من تقدم من الأفاضل، وأنى يدرك بعض فضله الفاضل، وذاك لغزارة علمه، وجودة ذكائه وفهمه، كما يشاهد من أدبه، وكما يطالع في كتبه، فلو رآه «ابن عيينة» لقبله بين عينيه، ولو شامه «قُدَامَة» لتبرك بأثر قدميه، فشرحها شرحا زاد محاسن الأوصاف، عادلا عن التعسف مائلا إلى الإنصاف، تعجز البلغاء بلاغته، وتقحم الفصحاء فصاحته.

اختلب بما جلب القلوب بملاحته، واستلب العقول بفصاحته وصباحته، فالصباح درر ثغره، والقاموس بعض فيض نهره، والبيان من سحر كلامه، والرياض من بشاشته وباتسامه، وعوارف المعارف إشارات، ورسالة القشيري براعته، والخير من طباعه وطبعه، والشمس من ضيائه ونفعه، زاد فيه مما أفاء الله عليه، وأحسن كما أحسن الله إليه، أوضح أصولها التي بها الوصول، وأفصح عن أجناس حدود معالمها والفصول، حتى بسقت فروعها، وعرف منها نسبها محمولها وموضوعها، فأبدى ذلك الشرح عجابا، وأبدع في كل أصل فصلا خطابا، وقال بلسان حاله يصف رب قاله:

أصولي له علم وفهم يفيد به الطريق إلى الأصول
ويظهر بالأصول لنا فروعاً فتقتبس الفروع من الأصول
وبالجملة، فما الذي تتنفس كمائم الأزهار، أو تهب به نسائم الأسحار،
بالطف مما جاءت به هذه الأسفار، من معالي رفيعة، وأوصاف بديعة، ورقائق كريمة
تفوق الدراري اليتيمة مع أعذب منهل لأي وارد، وأبهى مربع لكل وافد، فجزى الله
مؤلفه خيرا، ووقاه هما وضيра، ما غردت الحمائم، ودرت الغمام، ووصل واصل
لربه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

كتبه محمد البسيوني البياني

وقال الأستاذ الفاضل، والهامام الكامل الشيخ إبراهيم راضي أحمد، خوجات مدرسة المرحوم إسماعيل باشا راتب، بلغنا الله وإياه المآرب:

حسن السلوك إلى ذي العرش قد جمعا
فألزم أوامره واترك نواهيه
فللشريعة حد قف لديه فمن
وعامل الناس بالحسنى وإن أحد
واقنع بما قسم الله الحكيم تكن
وإن ترد عزة فالزهد منشؤها
واستعمل الصبر إن نابتك نائبة
فبينما المرء في عسر يئن به إذا
واوف بالعهد إن الخلف منقصة
واترك هوى النفس إن النفس آمرة
ولا تصاحب من الدنيا سوى رجل
فالناس أعداء بعض في المعاد خلا
ولا تؤاخ أخا جهل فصحبته
واحرص على طلب العلم الشريف فمن
أما ترى المرتضى عبد المجيد علا
حبر لقد أشرقت أنوار حكمته
بحر ولكن محيط لا قرار له
إن قست قسا به ما أنت منصفه
أنعم به من مجيد في عبارته
يزري بنظم اللآلي نظم فكرته
تأليفه منبئ عن فضل حضرته
رأى التصوف فنا لا نظير له
أتى بشرحين فيه يشهدان له

في أن تكون لنهج الشرع متبعا
ولا تكن عاملا بالرأي مبتدعا
تجاوز الحد في مهوى الهوى صرعا
أساء فارفع إلى مولاك ما وقعا
في غنية إن أغنى الخلق من قنعا
والذل لم يقترن إلا بمن طمعا
لا فاز من قضاء الله قد جزعا
جاءه اليسر من مولاة مندفعا
وكن من الزور والبهتان ممتنعا
بكل سوء وخف مولاك مرتدعا
يهدي إلى طرق التقوى من اتبعا
أهل التقى فهم الأحباب والشفعا
أضر شيء على الإنسان لو سمعا
سعى إليه بجهد دام مرتفعا
على السماء بفضل العلم وارتفعا
وبرق تحقيقه بين الورى لمعا
لله بحر علوم راق واتسعا
كم مثل قس به في عصرنا برعا
مع انسجام حلي لله ما صنعا
وطالما سلب الأبواب إن سجعا
تبارك الله ما أوعى وما جمعا
فقام واهتم في تدوينه وسعى
بأنه شمس علم نوره سطعا

هما لتائية الشرنوبي مع حكم
 لحبه في عموم النفع زانهما
 فجعلهما قدوة فالمقتدي بهما
 وخذهما عدة في كل نازله
 واشكر مجيدهما عبد المجيد فقد
 يا حسن طبعهما أرخهما بزهي
 أجادها ابن عطاء الله مخترعا
 بحسن طبع لمن رام الهدى نفعا
 بشرى له فهما للخير قد جمعا
 ولا يفوتك فوز إن تكن ورعا
 أبدى لنا السر في شرحين مجتمعا
 شرحان من ما جد في عصرنا طبعنا

فهرس الموضوعات

٤٠.....	ومن الشروط خشوع	٥	تقديم
٤٠.....	ومن الأحوال البكاء بذلة	٧	مقدمة
	ومن اللوازم تقوى الله ومما لا تصح	٧	شرح البسملة
٤٣.....	التقوى إلا به حسن	١١	حد علم التصوف
٤٧.....	المسير في علوم الشرع		أصول الطريق وشروطه وأركانه
٥٠ ..	ومن الشروط العزوف عن الأكدار	١٤	والأحوال اللازمة للمريد
٥٠	ومن الشروط بذل	١٧	من الأصول طهارة الأنفاس
٥١	ومن الشروط تهذيب	١٧	ومن الشروط صدق ومودة
٥٢	ومن أركان الطريق الصمت	١٨	ومن الشروط حذق
٥٤.....	ومن الأركان التسهيد	١٨	ومن الشروط آداب
	ومن الشروط موت بحبه	٢٠	من اللوازم تجريد همه
٥٧	أي الموت الاختياري	٢٠	ومن شروط الطريق حياء
٥٨	ومن آدابه تحسين الأوصاف	٢٢	ومن الشروط إخلاص
٦٠	ومن الأركان تجويع معدة	٢٢	ومن الشروط ذكاء وفطنة
٦٢	ومن الشروط الإيثار والكرم	٢٣	ومن الأصول الورع المحمود
٦٣	ومن الشروط الرفق والسهولة	٢٤	ومن الأحوال الذوق والشوق
٦٣	ومن الشروط التصديق بأحوال القوم	٢٤	ومن الشروط الحضور مع الله
٦٣	ومن الأحوال العشق والمحبة	٢٥	ومن الشروط فطم مراد النفس
٦٦	ومن الأحوال السحق والمحق	٢٦	ومن الأصول زهد
٦٧	ومن الأحوال الفناء	٢٨	ومن الأصول قناعة
٧٠	ومن الشروط الحمد والشكر		ومن الأصول الرهبة من الله في حال
٧٢	ومن الشروط الوفاء بالأوامر	٣٥	الرخاء والشدة
٧٥ ..	ومن الأصول ملازمة الكتاب والسنة	٣٦	من الأصول تفويض الأمر
٧٨.....	ومن الشروط المراقبة	٣٨	من الأصول حسن التوكل
٨١.....	ومن الأصول مجاهدة النفس	٤٠	من الشروط خضوع

- ومن الشروط التفكير ٨٤
- ومن اللوازم حسن التوجه على يد شيخ ٨٦
- من أوصاف الشيخ المربي أن يكون قد ٩٢
- محا لحظوظ النفس بالعلم والتقى ٩٢
- أن يكون كثير النصح ٩٢
- أن يكون ذا حكمة ومعرفة ٩٧
- بالطب الروحاني ٩٨
- أن يكون من أهل البصيرة ١٠٢
- أن يكون متين الحجا ١٠٣
- أن يكون كثير الرشد إلى الصلاح .. ١٠٥
- أن يكون له مزيد فضل ١٠٦
- وعطاء من الله ١٠٧
- أداب المريد وأوصافه ١٠٧
- من اللطائف أن بعض الأكابر كان يلزم ١٠٧
- أن يكون مؤدبا ١٠٧
- أن يسأل شيخه عند كل إشكال ١٠٧
- يعرض له ١٠٨
- أن يكون ملازما للذل والتهديب ١٠٨
- مخالفته لشهوات النفس ١٠٨
- تصديقه لكلام شيخه ١٠٨
- الطاعة لأوامر شيخه ١١٣
- مجانبة الذنوب ١١٦
- استفسار شيخه عن كل ما يرد له ١١٧
- بالخاطر ١١٨
- تحسين ما حسن الشيخ ١١٨
- إظهار مزايا الشيخ وفضله ١١٩
- إيثار الشيخ بالمال والروح مع الرضا ١١٩
- ملازمة لبس الصوف ١٢٠
- أن يعمل على قضاء حوائجه بنفسه ١٢٢
- ملازمة العزلة عن الخلق وخصوصا ١٢٨
- ولاة الأمر ١٢٩
- عدم الالتفات إلى شيخ غير شيخه ١٣٣
- إغضاض الطرف بحضور شيخه ١٤٢
- نتائج السير على هذه الآداب ١٤٢
- خاتمة وفيها فوائد: ١٤٢
- ترجمة الناظم أحمد عرب الشرنوبى ١٥١
- نظم في الأمور التي تعجل الشيب ١٥٧
- فضل النبي صلى الله عليه وسلم ١٥٨
- فائدة: في حكم من قال إن القرآن ١٦٠
- مخلوق ١٦٣
- مراحل جمع القرآن الكريم ١٦٦
- التكلم بالقرآن الكريم ١٧٦
- القصيدة اللامية للإمام البوصيري ١٧٦
- ترجمة لبعض أئمة المذاهب: ١٧٨
- الإمام مالك ١٨٠
- الإمام الشافعي ١٨٢
- الإمام أحمد ١٨٢
- الإمام أبي حنيفة ١٨٥
- الإمام الثوري ١٩٠
- تقاريض بعض العلماء على هذا الشرح ١٩٠
- فهرس الموضوعات ١٩٠

يأتي إلا بخير».

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال ذات يوم لأصحابه : «استحيوا من الله حق الحياء» . فقالوا: إنا نستحيي يا رسول الله والحمد لله ، قال : «ليس ذاك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلوى ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا» اهـ.

واعلم أن الحياء قسمان؛ إيماني: وهو ما علمته . وطبيعي: وهو ما يعتري الإنسان حتى يمنعه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن سؤاله عن مهمات المسائل في الدين إذا أشكلت، ولذا ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن».

قال الإمام الشعراني: وليحذر الإنسان من الحياء الطبيعي، فإنه معدود من جملة الكبر عند القوم، وهو أن يستحي الشخص أن يذكر الله تعالى برفع الصوت بحضرة الناس، وأكثر من يفعل ذلك أصحاب الأنفس كالقضاة والمباشرين ومشايخ العرب، فمثل هؤلاء يجب عليهم الذكر برفع الصوت حتى يخرجوا عن الكبر اهـ. وقد قيل لأبي سفيان: ما أول الحياء، فقال: أن تستحي منه أن يراك حيث نهاك، قيل: فما غايته، قال: أن تستحي منه أن يعلم أنك تريد بقلبك سواه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: مكارم الأخلاق عشرة؛ صدق الحديث، وصدق البأس، وأداء الأمانة، وإكرام الجار، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمام للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن الحياء.

وقال علي كرم الله وجهه: من جعل الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه. وقال بعض السلف لابنه: يا بني إذا دعتك نفسك إلى معصية فارم ببصرك إلى السماء واستح ممن فيها، فإن لم تفعل فارم ببصرك إلى الأرض واستح ممن فيها، فإن لم تفعل فعد نفسك من البهائم.

وقال السري السقطي: إن الحياء والأنس يطرقان القلب، فإن وجدا فيه الزهد والورع خطأ وإلا رحلا. ويبان ذلك أن الحياء ثمرة دوام المراقبة، والأنس ثمرة دوام العبادة بالإخلاص، فلا يحلان إلا في محل خال من الشاغل عن الله تعالى، ولعزة أهل هذا المقام قال الإمام القشيري في رسالته: تعامل القرن الأول بالدين حتى رق الدين، ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء، ثم تعامل القرن الثالث

بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياء، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرغبة اهـ.

ولله در القائل:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
وكان الفضيل بن عياض يقول: خمس من علامات الشقاء: قسوة القلب،
وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل. فتجنبها أيها المشفق
على نفسك وحي على خير العمل.

وفي الحديث القدسي: «يا عبدي إنك ما استحييت مني أنسيت الناس عيوبك
وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ومحوت من أم الكتام زلاتك ولا أناقشك الحساب يوم
القيامة».

ومن الشروط (إخلاص) في العمل بأن لا يعمل العبد ليراه الناس، فإن مراعاة
الناس تحبط الأعمال وتوجب الإفلاس، لأن الرياء هو الشرك الخفي، وقد قال
تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65] فالمراد أن يخلص المريد قلبه من شائبة
النظر للأغيار. ويوجهه إلى محض التقرب إلى العزيز الغفار. فإن الإخلاص سر من
أسرار الله تعالى، وثمرته نسيان رؤية الخلق، بدوام النظر إلى الملك الحق. وناهيك
قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5]، وفي الحديث
القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه
بريء». وقال ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساء الصلاة حيث يخلو
فتلك استهانة استهان بها ربه تعالى». فاحرص يا أخي على مداومة الإخلاص،
وتوق من ملاحظة الأشخاص، والله يتولى هداك.

ومن الشروط (ذكاء) بفتح الذال المعجمة والمد، وهو قوة الذهن بحيث تقدر
النفس معها على تصور ما يرد عليها من المعاني الدقيقة.

ومن الشروط (فطنة) وهي التنبه للشيء الذي يراد منه، فيكون ذا بصيرة
بعواقب الأمور، فيهدم دنياه لينبني بها أخراه، ولا يهدم أخراه لينبني بها دنياه، فإن هذا
الأخير إنما ينشأ من الغفلة التي هي ضد الفطنة.

وما ألطف قول المتنبي:

لا يدرك المجد إلا سيد فطن لما يشق على السادات فعال وكذا من الأصول (الورع) بفتح الواو والراء (المحمود في كل شرعة) بكسر الشين المعجمة وسكون الراء، وهي الشريعة والشرع ألفاظ مترادفة على معنى واحد، أي: دين. واعلم أن الورع هو ترك الشبهات، خوف الوقوع في المحرمات، وهذا ورع العامة. وأما ورع الخاصة فهو صحة اليقين، وكمال التعلق برب العالمين، ووجود السكون إليه، وعكوف الهمم عليه.

وقال بعضهم: الورع الخروج عن كل شبهة ومحاسبة النفس كل طرفة عين. ومن كلام بعض العارفين: ملاك الدين الورع، وفساده الطمع. وقال أبو بكر الوراق: لو قيل للطمع: من أبوك؟ لقال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذل، ولو قيل له: ما غايتك؟ لقال: الحرمان. وكان بعض العارفين يقول: اتقوا الله وموتوا نفوسكم بالورع، وقوة الثقة، والاستغناء بالله عن طلب الحوائج إلى ذي سلطان، فإن من خضع لصاحب سلطان أو لمن يخالف دينه طلبا لما في يديه من دنياه مقتته الله ووكله إليه، فإن تحصل على شيء من دنياه نزع البركة منه ولم يؤجر عليه.

وما ألطف قول بعضهم:

تورع عن سؤال الخلق طرا وسل ربا كريما ذا هبات ودع زهرات دنياك اللواتي تراها لا محالة ذاهبات وقال بعض العارفين: الورع في المنطق أكمل منه في الذهب والفضة، كما أن الزهد في الرياسة أكمل منه في الذهب والفضة، وبهذا يتضح قصور قول بعضهم: إني وجدت ولا أقول بغيره أن التورع ضد هذا الدرهم فإذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن تقاكَ تقوى مسلم وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «لم يتقرب إلي المتقربون بمثل الورع والزهد» ومن المواعظ اللطيفة ما حكى: أن رجلا كتب رقعة وهو في بيت الكراء، فأراد أن يتربها من جدار البيت، فخطر بباله أنه بالكراء، ثم خطر بباله أنه لا خطر لهذا القدر، وتربها فسمع هاتفا يقول: سيعلم المستخف بالتراب، ما سيلقاه غدا من طول الحساب.

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

4 | وَذَوْقٌ وَشَوْقٌ وَالْحُضُورُ بِقَلْبِهِ وَفَطَمٌ مُرَادِ النَّفْسِ عَنْ كُلِّ شَهْوَةٍ |

(الذوق والشوق) من الأحوال التي تنشأ عن نحو فطم مراد النفس عن كل شهوة، والأذواق التي يشير إليها القوم عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه به تحل الرموز، وتفتح الكنوز، وتدرك المعارف التي أفاضها عليهم الكريم الوهاب، من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب. ولذا قيل لبعضهم: ما حقيقة الذوق؟ فقال: هو فوق الفوق، وقد حده لساني بما شهدته جناني:

الذوق لطف مع الأرواح يبرزه نطق اللسان بما في القلب من حكم وأما الشوق فهو انجذاب القلب لمشاهدة المحبوب، ويقال: هو نار الله أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات، والعوارض والحاجات، وهو ناشئ عن المحبة، فإذا بلغه العبد استبطأ الموت شوقاً إلى ربه، وأخذ في التواجد والتطير إلى حظيرة قربه:

فقل للذي ينهى عن الوجد أهله إذا لم تذق معنا شراب الهوى دعنا
إذ اهتزت الأرواح شوقاً إلى اللقا ترقصت الأشباح يا جاهل المعنى
فيا حادي العشاق قم واحد قائماً وزمزم لنا باسم الحبيب وروحنا
وقد قالوا: كشف النقاب، أشهى للمشتاق من لبس الثياب:

فبح باسم من أهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر
ويقال: إن شوق أهل القرب أتم من شوق غيرهم. لقول قائلهم:

وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام
فتأمل أيها المتجافي عن درك المرام، وأقبل على مولاك الكريم الذي أوحى
إلى داود عليه السلام: لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم،
وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقاً إلي، وتقطعت أوصالهم من محبتي، يا داود
هذه إرادتي للمدبرين عني، فكيف إرادتي للمقبلين علي.

ومن الشروط الخاصة بالذكر ومجالسة الحق (الحضور) أي: حضور المريد مع الله (بقلبه)، بأن لا يكون غافلاً ولا ذاهلاً عن الله تعالى عند ذكره، فإن القلوب

أوعية أسرار الغيوب، فرب ذاكر الله لحظة بقلب حاضر خير ممن ذكره ألف سنة بلا حضور قلب. وثمرة حضور العبد مع الله شهوده له تعالى في كل شيء، بحيث يعلم أنه ناظر إليه، ومطلع عليه، وعند ذلك يتحقق بقوله تعالى في كتابه المجيد: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16].

ومن الشروط (فطم مراد النفس عن كل شهوة) أي: منعها عن كل شهوة مرادة لها، وقمعا عن الاسترسال فيما يمنعها عن الترقى لأوج كمالاتها. على حد قول الإمام البوصيري:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تطفمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يصم أو يصم
وراعها وهي في الأعمال سائمة وإن هي استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة من حيث لم يدر أن السم في الدسم
ومن الحكم النواغ قول بعضهم: إذا ما دعتك النفس يوما لشهوة
وكان عليها للخلاف طريق فخالف هواها ما استطعت فإنما

هواها عدو والخلاف صديق

وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُنْزٌ فَتَنَةٌ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني: بالشهوات
﴿وَتَرْيَضَتُمْ﴾ ويعني: بالتوبة ﴿وَأَزَبْتُمْ﴾ يعني: في أمر الله ﴿وَعَزَّتْكُمْ الْأَمَانُ﴾ يعني:
بالسويف ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني: الموت ﴿وَعَزَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْعَزُورُ﴾ [الحديد: 14]
يعني: الشيطان.

وقال بعضهم: من استولت عليه النفس صار أسيرا في حكم الشهوات، محصورا في سجن الهوى والمخالفات، قد حرم الله على الفوائد أن تسكن فؤاده، ومنعه حلاوة فهم كلامه وإن أكثر ترداده، فيكون داخلا في شديد وعيد: ﴿سَاصِرُفٌ عَنَّا الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146]، وهذا عذاب أصحاب الأنفس في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشق.

وما ألطف قول بعضهم:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتته ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذي دعت إليه من حلاوة عاجل

وقال محمد بن جعفر البغدادي: رأيت في منامي حوراء ما رأيت أحسن منها فقلت: زوجيني من نفسك، فقالت: اخطبني من سيدي، فقلت: وما مهرك، قالت: حبس النفس عن مآلوفاتها.

وقال موسى عليه السلام في مناجاته: يا رب متى تكون لي، فقال: إذا لم تكن لنفسك، قال: ومتى لا أكون لنفسي. قال: إذا نسيتها.

واعلم أن العلم قائد للنفس إلى طرق الخيرات، والخوف سائق لها، وهي بين ذلك جموح تميل إلى المخالفات، فراعها بسياسة العلم وسقها بسوط الخوف يتم لك ما تريد.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

5	وَزُهْدٌ وَفُتْنٌ بِالْكَفَافِ وَرَهْبَةٌ	مِنْ اللَّهِ فِي حَالِي رَخَاءٍ وَشِدَّةٍ
---	---	---

أي ومن الأصول (زهد) في الدنيا، ولما في الحديث: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» ولله در القائل:

كن زاهدا فيما حوته يد الورى تضحى إلى كل الأنام حبيبا
أو ما ترى الخطاف حرم زادهم فغدا مقيما في البيوت ربيا
قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام وهو زهد العوام، وترك الفضول من المال وهو زهد الخواص، وترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين.

وقال بعض الفضلاء: من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد، وذلك لأن الزهد يكون أولا في المال، ثم في الطعام، ثم في اللباس، ثم في الاستئناس بالناس، ولا يزهد في الحمد مع عدم المبالاة بالذم إلا من كمل زهده في الرياسة وهو أعلى المراتب، ولذا قيل: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة.

وقال بعض العارفين: علامة الزهد في شيء من الدنيا سرور القلب بفقده. وقال بعضهم: الزهد هو أن لا تطلب المفقود حتى تفقد الموجود. وقال الفضيل بن عياض: الزهد حرفان في كتاب الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ﴾ [الحديد: 23].

وقال إبراهيم بن أدهم: على القلب ثلاثة أغطية: الفرح والحزن والسرور. فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص والحريص محروم، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والمعجب محبط عمله اهـ.

فالعاقل من تدبر عاقبة أمره ومصيره، ونظر ليتخلص من دنياه بعين البصيرة، واغتر بظلمها الزائل، واتعظ بقول القائل:

تأمل سطور الكائنات فإنها من المملأ الأعلى إليك وسائل
لقد خط فيها لو تأملت سطرها ألا كل شيء ما خلا الله باطل
وقد شبهوا حال الدنيا وأهلها والزاهدين فيها بحال طعام صنعه صانعه من
السكر وعجنه بالسّم بحضور بعض الناس دون بعض، ثم وضعه بين يدي من أبصره
في حال صنعه ومن لم يبصره، فإن من أبصره وعلم ما فيه من الآفات لا يقرب منه،
ومن غاب عنه ذلك اغتر بما فيه من الحلاوة وحرص عليه ولا يصبر عنه:

فحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا
ووصفها بعضهم بقوله: إذا أدبرت كانت على القلب حسرة
وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

وقال أبو نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
وقال الصلاح الصفدي:

ما هذه الدنيا وإن أقبلت
فسام لما سام فيها البقا
وما ألطف قول بعضهم:

من ملك الدنيا ودانت له
تعطيه كالشفق لكنها
مبتدأ حلو لمن ذاقه
ولله در من قال:

وزهرة الدنيا وإن أينعت فإنها تسقى بماء الزوال
وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

كم ضاحك والمنايا فوق هامته لو كان يعلم غيبا مات من كمد
من كان لم يؤت علما في بقاء غد ماذا تفكره في رزق بعد غد
وقال ابن الوردي:

قصر الآمال في الدنيا تفز فدليل العقل تقصير الأمل
إن من يطلبه الموت على غرة منه جدير بالوجل
وما ألطف قول أبي الفتح البستي:

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لا ثبات له فإن معناه في التحقيق فقدان
ومن أصول الطريق (قنع) بضم القاف وسكون النون، أي: رضا (بالكفاف)
أي: بما يكفي الإنسان ويكفه عن ذل السؤال، على حد ما قيل:

أيها المرء إن دنياك بحر موجه طافح فلا تأمننها
وسبيل النجاة فيها منير وهو أخذ الكفاف والقوت منها
وفي الحديث: «ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا وملكان يناديان يسمعهما خلق
الله إلا الثقلين أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».
ومن النصائح:

إذا أظمأتك أكف اللئام كفتك القناعة شبعاً ورياً
فكن رجلاً رجله في الثرى وهامة همته في الثريا
أبياً بنفسك عن باخل تراه بما في يديه أبياً
فإن إراقة ماء الحيا ة دون إراقة ماء المحيا
ولبعضهم مع حسن الجنس:

إذا ما نازعتك النفس حرصاً فأمسكها عن الشهوات أمسك
ولا تحرص ليوم أنت فيه وعد فرزق يومك روق أمسك
ومما قيل فيمن ألهاه الغنى مع حسن التورية:

وصاحب لما أتاه الغنى تاه ونفس المرء طماحة
 وقيل هل أبصرت منه يدا تشكرها قلت ولا راحة
 وقال بعض العارفين: صاحب القناعة ومالك الدنيا غير متساويين، بل
 صاحب القناعة أقل حزنا، وأطيب نفسا، وأقر عينا، كما قال الصفي الحلي في هذا
 المعنى:

قناعة المرء بما عنده مملكة ما مثلها مملكة
 فارضوا بما قد جاء عفوا ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة
 وقال بعضهم:

هي القناعة فالزمها تعيش ملكا لو لم يكن منك إلا راحة البدن
 وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن
 وقال الإمام النووي:

وجدت القناعة أصل الغنى فصرت بأذيالها ممتسك
 فلا ذا يراني على بابه ولا ذا يراني به منهمك
 وعشت غنيا بلا درهم أمر على الناس شبه الملك
 وقال بعضهم:

غنى المرء ما يكفيه من سد خلة فإن زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا
 ولله در من قال:

ومن سره أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا
 فالراحة كلها في الرضا بالمقسوم. والتعب كله في تتبع الهموم. ولذا قيل:
 يقول الزمان ولم تستمع لمن طلب الرزق أو أمله
 أنا حرب من جد في كسبه ومن يتقنع تعصبت له

وسئل النبي ﷺ عن القناعة فقال: «هي الإياس مما في أيدي الناس وإياكم
 والطمع فإنه الفقر الحاضر»، وقال ﷺ: «عز من قنع وذل من طمع»، وقال ﷺ:
 «القناعة كنز لا يفنى». قال بعضهم: وإنما كانت القناعة كنزا لا يفنى، لأن حقيقتها
 الرضا باليسير، وذلك يتضمن ترك استيفاء الحظوظ التي لا ضرورة في تناولها، وفي

الترك توسع عظيم يكاد أن لا ينحصر، فكلما طلبت النفس حظا زائدا على ما هي محتاجة إليه، وأرضيت بترك ذلك الزائد، فقد أنفق عليها من كنز الترك الذي لا ينفد. ولله در من قال:

إذا رمت أن تستقرض المال منفقا
فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها
فإن رضيت كنت الغني وإن أبت
وما ألطف قول ابن الفارض:

وأنفقت من يسر القناعة راضيا
وهذبت نفسي بالرياضة ذاهبا
وقال الإمام علي كرم الله وجهه: طلبت الغنى فوجدته في القناعة. ولأبي العتاهية:

تسربت أخلاقي قنوعا وعفة
فلم أر خصبا كالقنوع لأهله
وما ألطف قول بعضهم:

ذريني ونفسي في العفاف فإنني
وأعظم من قطع اليدين على الفتى
ولله در من قال:

إذا المرء عوفي في جسمه
وأعرض عن كل مالا يليق
وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

ورزقك لا يفوتك بالتواني
إذا ما كنت ذا قلب قنوع
وقال أيضا رضي الله عنه:

أمت مطامعي فأرحت نفسي
وأحييت القنوع وكان ميتا
فإن النفس ما طمعت تهون
ففي إحيائه عرضي مصون

إذا طمع يحل بقلب عبد

وقال السراج الوراق:

مالي أذل وللقناعة عزة
وأصون وجهي أن يذل لأوجه
والقوم كالأصنام والإسلام نز

وقال الإمام القسطلاني:

قنعت بالقوت مر زماني
لا ينبغي أن أرى بعيني
لي قبل أن أموت رزق
فاستغن بالله عن فلان

وما ألطف ما قيل:

إذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن

ويرحم الله القائل:

لا تخضعن لمخلوق على طمع
واسترزق الله مما في خزائنه
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما اسد

وقيل لإبراهيم بن أدهم: كيف أنت؟ فقال:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا
فطوبى لعبد آثر الله ربه

وما ألطف قول بعضهم:

هب الدنيا تساق إليك عفوا
وما دنياك إلا مثل ظل

ومن النصائح:

يا راقد الليل مسرورا بأوله
أفتي القرون التي كانت منعمة

علته مهانة وعلاه هون

أنجو بها من ذلة وهوان
منحوتة من عالم الصوان
هني عن الأصنام والأوثان

وصنت نفسي عن الهوان
مكان من لا يرى مكاني
لو جهد الخلق ما عداني
وعن فلان وعن فلان

على حالة إلا رضيت بدونها

فإن ذلك وهن منك في الدين
فإن ذلك بين الكاف والنون
تغنى الملوك بدنياهم عن الدين

فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
وجاد بدنياه لما يتوقع

أليس مصير ذاك إلى الزوال
أظلك ثم آذن بانتقال

إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
كر الجديدين إقبالا وإدارا

كم قد أبادت صروف الدهر من ملك
يا من يعانق دنيا لا بقاء لها
هلا تركت من الدنيا معانقة
وقال أبو العتاهية:

هي الدار دار الأذى والقذى
فلو نلتها بحذافيرها
أيا من يؤمل طول الخلود
إذا ما كبرت وبان الشباب
وأجاد القائل:

النفس تأبى أن تكون فقيرة
فغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت
وقال آخر:

تمنع بما يكفيك واستعمل الرضا
فليس الغنى عن كثرة المال إنما
وما ألطف قول بعضهم:

خذ من العيش ما كفي
كسـراج منـور
فإنك لا تدري أتصبح أم تسمي
إن طفا دهنه انطفأ

فالكفاف حالة متوسطة بين الفقر والغنى، وخير الأمور أوسطها، ولذا قال
ﷺ: «اللهم اجعل رزق محمد كفافا»، وقال ﷺ: «ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب
رجل أراد أن يغسل ثوبه فلم يجد له خلقة يلبسها ورجل لم ينصب على مستوقده
قدرين ورجل طلب شرابه فلم يقل له أيهما تريد». وروي عن أبي الدرداء رضي الله
عنه أنه قال: لأن أقع من فوق قصر فأتحطم أحب إلي من مجالسة الغني، لأنني
سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم ومجالسة الموتى» قيل يا رسول الله: ومن
الموتى؟ قال ﷺ: «الأغنياء». والنهي عن ذلك لأن مجالستهم لا يسمع فيها غالبا
إلا مدح الدنيا والتمكن من الجاه والمال، والنفوس مائلة إلى كل لذية، فينغرس في
القلب محبتها، والمراد أنهم موتى القلوب بمحبة الدنيا حتى اشتغلت عن أعمال

الآخرة. وما ألطف قول ابن عطاء الله في حكمه: إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك، إنما الصدقات للفقراء.

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غاية من الزهد والتقلل من الدنيا، حتى أن قميصه كان فيه أربع رقاع بين كتفيه، وأبطاً يوماً عن الخروج لصلاة الجمعة وهو خليفة، ثم خرج فاعتذر للناس وقال: إنما حبسني عنكم ثوبي هذا، كان يغسل وليس عندي غيره، وكان يبرد في الشتاء حتى ترعد مفاصله، فيقال له: ألا تأخذ لك من بيت مال المسلمين كساء فإنه واسع، فيقول: لا أنقص المسلمين من بيت مالهم شيئاً لي، وكان لا يجمع في سباطه بين إدامين حتى إن بنته حفصة قدمت له مرقاً بارداً وصبت عليه زيتاً، فقال: إدامان في إناء واحد، لا آكله حتى ألقى الله عز وجل، ومع ذلك كان يقول: وددت أن أخرج من الدنيا كما دخلت لا أجر لي ولا وزر علي، ولما مات رآه العباس رضي الله عنه في المنام، فقال له: كيف وجدت الأمر يا أمير المؤمنين؟ فقال: كاد عرشي يهوي بي لولا أنني وجدت ربا رحيمًا.

وكان الإمام علي كرم الله وجهه يرقع قميصه ويقول: إن لبس المرقع يخشع القلب، ومما ينسب له رضي الله عنه.

حقيق بالتواضع من يموت ويكفي المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا هموم وحرص ليس تدركه النعوت
فيا هذا سترحل عن قريب إلى قوم كلامهم السكوت
ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وضع ماله ومال زوجته فاطمة بنت عبد الملك في بيت المسلمين، وصار كآحاد الناس حتى أنه صار لا يملك إلا قميصاً واحداً وهي كذلك، فإذا أراد غسله مكث في البيت حتى يجف، على حد ما قيل: قوم إذا غسلوا الثياب رأيتهم لبسوا البيوت وزرروا الأبوابا ومع ما كان عليه من الورع والزهد والعدل الذي ضرب به المثل، كان له سرب ينزل فيه كل ليلة، ويضع الغل في عنقه فلا يزال يبكي ويتضرع إلى الصباح. وقيل له في مرض الموت: تركت أولادك وهم ثلاثة عشر ليس لهم درهم ولا دينار، فقال: لم أمنعهم حقاً لهم ولم أعطيهم حقاً لغيرهم، وإنما ولدي أحد رجلين؛ إما مطيع لله فالله تعالى كافيه وهو يتولى الصالحين، وإما عاص لله فما أبالي بما وقع له.

ومن النصائح النبوية قوله ﷺ: «أيها الناس اذكروا هازم اللذات فإنكم إن ذكرتموه في ضيق وسعه عليكم وإن ذكرتموه في غنى بغضه إليكم إن المنايا قاطعات الآمال والليالي مدنيات الآجال وإن العبد بين يومين يوم قد مضى أحصي فيه عمله فختم عليه ويوم قد بقي لا يدري لعله لا يصل إليه وإن العبد عند خروج نفسه وحلول رمسه يرى جزاء ما أسلف وقلة غناء ما خلف. أيها الناس إن في القناعة لغنى وإن في الاقتصاد بلغة وإن في الزهد لراحة وإن لكل عمل جزاء وكل آت قريب».

وقال بعض الحكماء: الدنيا إنما تراد لثلاثة: العز والغنى والراحة؛ فمن زهد فيها عز، ومن ترك الانهماك فيها استراح.

ولما اجتمع هرون الرشيد بالبهلول قال له: عظمي. فقال: بم أعظك؟ هذه قصورهم، وهذه قبورهم، ثم قال كيف بك يا أمير المؤمنين إذا أقامك الحق تعالى بين يديه وسألك عن النقيير والقتيل والقطمير وأنت عطشان جيعان عريان وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون؟ فخنته العبرة وأمر له بصلة، فقال: ردها على من أخذتها منهم قبل أن لا تجد لهم شيئاً ترضيهم به، ثم أنشد:

دع الحرص على الدنيا وفي العيش فلا تطمع
ولا تجمع من المال فما تدري لمن تجمع
فإن الرزق مقسوم وسوء الظن لا ينفع
فقير كل ذي حرص غني كل من يقنع
ولله در ابن زريق حيث قال من قصيدته المشهورة:

وما مجاهدة الإنسان واصله
قد وزع الله بين الخلق رزقهمو
لكنهم كلّفوا حرصا فلست ترى
والحرص في الرزق والأرزاق قد قسمت
وما ألطف ما قيل:

عزيز النفس من لزم القناعة
أفادتنا القناعة كل عز
فصيرها لنفسك رأس مال
ولم يكشف لمخلوق قناعه
وهل عز أعز من القناعة
وصير بعدها التقوى بضاعة

لتغنى في حياتك عن لئيم وتسعد في الجنان بصبر ساعة
قال ابن عباس رضي الله عنهما ما اتعظت بعد رسوله ﷺ بمثل كتاب كتبه إلى
علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «أما بعد فإن الإنسان ليسره درك ما لم يكن ليفوته
ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا ولا لما فاتك منها
ترحا. ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الأمل. فكأن قد
والسلام».

ومما ينسب له كرم الله وجهه:

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت بانيها
وحكي أن رجلا خطر بباله وهو في الطواف طلب الدنيا، فلما نام سمع هاتفا
يقول:

أقسمت بالبيت العتيق وركنه والطائفين ومنزل الفرقان
ما العيش في المال الكثير وجمعه بل في الكفاف وصحة الأبدان
ومن الأصول (رهبة) وهي أعلى مراتب الخوف الذي هو أصل من أصول
طريق القوم، يقال: رهب رهبا من باب تعب خاف، والاسم الرهبة. قال بعض
العارفين في وصيته لمن قال له أوصني: كن كرجل احتوشته السباع فهو خائف
مذعور، يخاف أن يسهو فتفترسه، أو يلهو فتنهشه، فليله ليل مخافة إذا أمن فيه
المفترون، ونهاره نهار حزن إذا فرح فيه البطالون. ثم قال للطالب عند الاستزادة: إن
الظمان يقنع بيسير الماء.

واعلم أن من خاف من الله تعالى أخاف الله منه كل شيء، ومن خاف غير
الله سلطه الله عليه، لأن الجزاء من جنس العمل.

وقال بعضهم: خرجنا ليلة فمررنا بأجمة مسبعة، وإذا رجل نائم وفرسه عند
رأسه ترعى، فحركناه وقلنا له: أتنام في هذا الموضع المخوف المسيع؟ فرفع رأسه
وقال: أنا أستحي منه تعالى أن أخاف غيره، ووضع رأسه ونام.

وروي أن ابن عمر رضي الله عنهما كان في بعض الأسفار، فلقي جماعة
واقفين على الطريق خوفا من السبع، فتقدم هو إلى السبع وطرده من طريقهم، ثم

قال: إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه، ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شيء. وقد جرى مثل هذا لإبراهيم بن أدهم، فإنه لما كان في قافلة وتعرض السبع لها تقدم إليه، وقال له: يا أبا الحارث إن كنت أمرت فينا بشيء وإلا فتنح عن طريقنا، فهمهم وتنحى عن الطريق، فتعجبوا من ذلك فقال لهم إبراهيم: ما على أحدكم أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى: «اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام. واحفظنا بركنك الذي لا يرام. وارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت الرجاء». وقوله: «بعينك»، أي: ذاتك التي لا تنام، أي: لا يجوز عليها النوم، لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُ سَنَةً وَلَا يَوْمٌ﴾ [البقرة: 254] لأن ذلك من صفات الحوادث. وقوله: «لا يرام»، أي: يقصد بالمعارضة.

وإنما عمم المصنف الخوف من الله حيث قال: (في حالي رخاء وشدة) لأن من لاحظ الخوف في الحاليين فقد شرب بالكأسين. وحال الرخاء هو حال القلب في مقام الإحسان والمكاشفات. وحال الشدة هو حال المكابدة والمجاهدات. ثم قال المصنف رضي الله عنه:

6	وَتَفْوِيضُ أَمْرٍ ثُمَّ حُسْنُ تَوَكُّلٍ	خُضُوعٌ خُشُوعٌ وَالْبَكَاءُ بِذِلَّةٍ
---	---	--

اعلم أن (التفويض) ثمرة التسليم الذي هو ثمرة التوكل، وإنما صدر به لكونه أعلى مراتب التوكل الذي هو حال العارفين، ثم ثنى بالتوكل الذي هو حال المبتدئين. والتفويض: رد كل أمر إلى الفاعل المختار، فإنه الذي يفعل ما يشاء ويختار. وإن أردت أن تكون من الأكابر السادات، فكن متذكرا قول بعض أهل الإشارات:

تذكر جميلي عند كونك نطفة ولا تنس تصويري لشخصك في الحشا
وسلم لي التدبير واعلم بأنني أنفذ أحكامي وأفعل ما أشاء
وقد مر بعض الصوفية برجل قد صلبه الحجاج، فقال: يا رب إن حلمك على
الظالمين قد أضر بالمظلومين، فرأى في منامه أن القيامة قد قامت، وكأنه قد دخل
الجنة، فرأى المصلوب في أعلى عليين، وإذا مناد ينادي حلمي على الظالمين قد

جعل المظلومين في أعلى عليين .

ومن اللطائف أن بعضهم رأى امرأة جميلة مع رجل قبيح المنظر، فقال لها: أترضين أن تكوني معه؟ فقالت: قد أسأت يا هذا حيث لم تترك التدبير إلى العليم الخبير، لعل زوجي أحسن فيما بينه وبين الله تعالى فجعلني ثوابه، ولعلي أسأت فيما بيني وبينه فجعله عقوبتي، أفلا أرضي به الحكيم العليم .

وحكي أن رجلا من الصالحين كان يقول فيما يصيبه: «الخيرة فيما اختاره الله»، وكان في بادية ومعه أهله، وليس له إلا حمار يحمل عليه متاعه، وكلب يحرسهم، وديك يوقظهم، فجاء الثعلب وأخذ الديك، فقال: خيرة، ثم جاء الذئب فقتل الحمار، فقال: خيرة، ثم أصيب الكلب فمات، فقال: خيرة، فتعجب أهله من ذلك، حتى أصبحوا وقد سبي من حولهم، واسترقت أولادهم، وكان قد عرف مكان بعضهم بصوت الديكة، ومكان البعض الآخر بنهيق الحمير ونبح الكلاب، فقال: قد رأيتم أن الخيرة فيما اختاره الله، فلو لم يهلكهم لهلكنا وأخذت أولادنا . وما أطف ما قيل :

كن عن همومك معرضا	كل الأمور إلى القضا
وأبشر بخير عاجل	تنسى به ما قد مضى
فلرب أمر مسخط	لك في عواقبه رضا
ولربما اتسع المضي	ق وربما ضاق الفض
الله يفعل ما يشاء	فلا تكن متعرضا
الله عودك الجمي	ل فقس على ما قد مضى

ومن لطائف التدبير الذي يعجز عنه غير العليم الخبير، ما حكي أن بعض الأنبياء كان يتعبد في جبل، وبالقرب منه عين ماء، فجاء فارس فشرب منها ونسي صرة فيها دنانير، ثم جاء آخر فأخذها وانصرف، ثم بعد ذلك جاء رجل فقير وعلى رأسه حزمة حطب فشرب من الماء واستلقى يستريح، فرجع الفارس في طلب الصرة فلم يرها فأخذ الفقير وقتله، فقال النبي: إلهي إن هذا الفقير لم يأخذ الصرة فكيف سلطت هذا الظالم على هذا الفقير حتى قتله، وأنجيت من أخذها؟ فأوحى الله إليه أن هذا الفقير كان قتل أبا الفارس فمكنته من القصاص، وإن أبا الفارس كان قد أخذ

ألف دينار من مال من أخذ الصرة فرددته إليه من تركته. ولله در من قال:

تبارك من أجرى الأمور بحكمة كما شاء لا ظلما أراد ولا هضمًا
فما كان شيء غير ما الله شاء فإن شئت طب نفسا وإن شئت مت كظما

ثم من الأصول (حسن التوكل) وهو الثقة بما عند الله، فمن توكل عليه كفاه، ومن انقطع إليه آواه. وفي الحديث: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»، وناهيك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3]. وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23] فالتوكل من لوازم كمال الإيمان، لأنه الاعتماد على الخالق دون رؤية الخلائق. ولا يمنع الأخذ بالأسباب جهود الملك الوهاب. وقال بعض العارفين في شرح التوكل: هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطي شكر، وإن منع صبر. ويقال: علامة المتوكل أن لا يسأل ولا يرد ولا يحبس، وأكمل أحوال المتوكل أن يكون بين يدي الله تعالى كالमित بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد، لا يكون له حركة ولا تدبير. كما قال بعضهم:

حقيقة العبد عندي في توكله سكون إحساسه عن كل مطلوب
وأن تراه لكل الخلق مطرحا يصون أسرارَه عن كل محبوب

وقال أبو علي الدقاق: للمتوكل ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض؛ فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه، اهـ.

ومعلوم أن كل درجة أرقى مما قبلها، فإن المتوكل يسكن إلى وعده في قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6] ومع ذلك يسأله، وأما صاحب التسليم فيكتفي بعلمه تعالى بحاله ولا يسأله، وصاحب التفويض يرضى بحكمه تعالى سواء وافق غرضه أو خالفه.

"لطيفة": قال رجل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 7].

"فائدة": قال الدميري: من دخل على من يخاف شره فليقرأ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل، الآية: 99] ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ

وَفَضَّلِ لَمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾ [آل عمران: 173-174] فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْجِيهِ مِنْ شَرِّهِ.

ومن الحكم الجامعة هذه الوصية التي وجدت في جيب جالينوس بعد موته وهي: أحقق الحمقى من يملأ بطنه من كل ما يجد، وما أكلته فلجسمك، وما تصدقت به فلروحك، وما خلفته فلغيرك، والمحسن حي وإن نقل إلى دار البلى، والمسيء ميت وإن بقي في الدنيا، والقناعة تستر الخلة، وبالصبر تدرك الأمور، وبالتدبير يكثر القليل، ولم أر لابن آدم شيئا أنفع من التوكل على الله تعالى، اهـ.

ومن جوامع الحكم ما نقل أن بعض الأبدال مر على طبيب يصف العلاج للمرضى، فتقدم إليه وقال له: عالج مرضي، ففكر ساعة ثم قال له: خذ عروق الفقر، وورق الصبر مع إهليلج التواضع، واجمع الكل في إناء اليقين، وصب عليه ماء الخشية، وأوقد تحته نار الحزن، ثم صفه بمصفاة المراقبة في جام الرضا، وامزجه بشراب التوكل، وتناوله بكف الصدق، واشربه بكأس الاستغفار، وتمضمض بعده بماء الورع، واختم عن الحرص والطمع، فإن الله تعالى يشفيك.

وفي الحديث عنه ﷺ قال: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» وفي هذا الحديث إثبات الأخذ بالأسباب مع التوكل، فإنه نسب لها الغدو، أي: الذهاب في أول النهار خماصا بكسر الخاء المعجمة، أي: جياعا، والروح آخره بطانا بكسر الموحدة، أي: ممتلئة البطون.

وفي الحديث: «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي» وقد كانت الصحابة رضوان الله عليهم يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم أخذا بالأسباب، فلا يصح لأحد أن يخرج عن ذلك مع التوكل على العزيز الوهاب. ولذا قال بعضهم: طلب الكسب الحلال لازم كطلب العلم.

وقال بعضهم: من اكتسب وأجمل في الطلب كان من المؤمنين. وفي الحديث عنه ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم حبالا فيحتطب على طهره فيأكل ويتصدق خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه فإن اليد العليا خير من اليد السفلى».

ومن ألطف قول بعضهم:

توكل على الرحمن في الأمر كله ولا ترغب في العجز يوما عن الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أدلى الجذع من غير هزه إليها ولكن كل شيء له سبب ومن الشروط (خضوع) أي: استكانة وتواضع، وفي الحديث: «من تواضع لله رفعة ومن تكبر وضعه» .

واعلم أنه ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع هو الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع. ومن وصايا الإمام النووي: إياك أن تحتقر أحدا من إخوانك، فإن العاقبة مجهولة، والعبد لا يدري بما يختم له، فإذا رأيت عاصيا فلا تعجب بنفسك عليه، فربما كان في علم الله أعلى منك مقاما ويصير يشفع فيك يوم القيامة، وإذا رأيت صغيرا فاحكم بأنه خير منك باعتبار أنه أقل منك ذنوبا، وإذا رأيت كبيرا فاحكم بأنه خير منك لتقدمه في الإسلام، اهـ.

ومما ينبه المغترين قول بعض العارفين:

أرى أبناء آدم أبطرتهم حظوظهمو من الدنيا الدنية
فلم بطروا وأولهم مني أو افتخروا وآخرهم منية
وقول الناصح الأمين لبعض المختالين:

تتيه وجسمك من نطفة وأنت وعاء لما تعلم
ومن الشروط (خشوع) وهو هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون، ويقال: هو قيام القلب بين يدي الحق. ويقال: هو الخوف الدائم في القلب.
قيل: أوحى الله إلى بعض أنبيائه: هب لي من قلبك الخشوع، ومن عينك الدموع، وسلني أستجب لك فإني قريب مجيب.

واعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل، ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعا في الصلاة وغيرها، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومراقبة جلاله.

فكن خاشعا لله في كل حالة تكن مؤمنا تزهو بنور يقين
ومن الأحوال المترتبة على شدة الخوف (البكاء بذلة) بكسر الذاال المعجمة، أي: يتذلل بين يدي الله تعالى، فإن الخوف الناشئ من خشية الله تدمع منه العين قهرا، ويمنع صاحبه من مفارقة السيئات، ويحثه على ملازمة الطاعات، وقد ورد: «ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه من الدموع مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى»

إلا حرم الله عليه النار» وليس من ذلك بكاء الذين إذا سمعوا ما يقتضي الخوف لم يزدوا على أن يبكوا ويقولوا: «يا رب سلم» وهم مع ذلك مصرون على اتباع الشيطان والأهواء، فإن هذا البكاء لا ينفع مع مخالفة عالم السر والنجوى، بل حال هؤلاء كحال من قصده سبع ضار وهو إلى جانب حصن مفتوح فلم يدخل فيه، وإنما اقتصر على قوله: «رب سلم»، حتى جاء السبع فأكله، فرحم الله عبدا بكت عينه من خشية الله، وقام بما يحبه سيده ويرضاه.

ومن غرر الحكم التي توجب البكاء على النفس وشدة الندم، ما نظمه الشيخ إسماعيل بن المقري في قوله:

إلى كم تماد في غرور وغفلة	وكم هكذا نوم إلى غبر يقظة
لقد ضاع عمر ساعة منه تشتري	بملء السماء والأرض أية ضيعة
أتنفق هذا في هوى هذه التي	أبى الله أن تسوى جناح بعوضة
أترضى من العيش الرغيد تعيشه	مع الملا الأعلى بعيش البهيمة
فيا درة بين المزابل ألقيت	وجوهره بيعت بأبخس قيمة
أفان بباق تشتريه سفاهة	وسخطا برضوان ونارا بجنة
أأنت صديق أم عدو لنفسه	فإنك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما	فعلت لمستهم لها بعض رحمة
لقد بعثها هونا عليك رخيصة	وكانت بهذا منك غير حقيقة
فويك استفق لا تفضحنها بمشهد	من الخلق إن كنت ابن أم كريمة
فبين يديها موقف وصحيفة	يعد عليها كل مثقال ذرة
كلفك بها دنيا كثيرا غرورها	تقابلنا في نصحتها بالخديعة
إذا أقبلت ولت وإن هي أحسنت	أساءت وإن صافت أتت بالكدورة
ولو نلت منها مال قارون لم تنل	سوى لقمة في فيك منها وخرقة
فدعها وأهليها بقسم وخذ كذا	بنفسك عنها فهي كل الغنيمة
ولا تغتبط منها بفرحة ساعة	تعود بأحزان عليك طويلة
فعيشك فيها ألف عام وينقضي	كعيشك فيها بعض يوم وليلة

عليك بما تجزى عليه من التقى
تصلي بلا قلب صلاة بمثلها
تصلي وقد أتممتها غير عالم
فويلك تدري من تناجيه معرضا
تخاطبه إياك نعبد مقبلا
ولو رد من ناجاك للغير طرفه
أما تستحي من مالك الملك أن يرى
صلاة أقيمت يعلم الله أنها
ذنوبك في الطاعات وهي كثيرة
سبيلك أن تستغفر الله بعدها
فيا عاملا للنار جسمك لين
وجربه في لسع الزنابير تجتري
فإن كنت لا تقوى فويلك ما الذي
تبارزه بالمنكرات عشية
فأنت عليه منك أجرى على الورى
تقول مع العصيان ربي غافر
وربك رزاق كما هو غافر
فإنك ترجو العفو من غير توبة
على أنه بالرزق كفّل نفسه
فلم ترضى إلا السعي فيما كفيته
تسيء به ظنا وتحسن تارة
وكلها غرر، فيا فوز من اعتبر.
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

فإنك في لهو عظيم وغفلة
يصير الفتى مستوجبا للعقوبة
تزيد احتياطا ركعة بعد ركعة
وبين يدي من تنحني غير محبة
على غيره فيها لغير ضرورة
تميزت من غيظ عليه وغيره
صدودك عنه يا قليل المروءة
بفعلك هذا طاعة كالخطيئة
إذا عدت تكفيك عن كل زلة
وأن تتلافى الذنب منها بتوبة
فجربه تمرينا بحر الظهيرة
على نهش حيات هناك عظيمة
دعاك إلى إسخاط رب البرية
وتصبح في أثواب نسك وعفة
بما فيك من جهل وخبث طوية
صدقت ولكن غافر بالمشيئة
فلم لم تصدق فيهما بالسوية
ولست ترجى الرزق إلا بحيلة
ولم يتكفل للأنام بجنة
وإهمال ما كلفته من وظيفة
على حسب ما يقضي الهوى في القضية

أي ومن اللوازم لمريد سفر الآخرة (تقوى إله العرش) فإنها الزاد لقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: 197] وهي كلمة جامعة لكل خير لأن معناه امتثال الأمور، واجتناب المنهيات. وبذلك يصير العبد في وقاية من النار، ودرجة عالية مع المتقين بدار القرار.

والتحقيق أن التقوى ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلد صاحبه، وذلك بالتبري من الكفر، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: 26] فإن المراد بها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

والثانية: التجنب عن كل ما فيه لوم، حتى الصغائر عند قوم، وهذا المعنى هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة: 65].

والثالثة: أن يتنزه العبد عن كل ما يشغل سره عن الحق، وهو المعنى المراد بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: 102].

وقال بعض الأكابر: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يكون بحيث لو جعل ما في قلبه في طبق نظيف في السوق لم يستح ممن نظر إليه.

وقال بعض العارفين: إن خيرات الدنيا والآخرة جمعت تحت كلمة واحدة وهي التقوى، وإن شئت فانظر إلى ما في القرآن الكريم من ذكرها، فكم علق عليها من خير ووعد عليها من ثواب، وأضاف إليها من سعادة دنيوية وكرامة أخروية.

ولنذكر لك من خصالها وآثارها الواردة فيها ثلاث عشرة خصلة:

الأولى: المدح والثناء، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186].

والثانية: الحفظ والوقاية، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 120].

الثالثة: التأييد والنصر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128].

الرابعة والخامسة: النجاة من الشدائد، والرزق الحلال، قال تعالى: ﴿وَمَنْ

يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٦٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٦٣﴾ [الطلاق: 2-3] كما قيل في ذلك:

ومن يتق الله يجعل له كما قال من أمره مخرجا
ويرزقه من غير حسابانه وإن ضاق أمر به فرجا
السادسة والسابعة: إصلاح العمل وغفران الذنوب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: 70-71].

الثامنة: محبة الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة، الآية: 4].

التاسعة: الإكرام والإعزاز، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُ﴾ [الحجرات: 13].

العاشرة: التيسير في الأمور، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4].

الحادية عشرة: البشارة بكل خير في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: 63-64].

الثانية عشر: النجاة من النار، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: 72].
الثالثة عشرة: الخلود في الجنة، قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]. فقد ظهر لك أن سعادة الدارين منطوية فيها، فطوبى لمن وفقه الله، وناهيك قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131]. فإن الله أعلم بصلاح عبده من كل أحد، ولو كان في الدنيا خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير من هذه الخصلة لوصى بها.

ولله در ابن الوردي حيث قال: وائق الله فتقوى الله ما
جاورت قلب امرئ إلا وصل

ليس من يقطع طرقا بطلا إنما من يتقي الله البطل
ومن اللطائف أن رجلا كتب إلى صالح بن عبد القدوس:

الموت باب وكل الناس داخله فليت شعري بعد الباب ما الدار فأجابه بقوله:

الدار جنات عدن إن عملت بما يرضي الإله وإن خالفت فالنار هما محلان ما للناس غيرهما فانظر لنفسك ماذا أنت مختار وقد سئل جعفر الصادق عن حقيقة العبودية، فقال: أن يرى العبد لنفسه فيما خوله الله تعالى ملكا، ولا يرى لنفسه تدييرا، وأن يجعل اشتغاله بما أمره الله به، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هانت عليه الدنيا، وكان من المتقين، لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْأْدَارُ الْأَخْرَىٰ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83]. ويلزم أن لا تنظر في عبادتك إلى غناء عنها، فإنه تعالى لو نظر إلى ذلك لم يطلبها منك، بل نظر إلى حاجتك إليها، وكمالك بها، فانظر إلى ما نظره لك، وإلا أفسدت النظام، واستوجبت الملام.

وقال بعض العارفين: من أخرجه الله من ذل المعصية إلى عز التقوى أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس، ومن رضي باليسير من الرزق رضي منه باليسير من العمل، ومن زهد في الدنيا أثبت له الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصره بعيوب الدنيا، وأخرجه منها سالما إلى دار السلام، وما أطف ما قيل:

ولا عيش إلا مع رجال قلوبهم تحن إلى التقوى وترتاح للذكر وروي أن عابدا يقال له همام جاء إلى الإمام علي كرم الله وجهه وقال له: صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم، فقال: هم الذين منقطعهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيمهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، لولا الأجل الذي كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقا إلى ربهم، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، قلوبهم محزونة، وشورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أيام قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة رابحة مع ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافون أقدامهم يرتلون لأجزاء القرآن ترتيلا، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا وتطلعت نفوسهم إليها تشوقا، وإذا مروا بآية فيها تخويف صغوا إليها بمسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير

جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم جاثون على ركبهم يطلبون من الله فكاك رقابهم، وأما النهار فحلما علماء أبرار أتقياء قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، لا يرضون من أعمالهم بالقليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكى أحدهم خاف مما يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بنفسي مني، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون. فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في الدين، وحزنا في لين، وإيمانا في يقين، وحرصا في علم، وعملا في حلم، وقصدا في غنى، وخشوعا في عبادة، وتجملا في فاقة، وصبرا في شدة، وطلبا في حلال، ونشاطا في هدى، وتحرجا عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسى وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، يبيت حذرا، ويصبح فرحا حذرا من الغفلة وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة، إذا استصعبت عليه نفسه فيما يكره لم يعطها سؤلها فيما تحب، قرّة عينه فيما لا يزال، وزهادته فيما لا يبقى، ويمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريبا أمله، قليلا زلّله، خاشعا قلبه، قانعة نفسه، سهلا أمره، حريزا دينه، ميتة شهوته، كظوما غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيدا فحشه، لينا قوله، غائبا منكره، حاضرا معروفه، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض ولا يأثم فيمن يجب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ، ولا يناز بالألقاب، ولا يضر بالجار، ولا يشمت بالمصائب، إن بغى عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة.

فصعق همام صعقة كانت فيها نفسه، فقال علي كرم الله وجهه: أما والله كنت أخافها عليه، ثم قال: هكذا والله تصنع المواعظ البليغة بأهلها.

ثم إن المصنف أضاف العرش إلى الله تعالى، لأنه أعظم المخلوقات، ولا يضاف إلى العظيم إلا العظيم، وهو جسم عظيم نوراني علوي محيط بجميع الأجسام، وفي الحديث: «ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا

كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض وما الجميع في العرش إلا مثل ذلك» وقد خلق الله العرش إظهاراً لقدرته لا مكاناً لذاته. تعالى الله عن ذلك.، وأما قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5] فمعناه استولى عليه بالحكم على حد قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق
فإن المراد استولى عليه بالحكم، أو أن الاستواء على العرش كناية عن الانفراد بالتدبير، كما يقال في ملوكنا: جلس فلان على سرير الملك، بمعنى أنه انفرد بالتدبير والحكم، وقد لا يكون هناك سرير فضلاً عن الجلوس عليه. وقال سيدي محي الدين بن العربي: اعلم يا أخي أن الحق تعالى لما كان هو الملك الأعظم، ولا بد للملك من حضرة معينة يقصده عبده فيها لحوائجه، مع أن ذاته لا تقبل المكان أصلاً، اقتضت المرتبة له تعالى أن يخلق عرشاً، ثم ذكر لعباده أنه استوى عليه، فمن سألَه أجابه نظير قوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة فيقول هل من سائل فأعطيه» إلى آخر الحديث، مع أنه تعالى يسمع دعاء عبده في كل وقت من ليل أو نهار، ولكن الشرع يجري على العرف في كثير من الأحكام تنزلاً لعقول العباد، ولله المثل الأعلى، ولولا تنزله لعقولهم ل بقي أحدهم حائراً لا يدري أين يتوجه إلى سؤال ربه، فإن الله تعالى خلق العبد ذا جهة من أصله فلا يقبل إلا ما كان في جهة ما دام عقله حاكماً عليه، فإذا منّ الله تعالى عليه بالكمال، واندرج نور عقله في نور إيمانه، تكافأت عنده الجهات في جناب الحق تعالى، وتحقق أنه لا يقبل الجهة ولا التحيز، فإنه كان ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان اهـ.

وفي قوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، إرشاد وتنبية للعباد على أن لا يقيدوا الحق بجهة دون جهة، فإن نسبة الفوقية إليه كنسبة التحتية لعدم دخوله في حصر الكون. تعالى الله عن ذلك.، وإنما استحج رفع الأكف إلى السماء وقت الدعاء نظراً لكونها محل تنزلات الرحمات، ولأنها قبله الدعاء، كما أن الكعبة قبله الصلاة، وفي الحديث: «إن الله تعالى احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار وإن الملاء الأعلى يطلبونه كما يطلبونه أنتم».

وإنما قال المصنف (سراً وجهرة) لأن المتقي لو اقتصر على أحد الحالين لم تصح تقواه، فإنه حينئذ يكون سره مخالفاً لنجواه.

ثم صرح بما لا تصح التقوى إلا به فقال: (وحسن مسير في علوم الشريعة)

وهذا من اللوازم العشرة المعبر عنه بالمنهاج، يعني أنه يلزم المريد النظر في علوم الشريعة كالفقه والحديث والتفسير، فإن ذلك يوصل إلى رضا العليم الخبير، وفي الحديث: «من تفقه في دين الله عز وجل كفاه الله تعالى ما أهمله ورزقه من حيث لا يحتسب»، وقال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» وقال ﷺ: «ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين وفقه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه» وقال ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»، وقد أشبعنا الكلام على هذا الحديث في شرح مختصر ابن أبي جمرة فانظره إن شئت. وما ألطف ما قيل في فضل العلم:

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهمو آدم والأم حواء
فإن يكن لهمو من أصلهم نسب يفاخرون به فالطين والماء
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمو على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعيش حيا به أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياء
وقال بعضهم:

العلم مغرس كل فضل فاجتهد أن لا يفوتك فضل ذاك الغرس
واعلم بأن العلم ليس يناله من همه في مطعم أو ملبس
واحرص لتبلغ فيه حظا وافرا واهجر له طيب المنام وغلس
لتعز حتى إن حضرت بمجلس كرمته فيه وصرت صدر المجلس
فإن الخلي من العلوم مقامه عند النعال له صوت الأخرس
وقال آخر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن أمر ألم يحيي بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور
وينبغي لمن أراد تحصيل العلم أن يلاحظ قول الإمام الشافعي رضي الله عنه:
أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان

وإن سئلوا شحوا، لبسوا الثياب على قلوب الذئاب، اتخذوا مساجد الله التي يذكر فيها اسمه لرفع أصواتهم باللغو والجدال والقليل والقال، واتخذوا العلم شبكة يصطادون بها الدنيا، فإياكم ومجالستهم اهـ.

فتخلص يا أخي من هذه الأوحال، وتأمل قول من قال :

العلم نور فلا تهمل مجالسه واعمل جميلا يرى فالفضل في العمل
وقول بعض أهل الإشارات :

تعلم ما استطعت لقصد وجهي فإن العلم من سفن النجاة
وليس العلم في الدنيا بفخر إذا ما حل في غير الثقة
ومن طلب العلوم لغير وجهي بعيد أن تراه من الهداة
والله تعالى يرزقنا التوفيق لأقوم طريق.

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

8 وَعَزَفٌ عَنِ الْأَكْدَارِ وَالْغَيْرِ وَالسَّوَى وَبَذْلٌ وَتَهْذِيبٌ وَإِخْلَاصٌ نِيَّةٌ

أي : ومن الشروط (عزف) بفتح العين المهملة وسكون الزاي آخره فاء، أي : صرف النفس (عن الأكدار) المنغصة التي تحول بين العبد وربّه، يقال : عزف عن الشيء عزفاً، من بابي ضرب وقتل وعزيفا انصرف عنه، ومنه قول بعض العارفين : عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها، والمراد (بالغير والسوى) كل ما يشغل عن عبادة الله تعالى، فيجب عند القوم صرف النفس عن كل شاغل عن الله، على حد قول بعضهم :

وحسب السوى فرض على القوم رفضه وكل كمال في اتباع الفريضة
ومن الشروط (بذل) بفتح الموحدة وسكون المعجمة أي إعطاء عن طيب نفس بقوله ﷺ : «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، والبخیل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى الله تعالى من العالم البخيل».

واعلم أن السخاء أول مراتب البذل، وأعلى منه الجود، لأنه يشعر بزيادة البذل والسرعة إليه، وأعلى منهما الإيثار، فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو

صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود، ومن قاسى الشدائد وقدم غيره عليه فهو صاحب إيثار، كذا أفاده القشيري.

مدح الله أصحاب هذا المقام الأخير بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9] أي: فقر واحتياج لما في أيديهم، ومن كلامهم: أقبح من كل قبيح صوفي شحيح. فاضرع إلى الله في الخروج عن هذا الملام، وقدم ما يقربك لديه زلفى بدار السلام:

وكن باذلاً للمال إن رمت قربه والروح تحظى عنده بوصول
وما ألطف قول بعضهم:

مالك من مالك إلا الذي قدمت فابذل طائعا مالكا
تقول أعمالى ولو فتشوا رأيت أعمالك أعمى لك
ومن الشروط (تهذيب) أي: تنقية عيوب النفس حتى تصير على أكمل الحالات. وهذا إنما يحصل بالتخلق بمحاسن الأخلاق والتجمل بأحسن الرياضات، فإن عيوب النفس جليلة وخفية، والنظر في الجليلة سهل على كل إنسان، وأما النظر في الخفية فلا يصل إليه إلا أهل العرفان، فمنها: الاعتماد على العمل، وإرادة غير ما أقيم فيه العبد، وحب التدبير مع الله تعالى، والاستعجال في الدعاء، والاعتراض عند فوات المراد، وفقد الإخلاص، وحب الشهرة، وإيثار الخلطة، وانطباع الأكوان في مرآة القلب، واسترسال القلب في أودية الغفلة، وقلة المبالاة بالهفوة، وإحالة العمل على الفراغ، والاحتجاب عن الحق برؤية الخلق، والوقوف عندما يبدو من كشف، وغير ذلك. فمن غفل عن تهذيب نفسه كان من الهالكين المتبعين للأهواء ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40-41]. فتأمل يا أخي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَحْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: 28]. وانه بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26]

وهذب هداك الله نفسك كي ترى جميل الرضى والأنس في جنة المأوى
وقوله: (وإخلاص نية) تكرر مع قوله فيما تقدم «حياء وإخلاص» ولعله كرره لشدة الاعتناء به، فإن الإخلاص روح الأعمال، وعليه مدار حسن الأحوال وناهيك قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

[الكهف:110]، وقيل لرسول الله ﷺ: فيم النجاة يا رسول الله؟ فقال: «أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس» وفي الحديث القدسي: «الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي».

وقال ذو النون المصري: ثلاث من علامات الإخلاص؛ استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة.

وقال الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. وفي الحديث: «العالمون هلكى إلا العاملون والعاملون هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم».

وفي هذا المعنى:

خليلي قطاع الفيافي إلى العلا كثير وإن الواصلين قليل
وجوه عليها للقبول علامة وليس على كل الوجوه قبول

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

9	وَصَمْتُ وَتَسْهِدُ وَمَوْتُ بِحُبِّهِ وَتَحْسِينُ أَوْصَافٍ وَتَجْوِيعُ مَعْدَةٍ
---	--

أي: ومن أركان الطريق (وصمت) أي: سكوت إلا عن ذكر الله، لما في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»، وروى عبد الله ابن سفيان عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال: «قل: آمنت بالله ثم استقم» قال: قلت: فما أتقي؟ فأوماً بيده إلى لسانه.

وقال عقبة بن عامر: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك» وقال ﷺ: «من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أنكفل له بالجنة» وقال ﷺ: «التؤدة والرفق والاقتصاد والصمت جزء من ستة وعشرين جزءا من النبوة»

وقال بعض العارفين: قد جمعت مكارم الخصال في أربع وبها صارت الأبدال أبذالا: قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، والاعتزال عن الأنام.

وفي الحديث: «كل كلام ابن آدم عليه لا إلا ثلاثة: أمر بمعروف أو نهي

عن منكر أو ذكر الله تعالى»، وناهيك قوله سبحانه: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: 114].

وقد سئل أبو يزيد البسطامي بأي شيء يصل العبد إلى أعلى الدرجات؟ فقال: بالخرس والعمى والصمم. ومن كلامه: من عرف الله فليس له مع الخلق لذة، ومن عرف الدنيا فليس له في معيشته لذة، ومن انفتحت عين بصيرته بهت ولم يتفرع للكلام.

وسئل بعض الحكماء عن قلة كلامه، فقال: لأن الحق سبحانه إنما خلق لنا أذنين ولسانا لنسمع ضعف ضعف ما نقول لا لنقول أكثر مما نسمع. وللصفي الحلي:

اسمع مخاطبة الجليس ولا تكن عجلاً بنطقك قبل ما تتفهم
لم تعط مع أذنك نطقاً واحداً إلا لتسمع ضعف ما تتكلم
وما ألطف قول بعضهم: إن كان الكلام يهديك، فالسكوت يقيك. يعني: أن الكلام وإن كان نافعا في بعض الأوقات، فالسكوت يقي صاحبه من الوقوع في الهلكات، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح. ومن هذا المعنى قول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم إن الكلام لباب الشر مفتاح
في الصمت عن أحق أو جاهل شرف وفيه أيضا لصون العرض إصلاح
وقال بعضهم:

منع اللسان من الكلام لأنه كهدف البلاء وجالب الآفات
فإذا نطقت فكن لربك ذاكراً لا تنسه واحمده في الحالات
وكان سيدي ماجد الكردي يقول: الصمت عبادة من غير عناء، وزينة من غير حلي، وهيبة من غير سلطان، وحصن من غير سور، وراحة للكاتبين، وغنية عن الاعتذار.

وكان جعفر الصادق يقول: عزت السلامة حتى لقد خفي مطلبها، فإن تكن في شيء فيوشك أن تكون في الخمول، فإن لم يكن فيوشك أن تكون في التخلي، فإن لم يكن فيوشك أن تكون في الصمت، فإن لم يكن فيوشك أن تكون في كلام

الشرف الصالح، والسعيد من وجد في نفسه خلوة، والله الموفق. وما أَلطف قول أبي العتاهية:

إن كان يعجبك السكوت فإنه قد كان يعجب قبلك الأخيارا
ولئن ندمت على سكوتك مرة فلتندمن على الكلام مرارا
إن السكوت سلامة ولربما زرع الكلام عداوة وضارا
ومن الأركان (تسهد) وهو السهد، والسهاد نقيض الرقاد، يعني: أن يكون
المريد من الذين ﴿نَجَافِي جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾
[السجدة: 16] أي: تتباعد جنوبهم عن مواضع الاضطجاع للنوم قياما بحقه تعالى من
العبادة، ليحوز مواهب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
[السجدة: 17].

وقد ورد أن «المتهجد يشفع في أهل بيته»، وورد «ركعتان في جوف الليل
يركعهما ابن آدم خير له من الدنيا وما فيها»، وقال ﷺ: «أتاني جبريل فقال يا محمد
عش ما شئت فإنك ميت وأحب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي
به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس»، وقال ﷺ: «رحم الله امرئ قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها
الماء ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى فإن أبى نضحت
في وجهه الماء»، وورد أن «من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار»، وروي عن معاذ
ابن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة
ويباعدني عن النار. قال: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى
عليه تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج
البيت»، ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال:
«الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف
الليل» ثم تلا ﷺ: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
[السجدة: 16-17]. ثم قال ﷺ: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟»
قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه
الجهاد» ثم قال ﷺ: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله فأخذ

بلسانه، وقال: «كف عليك هذا» قلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال ﷺ: «ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم» اهـ.

وقد أشبعنا الكلام على هذا الحديث في شرح الأربعين النووية فانظره إن شئت.

وورد أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال ﷺ: «أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه»، وروي أنه ﷺ قام الليل حتى تورت قدماه، ولما قيل له: هون على نفسك يا رسول الله ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال ﷺ: «أفلا أكون عبدا شكورا».

وقيل: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود كذب من ادعى محبتي، وإذا جن عليه الليل نام عني، أليس كل حبيب يحب الخلوة بحبيبه.

وقد كانت رابعة العدوية تصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة، وتقول: والله ما أريد بها ثوابا، ولكن ليسر بذلك رسول الله ﷺ ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: انظروا إلى امرأة من أمتي هذا عملها في اليوم واللييلة. ولما مات الجنيد رآه بعض أصحابه في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: طارت تلك الإرشارات، وطاحت تلك العبارات، وغابت تلك العلوم، واندرست تلك الرسوم، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر.

وقال الإمام الشعراني عن شيخه الخواص: قيام الليل عند العارفين كالفرص في الاعتناء به، فمن ادعى مقام العرفان ونام الليل في الأسحار فهو غير صادق. وكان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: من قام بالأسحار، ولزم الاستغفار، كشف الله له الأنوار، وأطلع في قلبه شمس المعاني والأقمار، فيا ولد قلبي اعمل بما قلته لك تكن من المفلحين.

وقال ذو النون المصري: رأيت ببعض سواحل الشام امرأة فقلت: من أين أقبلت؟ قالت: من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فقلت: وأين تريدان؟ قالت: أريد رجلا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فقلت: صفيهم لي، فقالت: قوم همومهمو بالله قد علقتم فما لهم همم تسمو إلى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم يا حسن مطلبهم للواحد الصمد
ومما قيل في الأبرار الذين لازموا القيام بالأسحار:

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهمو وهمو ركوع
أطار الخوف نومهمو فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع
ولبعضهم:

طوبى لمن سهرت في الليل عيناه وبات ذا قلق في حب مولا
وناح يوما على تفريطه وبكى خوفا لما قد جناه من خطايا
وقام يرعى نجوم الليل منفردا خوف الوعيد وعين الله ترعاه
فيا إخوان الصفاء، وأرباب الوفاء:

أطيعوا وجدوا ولا تكسلوا فأنتم إلى ربكم ترجعون
ولا تهجعوا فالأكابر كانوا قليلا من الليل ما يهجعون
وفي الحديث الشريف: «إن في الجنة غرضا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من
ظاهرها أعداها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس
نيام».

وقد ذكر بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا
يَمَسُّهُمْ الشُّوْءُ﴾ [الزمر: 61]: أن العمل الصالح يقول لصاحبه يوم القيامة عند
مشاهدة الأحوال: اركب فطالما ركبتك في الدنيا فيركبه ويتخطى به شدائد القيامة.

"فائدة": روي أن من قال عند نومه: «اللهم لا تؤمنا مكرك، ولا تنسنا
ذكرك، ولا تكشف عنا سترك، ولا تجعلنا من الغافلين، اللهم ابعثنا في أحب
الساعات إليك حتى نذكرك فتذكرنا، ونسألك فتعطينا، وندعوك فتستجيب لنا،
ونستغفرك فتغفر لنا». بعث الله إليه ملكا في أحب الساعات إليه فيوقظه، فإن قام
ودعا استجاب له.

ومن اللطائف أن أنا يزيد البسطامي كان صغيرا في المكتب فلما وصل إلى
سورة المزمّل قال لأبيه: من هذا الذي أمره الله بقيام الليل، فقال: هذا نبينا محمد
ﷺ، وقال: فلم لم تفعل كما فعل محمد ﷺ؟ قال: ذاك أمر شرفه الله به. فلما
قرأ: ﴿وَمَا يَفِيءُ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [الآية: 20] قال له: من هؤلاء يا أبت؟ قال: أصحاب

محمد، قال: فلم لم تفعل كما فعلوا؟ قال: هؤلاء قواهم الله على قيام الليل، فقال: يا أبت لا خير فيمن لا يقتدي بمحمد ﷺ وأصحابه، فصار أبوه يصلي بالليل، فقال: يا أبت علمني صلاة الليل، فمنعه، وقال له: إنك صغير، فقال: إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة وأمر بأهل الجنة إلى الجنة، أقول: يا رب أردت الصلاة بالليل فمنعني أبي، فقال: يا بني قم فصل. اهـ

فاجتهد يا أخي في الوصول إلى مقام الرجال، وتأمل بفكرك الثاقب نصيحة من قال:

يغوص البحر من طلب اللآلي ومن رام العلا سهر الليالي
تروم الوصل ثم تنام ليلا لقد أطمعت نفسك في المحال
ومن الشروط (موت بحبه) وهو الموت الاختياري، بحيث يفنى السالك عن شهوته النفسية، ويخرج عن حظوظه بالكلية. وهو المشار له بقوله ﷺ: «موتوا قبل أن تموتوا» وهو المرتبة الثالثة من قوله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك مع الموتى».

واعلم أن للصوفية أوصافا يعبرون عنها بالموت الأبيض والموت الأصفر والموت الأسود والموت الأحمر؛ فأما الموت الأبيض فيعنون به الجوع، لتنور الباطن به، فإذا كان السالك ممن لا يعرف الشبع بل لا يزال جائعا، فقد مات الأبيض، وحينئذ يحي فطته، فإن البطنة تमित الفطنة.

وأما الموت الأصفر فهو لبس المرقعات، بأن يقتصر على ما يستر العورة مما لا قيمة له، فمن اقتصر في لباسه على هذا القدر فقد مات الموت الأصفر، لا صفرار عيشته بالقناعة، وبعضهم يعبر عن هذا بالموت الأخضر، وحينئذ يحيى بجماله الذاتي المستغني عن التجميل العرضي.

وأما الموت الأسود فهو احتمال أذى الخلق والكف عنه باليد واللسان، فإذا تحقق السالك بالمقام الذي يصير فيه بحيث لا يجد في نفسه حرجا مما يناله من أذى الناس وسبهم وشتمهم، فقد مات الموت الأسود، وحينئذ يحيى بالإمداد من حضرة الجواد، لأنه يصير ممن شاهد أن الكل منه وإليه، فتحقق بإشارة:

وحيث الكل مني لا قبيح وقبح القبح من حيثي جميل
وأما الموت الأحمر فهو مخالفة النفس والهوى، وهذا هو الجهاد الأكبر

المشار له بقوله (لما رجع من قتال الكفار: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» فإنهم قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله، قال: «جهاد النفس»، وورد «المجاهد من جاهد نفسه» وناهيك قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69] فإنه يشمل هذا.

ثم اعلم أن القيامة الصغرى هي حالة الموت الحقيقي الذي هو إزهاق الروح، وإليها الإشارة بقوله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته» فهي أنموذج القيامة الكبرى، لأن الإنسان أرضي مخلوق من التراب، فإن انهدمت بالموت أركان بدنه فقد زلزلت الأرض زلزالها، ويبان ذلك أن عظامه جبال أرضه، ورأسه سماء أرضه، وقلبه شمس أرضه، وسمعه وبصره وسائر حواسه نجوم سمائه، ومفيض العرق من بدنه بحر أرضه، وقس على ذلك، فإذا انفجر من هول الموت عرق جبينه، فقد فجرت البحار تفجيرا، وإذا فارقت الروح قلبه عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا، وإذا بطل سمعه وبصره وسائر حواسه فقد انكدرت النجوم، وإذا التفت الساق بالساق وهما مطيتاه فقد عطلت العشار تعطيلًا، وإذا فارقت الروح الجسد فقد ألفت الأرض ما فيها وتخلت، وإذا صار العظم رميما فقد نسفت الجبال نسفا، وإذا انشق دماغه فقد انشقت السماء شقا، ومعلوم أن أهوال القيامة الكبرى تكون أعظم من أهوال الصغرى بكثير. فيا فوز من استعد لها واجتهد في مرضاة العليم الخبير.

ولما قال الرشيد لابن السماك: عظمي، قال له: احذر أن تقدم على جنة عرضها السموات والأرض وليس لك فيها موضع قدم.

ثم أشار المصنف إلى التخلق بالأخلاق المرضية بقوله: (وتحسين أوصاف) يعني: أن من آداب المرید أن يحسن أوصافه فيكون متحليا بمكارم الأخلاق التي توصله إلى رضا الكريم الخلاق.

وفي الحديث: «ينال الرجل بحسن خلقه درجة الصائم القائم» وقال ﷺ: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا» وقال ﷺ: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»، قال بعض العارفين: علامة حسن الخلق عشر خصال؛ قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب النفس دون عيوب الغير، وطلاقة الوجه للصغير

والكبير، ولطف الكلام مع كل أحد.

وقد عرفوا علم الأخلاق بأنه علم بأصول يعرف بها أنواع الفضائل وكيفية اكتسابها، وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها. وفائدته تخلق الإنسان بالأخلاق المحمودة، وتجنبه للأخلاق المذمومة. وما ألطف ما قيل:

بمكارم الأخلاق كن متخلقا ليفوح مسك ثنائك العطر الشذي
وانفع صديقك إن أردت صداقة وادفع عدوك بالتي فإذا الذي
وروي أن لقمان اختار من حكمه أربعا أوصى بها ولده، فقال له: تذكر اثنتين
وانس اثنتين؛ فأما اللتان أوصاه بتذكرهما فالذنب والموت، وأما اللتان أوصاه
بنسيانهما فأحسانه للناس وإساءتهم عليه. وقد نظم ذلك العلامة الأجهوري فقال:
إذا شئت أن تحيى ودينك سالم وعقلك موفور يزيد ويكمل
فكن معرضا عن كل بر صنعته مع الناس والسوء الذي بك يعمل
وكن ذاكر للذنب والموت تعملن بما اختار لقمان الحكيم المفضل

وكان الإمام علي كرم الله وجهه يترنم بهذه الأبيات:

إن المكارم أخلاق مطهرة فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والجود خامسها والعرف سادسها
والبر سابعها والصبر ثامنها والشكر تاسعها واللين عاشرها
والنفس تعلم أني لا أصدقها ولست أرشد إلا حين أعصيتها
والعين تعلم من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها

وفي الحديث الشريف عنه عليه السلام قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]». ولله در القائل:

خذ العفو وأمر بعرف كما أمرت وأعرض الجاهلين
ولن في الكلام لجمع الأنام فمستحسن من ذوى الجاهلين
ولنا في هذا المعنى:

خذ العفو عن جاهل قد بغى عليك تفز بالمقام الأمين

وبالعرف فأمر وكن محسنا وواصل وأعرض عن الجاهلين
وقال بعض البلغاء: من وصل رحمه، وصل الله رحمه، ومن أجار جاره
أعانه الله وأجاره.

وحسبي من ذل وسوء صنيعه معادة ذي القربى وإن قيل قاطع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه لترجعه يوما إلى الرواجع
ولا يستوي في الحكم عبدان واصل وعبد لأرحام القرابة قاطع
ومن لطائف الاستعطاف، قول بعض أهل الإنصاف:

فلا تحتقر نفسي وأنت خليلها فكل امرئ يصبوا إلى من يشاكل
ومن أركان الطريق: (تجويد معدة) اختيارا لما في الحديث: إذا جاع الرجل
ملاؤه الله قلبه نورا فالجوع هو الأصل في سلوك طريق المقربين، فعليك بملازمته تكن
من المفلحين، فإنه يميت الهوى، ويصفي الفؤاد، ويورث فهم دقائق العلوم التي بها
يبلغ العبد المراد. وقد ورود: «لا ينظر الله إلى جوف ملئ من طعام» ولذا كان النبي
ﷺ وأصحابه لا يأكلون إلا عن فاقة.

ففي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءت فاطمة رضي الله
عنها بكسرة خبز إلى رسول الله ﷺ فقال: «ما هذه الكسرة يا فاطمة؟» قالت: قرص
خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة، فقال: «أما إنه أول طعام دخل فم
أبيك منذ ثلاثة أيام» اهـ.

فتدبر ما تضمنه هذا الخبر من حال تقليل السيد الكامل، وما تحمله لنيل زيادة
الفضائل مع ما منحه الله من الكمالات ومعالي المقامات، فإن السر في كمال
الإنسان والواسطة العظمى في سابق علم الرحمن، لتحقيق ما أنت عليه من التقصير
وذلك منك على خطر خطير، فعسى أن تتأثر نفسك الخبيثة، وتزعج عن عاداتها
الخشيسة، فتتأسى بسيد الكائنات، لتندرج مع أهل السعادات. وما ألطف ما قيل:
فلو كانت الدنيا جزاء لمحسن إذا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة وقد شبع فيها بطون البهائم
وقال بعض العارفين إن هذه النفس في غاية الخساسة والدناءة، ونهاية الجهل
والغباوة، ينبهك إلى ذلك أنها إذا همت بمعصية أو انبعثت الشهوة، فلو تشفعت إليها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. صلى الله عليه وعلى آله، وصحبه، وسلم. أما بعد،

فهذا كتاب «تأثية السلوك إلى ملك الملوك» نضعه بين يديك - أخي المسلم - لما يضم بين دفتيه من مسائل جمة في علم التربية والأخلاق، تلك الأخلاق التي كادت تفقد بالكلية في تعاملات المسلمين فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين ربهم من جهة ثانية.

وقد كان الأصل في هذا الكتاب نظما نسج فرائده العلامة أحمد عرب الشرنوبى⁽¹⁾، بلغ به واحدا وتسعين بيتا، بين فيه بأسلوب بديع ورصين أهم الأصول والأركان واللوازم والشروط والأحوال التي يحتاج إليها المرید للوصول إلى مقام صفاء النفس.

كما أوقف الناظم - رحمه الله - الطالب على ما يلزم توفره في الشيخ المريبي الذي يرشد الطريق، فبين أوصاف من يصلح لهذه المهمة، حتى يتميز عن الدجالين الذين يضلون ولا يهدون.

وأوضح بعد ذلك مجموعة من الآداب التي يجب على المرید أن يتحلى بها مع شيخه، إضافة إلى مسائل أخرى ستقف عليها - أخي القارئ -.

ولما كان لهذا النظم تلك الأهمية، بادر إليه العلامة عبد المجيد الشرنوبى الأزهرى⁽²⁾، فشرح عباراته بأسلوب سهل رشيق ممتع، وحلاه بالشواهد من القرآن

1 - هو أبو العباس أحمد بن عرب بن عثمان الشرنوبى، ولد سنة 931هـ وتوفي سنة 994هـ، له ترجمة مختصرة في شجرة النور الزكية (ص280، برقم 1057)، وانظر له ترجمة وافية بقلم الشارح عند البيت رقم 73.
2 - هو عبد المجيد الشرنوبى الأزهرى، أبو محمد، العلامة المحقق، أخذ عن جملة من علماء الأزهر، له تأليف رزق فيها القبول، منها: في الحديث: «شرح مختصر البخاري لابن أبي جرة» و«شرح الأربعين النووية». وفي الفقه: «منهاج التسهيل على متن خليل»، و«تقريب المعاني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني». وفي اللغة: «إرشاد السالك على ألفية ابن مالك»، وغيرها. كان حيا - رحمه الله - سنة 1340هـ. [انظر شجرة النور الزكية (ص412 رقم الترجمة 1647)].

الكريم، وأحاديث⁽³⁾ سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وما أثر من دُرَرٍ عن بعض الصالحين وأهل العلم، فصار هذا الشرح بذلك لبنة مشيدة في علم الأخلاق تضيء الطريق لكل من رام طهارة النفس، وصفاء القلب، والتمتع بجنة التسليم والرضا لله رب العالمين.

ولقد كان لنا شرف تصحيحه والاعتناء به، وإخراجه في حلة تليق به، إسهاما منا في إحياء هذا التراث المنسي الذي يزخر بالنفائس.

هذا، وإننا لا ندعي الكمال في هذا التصحيح والاعتناء، وإنما هو جهد المقل، نرجوا به وجه رب كريم يوم لقائه، ونسأله جل وعلا أن ينفع به، إنه على ما يشاء قدير، والحمد لله رب العالمين وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

3 - وهذه الأحاديث التي أتى بها الشارح رحمه الله، فيها الصحيح والحسن والضعيف، بل والموضوع، وأغلب هذه الموضوعات كان يصدرها بعبارة: «ورد» أو «روي» وغيرها من عبارات الإيهام والتمريض، فلتكن على بينة أخي القارئ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي سلك بأحبابه سواء السبيل، ووفقهم لمرضاته فنالوا الجزاء
الجزيل، والصلاة والسلام على الواسطة العظمى لنا في كل نعمة، سيدنا محمد الذي
أرسله الله لجميع العالمين رحمة، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه وجميع التابعين.
وبعد،

فيقول الفقير إلى مولاه الغني، عبد المجيد الشرنوبي الأزهري، بَلَّغَهُ الله
الآمال، وألطف به جميع الأحوال: لَمَّا كَانَ علم التصوف مما يصفني الفؤاد،
ويوصل السالك بالجد إلى بلوغ المراد، وكان من أجمل ما أَلَفَ فيه هذه التأثية
الفريدة، التي هي بابها بديعة وحيدة، نسيجة قطب الوجود، وعمدتي في
خطوبي، سيدي وسندي السيد أحمد عرب الشرنوبي، بادرت إلى ارتشاف حميا
كأسها الشهي، وطفقت أنظم لؤلؤا في جيدها البهي، ليكون ذلك شرحا بديع
المثال، مفصلا لتلك الدراري التي نسجت على أحسن منوال، ملتقطة تلك اللآلئ
البهية، من بحار السادة الأعلام، ذوي الكؤوس الوفية، فإني خادم أعتابهم، وتراب
أقدامهم.

وللأرض من كأس الكرام نصيب

وأنا أسأل الله وأتوجه إليه، وأتوسل بأكمل الرسل لديه، أن يوفقنا لما يحبه
ويرضاه، ويرشدنا لما يبلغ كل أحد منا مناه، وها أنا أشرع في المقصود بعون العلي
العظيم، فأقول:

قال المصنف رضي الله عنه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ابتدأ بها اقتداء بمنزل الكتاب العزيز لما في الحديث الشريف: « تخلقوا
بأخلاق الله » أي: بالأخلاق التي يليق للبشر التخلق بها كالحلم والكرم، والبدء بما

بدأ به كتابه ونحو ذلك، ومعلوم أن كتابه سبحانه مبتدأ بها أعني بعد ترتيبه وجمعه، أو باعتبار ما في اللوح المحفوظ فلا يرد أنها ليست أول ما أنزل. قال بعض العارفين: ولما كانت الأسماء الإلهية سبب وجود العالم، كانت البسملة خير ابتداء، فكأنه يقول: بسم الله الرحمن الرحيم ظهر العالم، فهي بيان لافتتاح الإيجاد، والدخول إلى بيت الوجود بحسب الاستعداد اهـ.

ومعنى الباء الإشاري: بي كان ما كان وبي يكون ما يكون. ولذا قال بعض العارفين: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الباء مكتوبة عليه. بمعنى: بي قام كل شيء. وإنما بُدئت البسملة بالباء إشارة إلى أنه لا يتقدم إلى حضرته تعالى إلا أهل الانكسار، فإن الباء لما بنيت على الكسر وعملت الجر فيما بعدها صار لها الرفع والتقدم، على حد ما يؤخذ بالإشارة من قول الإمام ابن الفارض:

ولو كنت بي من نقطة الباء خفضة رفعت إلى ما لم تنله بحيلة

وإنما طوّلا «الباء» في «بسم الله» تعظيماً للحرف الذي بدئ كتاب الله به، وإشارة إلى أن من تواضع لله رفعه، وحذفوا ألف «اسم» من «بسم الله» وأثبتوها في نحو: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق، الآية: 1] لكثرة استعمال البسملة، وكثرة الاستعمال تقتضي الخفة.

ولفظ الجلالة علم على الذات الواجب الوجود، الواسع الكرم والجود، وهو اسم الله الأعظم عند الجمهور، وتختلف الإجابة عند الدعاء لتختلف شروطها التي منها أكل الحلال كما هو مشهور، أو أن الله تعالى ربما أخرج الإجابة عند الدعاء به للوقت الذي يريده هو لا للوقت الذي يريده الداعي، وفي الحديث الشريف: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» إذا علمت ذلك فلا تقع عند تأخر الإجابة في اليأس من القبول، وتدبر ما ترنمت به نسيمات القبول:

لا تيأسن وإن طال الصدود فقد تجفئ أناس وهم في السر أحباب
فإذا دعوت أو توهمت أو سمعت «لا»، فلا تكن ممن أعرض وسلا، بل علق رجاءك بمولاك فإنه يبلغك منك، وتأمل قول من قال من أهل الأحوال:
أستشعر اليأس في لائم يطمعني إشارة في اعتناق اللام بالألف

هذا وقد قال بعض العارفين بعد قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة»: اعلم أن المسمى واحد وأسماءه كثيرة، سمي بها نفسه ليتسع مجال الداعين بها فهي للداعين كالأبواب والطرق الموصلة للمقصود ولا شك أن بعض أسمائه تعالى أقرب للوصول من بعض، لأن مسالكها تختلف باختلاف السالكين، فرب دعاء ببعض الأسماء يصلح لشخص دون آخر، ورب دعاء باسم يكون قريبا جدا لمن جد في خاصيته دون من فتر عنه اهـ.

واعلم أن الذكر والدعاء بالأسماء على وجهين:

الأول: أن يكون بحرف النداء، بأن تقول: «يا الله».

والثاني: بإسقاطه بأن تقول: «الله الله».

ثم إنه ينبغي للداعي أن يستحضر المدعو بقلبه، وأن يذكر اسمه على أحسن كيفية، وهو كونه على طهارة كاملة مستقبل القبلة جالسا مثل جلوسه في الصلاة مائلا نحو القبلة برأسه، فإذا قال: «الله» فينبغي أن يفتح الهمزة ويمد اللام ويسكن الهاء، وإلا لم يستفد جميع الخصائص، ومن أكثر من ذكر هذا الاسم على هذه الكيفية في خلوة، كان له في العالم الروحاني والجسماني تصريف عجيب، وأمر غريب، ومن تقيد به سبعة أيام بصيام، وأكثر من ذكره في خلوة، صار مجاب الدعوة مطاعا للروحانيين، فهو كما قال بعض العارفين:

اسم إذا قرع القلوب تمايلت	طربا وتمت بالتقى أسرارها
وإذا حدا الحادي بطيب حديثه	طابت وفاحت بالرضا أزهارها
ترتاح إن ذكر اسمه ويهزها	طربا إذا حفت به أوكارها
وإذا ابتدأت بذكر في حضرة	حضر السرور بها وطاب مزارها
وما ألطف قول ابن العربي:	

غن لي باسم من أحب وخلي	كل من في الوجود يرمي بسهمه
لا أبالي وإن أصاب فؤادي	إنه لا يضر شيء مع اسمه

ثم اعلم أن السر المصون في الدعاء بالأسماء، أن تأخذ عدد حروف الاسم بالجمل، وعدد صورته الرقمية التي يرسم بها، ثم تدعوه بعد ذلك.

مثال ذلك اسمه تعالى «الله» فإنه أربعة أحرف، وعدده بالجمل ستة وستون،

فيكون مجموع ذلك سبعين، فتستغيث به سبعين مرة، ثم تسأل حاجتك، ثم تذكره أيضاً بعدد اسم الحاجة، ويكون ذلك بجمع همة وإخلاص، فإنه يستجاب لك في الحين.

(وَالرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) صفتان لله مشتقتان من الرحمة، والمراد منها هنا الإحسان أو إرادته، وإنما حذفوا ألف «رحمن» لكثرة الاستعمال، ومعناه: المنعم بجلال النعم، أي: النعم الجليلة. وأما «رحيم» فمعناه: المنعم بدقائق النعم، أي: النعم الدقيقة. وذكر «الرحيم» بعد «الرحمن» إشارة إلى أنه كما يطلب منه الجليل يطلب منه الحقير لما في الحديث القدسي: «يا موسى سلني في ملح قدرك وشراك نعلك» فهو من باب التتميم وليس من باب الترقى، حتى يرد أن القياس يقتضي الترقى من الأدنى للأعلى كعالم تحرير دون العكس كما هنا.

واعلم أنه سبحانه أرحم بعبده من الوالدة بولدها، فلا يصدر عنه تعالى إلا ما هو خير بالنسبة لاستعداد كل شخص لما يليق به. والمحن الدنيوية ربما كانت في الحقيقة منحة سنية، فلا يقال بعد هذا إن مقتضى اسمه رحيم أن لا يكون شيء من الأمراض والعلل، لأنك قد علمت خيرية ذلك باعتبار بلوغ الأمل، ولذا قال الإمام الجيلي:

تلذ لي الآلام مذ أنت مسقمي وإن تمنحني فهي عندي صنائع
فقد تلذذ بالآلام، وعدّها من الصنائع، أي: العطايا باعتبار ما يعقبها من بلوغ المرام، ومن ذلك قول الإمام ابن الفارض:

وكل أذى في الحب منك إذا بدا جعلت له شكري مكان شكايتي
وما حل بي من محنة فهو منحة وقد سلمت من حل عقد عزيمتي
يعني أن كل ما أتاني من جنابك فهو عين المنح والمنن، وإن ظهر في صورة البلايا والمحن...

ثم إن حظ العبد من التخلق باسمه تعالى الرحمن، أن يصرف عباده الغافلين عن طريق الغفلة بالوعظ والنصح رحمة بهم، ويكون ذلك بطريق اللطف لا بطريق العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الازدراء، وأن تكون كل مصيبة تجري في العالم كمصيبة له في نفسه فلا يألو جهداً في إزالتها، وحظه من التخلق باسمه تعالى الرحيم أن لا يدع فاقة لمحتاج إلا سدها بقدر طاقته، وأن يبذل جاهه

وماله لمن استعان به فإن لم يقدر فيعينه بالدعاء والتضرع رافة به :

فإنما يرحم الرحمن من رحما

ويرحم الله القائل :

ارحم بني جميع الخلق كلهم وانظر إليهم بعين اللطف والشفقة
وقر كبيرهم وارحم صغيرهم وراع في كل خلق حق من خلقه
وقد بدأ المصنف رضي الله عنه منظومته بالبسملة لكونها من الشعر النافع،
وأما الشعر غير المحتوي على علم أو وعظ فلا يجوز بدؤه بها. وفي البسملة فوائد
لا تحصى، وأسرار لا تستقصى، فقد ورد مرفوعا: «إذا وقعت في ورطة»، أي: شدة
فقل: «بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» فإن الله
تعالى يصرف بهما ما شاء من أنواع البلاء، وروي عن النبي ﷺ أنه قال لمن قال
تعوذ بالرحمن الرحيم: «لا تقل ذلك فإنه يتعاضم عنده ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم
فإنه يصغر حتى يصير أقل من الذباب»، وروي أنها لما نزلت اهتزت لهيبتها الجبال،
وقال سيدي أحمد الدمهوري في شفاء الظمان: من قرأ البسملة في وجه ظالم
خمسین مرة أذله الله، ومن قرأها عند النوم إحدى وعشرين مرة آمنه الله في تلك
الليلة من الشيطان الرجيم، ومن السرقة، ومن فجأة الموت، ويدفع عنه البلاء.

ونقل العارف الشعراني في طبقاته عن سيدي محمد أبي المواهب الشاذلي أنه
قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: قل عند النوم: أعوذ بالله من الشيطان
الرجيم خمساً، وبسم الله الرحمن الرحيم خمساً، ثم قل: اللهم بحق محمد أرني
وجه محمد ﷺ حالا ومآلاً فإنك إذا قلت ذلك تراني في المنام ولا أتخلف عنك
والكلام على البسملة كثير، ويكفي التبرك بهذا النزر اليسير، ولعل المصنف
اكتفى بها عن الحمد لما فيها من الثناء على الله تعالى، أو أنه أتى بالحمد والصلاة
على النبي ﷺ لفظاً وترك ذلك خطأ رعاية للاختصار.

مقدمة: نذكر فيها حد علم التصوف وموضوعه وفائده ليكون الشارع فيه على
بصيرة.

فحده: علم يعرف كيفية تصفية الباطن من عيوب النفس وصفاتها المذمومة
كالحقد والحسد والغش والغل وطلب العلو وحب الثناء والكبر والرياء والغضب

والأنفة والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء ونحو ذلك، فالتصوف هو التخلي عن الرذائل والتحلي بأنواع الفضائل، ويقال: «هو حفظ حواسك، ومراعاة أنفاسك». ويقال «هو الإكباب على العمل، والإعراض عن العلل». ويقال: «هو استعمال الوقت فيما هو أولى به» ولذا قالوا: «الصوفي ابن وقته» وما ألطف قول ابن الفارض:

وكن صارما كالوقت فالمقت في عمى وإياك على فهي أخطر علة
وقال الجنيد: «التصوف أن يملك الحق عنك ويحييك به» يعني أن يملكك
عن نظرك لنفسك ويحييك بذكره ومناجاته، وهذا أكمل درجات التصوف،
والصحيح أنه إنما يدرك بالذوق، لقول العارف الشعراني في طبقاته: «التصوف عبارة
عن علم انقذح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة فكل من
عمل بهما انقذح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها اهـ.
ولذا قال بعضهم:

علم التصوف علم ليس يدركه إلا أخو فطنة بالحق معروف
وكيف يعرفه من ليس يشهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف
ومبناه على التمسك بآداب الشريعة، والتباعد عن الشبهات، وحفظ
الحواس، وعد الأنفاس للتحرز من الغفلات.

وموضوعه: أفعال القلب والحواس من حيث التزكية والتصفية.

وفائدته: إصلاح الإنسان ظاهرا وباطنا، فإن الصوفي «من تصفى من الكدر
وامتلا من العبر، وانقطع لعبادة ربه عن البشر، واستوى عنده الذهب والمدر». وليس
كمن قيل فيه، من بعض واصفيه:

لبست مرقعا صوفا وقلتا أنا الصوفي ليس كما زعمتا
والصوفية مقتدون في الزهد في الدنيا والانقطاع للعبادة بأهل الصفة رصي الله
عنهم، وهي سقيفة اتخذها فقراء الصحابة في مسجد رسول الله ﷺ، فهم منسوبون
للصفة، فأصل صوفي صفي فأبدل أحد حرفي التضعيف لينا، وقيل: نسبة للصوف
لكونهم اختاروا لبسه زهدا في الدنيا. وقيل: إن الصوفي مشتق من الصفاء ففيه
قلب، وعليه قول بعضهم:

ليس التصوف لبس الصوف ترقرعه ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
 ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا اضطراب كأن قد صرت مجنونا
 بل التصوف أن تصفو بلا كدر وتتبع الحق والقرآن والدنيا
 وأن ترى خاشعا لله مكتئبا على ذنوبك طول الدهر محزونا
 وقول بعضهم:

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى سمي الصوفي
 واعلم أن طريق الصوفية هي طريق الأبرار، ولم تزل عند سلف الأمة وكبارها
 من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية. وأصلها العكوف على
 العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، فلما فشا الإقبال
 على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص
 المقبلون على العبادة باسم الصوفية، فلما كتبت العلوم ودونت، وألف الفقهاء في
 الفقه وأصوله والتوحيد والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطائفة في
 طريقته، فمنهم من كتب في أحكام الورع ومحاسبة النفس في الأخذ والترك،
 ومنهم من كتب في آداب الطريق، ومنهم من جمع بين ذلك، وهذا العلم وهو علم
 الوراثة المشار إليه بخبر: « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .
 وقد بنى المصنف رضي الله عنه قصيدته على أصول، تضمن للمريد قرب
 الوصول، فهي جديرة بتسميتها: «تائية السلوك إلى ملك الملوك»، فقال:

[أصول الطريق وشروطه وأركانه . . .]

1	أَصُولُ طَرِيقِ الْقَوْمِ أَهْلُ الْحَقِيقَةِ	هُدَاةُ الْوَرَى الْمَهْدِينَ مِنْ خَيْرِ مِلَّةٍ
2	طَهَارَةُ أَنْفَاسٍ وَصِدْقُ مَوَدَّةٍ	وَحِذْقُ وَادَابٍ وَتَجْرِيدُ هِمَّةٍ

أقول: (أصول) جمع أصل بمعنى الأساس الذي ينبنى عليه غيره. وقد أراد المصنف بالأصول في هذه المنظومة ما يشمل الأركان واللوازم والشروط والأحوال، فإن الأصول عندهم ثلاثة عشر: التوبة، والخوف، والرجاء، والحزن، والقناعة، والزهد، والورع، والتوكل، والصبر، والشكر، وجهاد النفس، والرضا بالقضاء، وترك العباد أي: ترك الالتفات لأحوالهم ولو مع الخلطة بهم ليحصل التغير بينه وبين العزلة التي هي ركن من الأركان الأربعة المجموعة في قول بعضهم:

بيت الولاية قسمت أركانه ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم والجوع والسهر النزيه الغالي
واللوازم التي لا بد منها لمريد السفر لاسيما لمريد سفر الآخرة عشرة:

المقصد: وهو الباعث على السفر. والدليل: وهو الشيخ. والزاد: وهو التقوى. والسلاح: وهو الوضوء. والسراج: وهو الذكر. والمطية: وهي الهمة القوية. والعكاز: وهو العجز. والحزام: وهو الحزم. والمنهاج: وهو الشريعة. والرفقة: وهم إخوان الصدق. وما عدا ذلك فهو من الشروط والأحوال، وسأبين ذلك كله عند كل بيت إن شاء الله تعالى.

والشروط عندهم كثيرة وتارة يعبرون عنها بالآداب، فمنها: دوام المراقبة، والموت الاختياري، ومحاسبة النفس، وملازمة الشيخ، ومداومة الذكر والأوراد، وحل ما به الانتفاع من الأكل ونحوه، والاقتصاد فيه، وترك الافتخار بالعلم والجاه والنسب، والغربة إما بالجسم أو بالقلب، وحسن الأخلاق، والوفاء بالوعد، وحفظ القلب، من موجبات الجفاء، والرفق في كل الأمور، والكرم والعفو عن أساء أو ظلم، والتأني في الأمور، وكظم الغيظ، والحلم، والخشوع، والصدق، والخضوع، وتصفية الباطن من الحقد والحسد والغرور والبغضاء، وذل النفس لا عن منقصة، والرحمة للمخلوقين والأدب معهم، ومن أكد الشروط اجتناب

الأحداث وأصحاب النفوس، وترك الخلطة بالإناث، وعدم استبطاء الفتح، وعدم الانتصار للنفس ولو بحق، وترك سماع مدح مادحه ولو بصدق، وأن لا يحزن على ما فات ولا يفرح بما يأتي من أمور الدنيا، وعدم اتباع الهوى، وترك الجدل والمراء، والرضا بالقضاء، والحمد لله على كل حال.

ثم إن (الطريق) يذكر ويؤنث، ويجمع على طرق بضميتين، وهو مرادف للسبيل، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]. و(القوم) هم الذين يقومون بالأمر حق القيام ووصفهم بقوله: (أهل الحقيقة) وهي عند أهل الحق سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه عند مشاهدة أنه الفاعل لا أنت، ومعلوم أن الحقيقة لا تكون إلا بعد الاعتراف من عين الشريعة، فإن الحقيقة نتائج العلوم. وبها ترجم المتحقق عن الأسرار التي لا تحيط بها الفهم، على حد قول بعض العارفين:

يارب جوهر علم لو أبوح به لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا
فإن سر الحقيقة تقصر العبارة عن أدائه، فكل عبارة تقربه للذهن من وجه تبعده عنه من وجوه، على حد ما قيل:

كلما أقبل فكري فيك شبرا فر ميلا
فالحقيقة هي العلوم الباطنية، وقد روي أنه ﷺ أوحى إليه ثلاثه علوم علم أمره الله بإفشائه وهو علم الأحكام، وعلم خيره الله فيه وهو علم الأسرار، وعلم أمره بكتمه إلا عن بعض خواصه وهو علم سر القدر الذي قال فيه ابن العربي: إن سر القدر لم يطلع الله عليه نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا إلا نبينا محمدا ﷺ وقد أطلعني الله عليه بطريق الوراثة المحمدية. وفي الحديث: «علم الباطن سر من أسرار الله تعالى يقذفه في قلب من يشاء من عباده»، ولهذا استعمل الصوفية الرموز والإشارات ليصونوا الأسرار عن غير أهلها، كما قال بعضهم:

ألا إن الرموز دليل صدق على المعني المغيب في الفؤاد
وكل العارفين لها رموز وألغاز تدق على الأعادي
ويقال: الشريعة أمر للعبد بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية عند التحقق بمقام الإحسان المشار إليه في خبر: «أن تعبد الله كأنك تراه»، والطريقة هي

سلوك طريق الشريعة مع العمل بالأحوط وعدم تتبع الرخص، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة إنشاء عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبد، والحقيقة أن تشهد، فقولك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حفظ الشريعة، ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاحة: 6] إقرار بالحقيقة، فبطون الحقيقة في الشريعة والطريقة كبطون الزبد في اللبن لا يظهر بدون مخضه، والمراد من الثلاثة إقامة العبودية على الوجه المراد من العبد، وإنما وقعت التفرقة بيت الحقيقة والشريعة بالنظر للغلبة في حال العابد والعارف، فإن العابد لما كان يغلب عليه الوقوف مع الأعمال وإتقانها وإخلاصها سمي صاحب شريعة، ولما كان العارف يغلب عليه حال الحق ويرى أن جميع ما هو فيه من فضله سمي صاحب حقيقة.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: «العلم كله مجموع في حرفين، أن تعرف العبودية وتعبد فممن فعل ذلك فقد أدرك الشريعة والحقيقة، ثم قال: فالشريعة هي الشجرة، والحقيقة هي الثمرة» اهـ.

وكان سيدي داود الشاذلي يقول: «جلت الحقيقة أن تكون البشرية محلا لتلقيها، ولكن إذا أراد أن يوصلها إليك، انبسط شعاع سلطانها عليك، فمهد في قلبك محلا لتلقيها فيها وجدتها لا بك على حد ما قيل:

أعارته طرفا رآها به فكان البصير بها طرفها
إذا علمت أن الحقيقة ثمرة الشريعة بل هي عينها في الحقيقة على ما قاله
السادة الأخيار، فشم رائحة للشريعة قبل ادعاء الحقيقة تكن من أهل الاستبصار.

وإن كنت مزكوما فليس بلائق حقا لك هذا المسك ليس بفائح
ثم إن المصنف وصف القوم أيضا بقوله: (هداة الوري) جمع هاد من الهداية بمعنى الدلالة، إذ هم الذين دلوا الوري. أي: الخلق. على ما فيه صلاحهم الدنيوي والأخروي بتهديب النفوس وغبر ذلك، وإنما وصفهم بعد ذلك بقوله: (المهدين) أي: الذين هداهم الله، لأن الهادي إذا لم يكن مهتديا في نفسه لم يصلح لهداية غيره، بل يكون جديرا بدخوله في تهديد وعيد قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِثْرِ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 44] وحرى بأن ينادي عليه بقوله القائل:

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذي السقام وذو الضنا كيما يصح به وأنت سقيم
 ابدأ بنفسك فانها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
 فهناك يسمع ما تقول ويشتفى بالقول منك وينفع التعليم
 لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
 وقد خرج بعض العارفين لمجلسه الذي يعظ الناس فيه فسكت طويلا ثم قال
 زاجرا لنفسه:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو مريض
 وقوله: (من خير ملة) أي: الذين هداهم الله واجتباهم من خير ملة وهي ملة
 الإسلام التي قال الله في أهلها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
 وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

وقوله: (طهارة أنفاس) وما عطف عليه خبر المبتدأ الذي هو «أصول»، وإنما
 بدأ بطهارة الأنفاس لأنها مفتاح الوصول إلى مراتب السعادة. كما أن طهارة الظاهر
 مفتاح للعبارة، وهي عبارة عن التخلص من الذنوب والغفلات، والتباعد عما لا
 يرضي باري الأرض والسموات، فلا تستميل من تلبس بهذه الطهارة شهوة عن
 خدمة مولاه، ولا يجره الحقد والحسد إلى اتباع شيطانه وهواه، فتكون أنفاسه طاهرة
 نقية لصفاء باطنه من الكدورات النفسية. ومتى تنزه الباطن عن ذلك تطهر منه
 الأنفاس، بل تطهر جميع جوارحه من أدناس الوسواس الخناس الذي يوسوس في
 صدور الناس. ولا تتحقق الطهارة إلا بالتوبة النصوح التي هي أصل الأصول، وباب
 الأبواب الذي يكون منه الوصول.

ثم ثنى بقوله: (وصدق مودة) يعني: أن من شروط طريق المقربين أن يكون
 المريد صادقا في المودة لكل الناس لا فرق عنده بين الغريب والبعيد، لما في
 الحديث: «من نظر إلى أخيه نظرة ود غفر له» وينبغي أن يكون صادقا في معاملة
 مولاه، بوجود سر الإخلاص فيما يحبه ويرضاه، ليدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96] وما ألطف قول بعض
 العارفين:

تحن قلوب العاشقين إلى الود كما حن ظمآن الهجير إلى الورد
 وتشتاق أرواح المحبين للقا كشوق كثيب هائم زائد الوجد

وقال بعضهم:

قف بباب الحبيب ليلا وناده وتشكى من هجره وبعاده
وعلى الباب عفر الخد ذلا ولتكن حافظا قديم وداده
ثم قل طالت القطيعة والهجر ر وجفني لم يكتحل برقاده
فالحبيب الذي ترجيه أضحي جوده فائضا على قصاده
ومن شروط الطريق أيضا (حذق) بكسر الحاء المهملة وسكون الذال المعجمة
آخره قاف، يقال حذق الرجل في صنعة. من بابي ضرب وتعب. حذقا مهر فيها أو
عرف غوامضها ودقائقها، والمراد أن معرفة الحقائق على الوجه الأتم من شروط
الطريق.

وكذلك من شروطها (آداب) بالمد جمع أدب، والمراد تأديب نفس المرید
ظاهرا وباطنا بامثال الأمور، واجتناب المنهيات. فإن الأدب الأخذ بمكارم
الأخلاق الموصلة إلى الكريم الخلاق، وهو منحصر في خمسة أشياء: حفظ المرید
الحرمة مع الله، وشكر النعمة التي أنعم بها عليه مولاه، وعلو الهمة بحيث لا يكون
له تعلق بشيء من النقائص، وحسن الخدمة بلزوم الاتباع وترك الابتداع ونفوذ
العزيمة بحيث لا يتراخى في محل التشمير، ولا يركن لموطن التقصير، وهو مبني
على خالص التوحيد. فالأدب اسم جامع لحقائق الخيرات، وأنواع المبرات،
ويختلف باختلاف همم المتأديبين، فهو بالنسبة للمريدين رياضة النفوس بنور
المتابعات، وتأديب الجوارح بحفظ الحدود وترك الشبهات، وبالنسبة لأهل الحقائق
العارفين ممن ترقى هممتهم عن العالمين، اشتغالهم بطهارة القلوب ومراعاة السرائر،
حتى يكشفوا عما أكمته الضمائر.

وقيل للحسن البصري: قد أكثر الناس في علم الآداب فما أنفعها عاجلا
وأوصلها آجلا؟ فقال: التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله تعالى
عليك.

وكان بعض العارفين يقول: من لم يعرف ما لله عز وجل، وما للخلق عليه
في نفسه من الحقوق التي لزمته، ولم يتأدب مع الله ومع خلقه بأمره ونهيه، كان من
الأدب في عزلة.

وقال بعضهم: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم، ومراده

أن الأدب القليل مع الحق تعالى وعموم الخلق أنفع من العلم الكثير المجرد عن الأدب المذكور.

وكان أبو نصر الطوسي يقول: الناس في الأدب على ثلاث طبقات: أما أهل الدنيا فأكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب، أما أهل الدين فأكثر آدابهم في رياضة النفوس، وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود، وترك الشهوات، وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر.

وقال بعض العارفين: قد أكثر الناس الكلام في الأدب، ونحن نقول: «هو معرفة النفس بعجزها وافتقارها إلى ربها، فإن من عرف نفسه بالعجز والافتقار فقد عرف ربه بالغنى والافتقار، ومن عرف نفسه وربه بما ذكر تأدب في طاعته».

ويقال: ثلاث خصال ليس معهن غربة؛ حسن الأدب، وطيب الأخلاق، واجتناب كل أمر فيه ريبة، وجمعها بعضهم في قوله:

يزين الغريب إذا ما اغترب ثلاث فمنهن حسن الأدب
وثانية طيب أخلاقه ويختمهن اجتناب الريب
لا سيما إذا انضم إلى ذلك حسن مداراة الناس لما في الحديث «أمرت بالمداراة» .

ومن الحكم النواغب:

ودارهم ما دمت في دراهم وارضهم ما دمت في أرضهم
وما ألطف قول بعضهم:

ما دمت حيا فدار الناس كلهم فإنما أنت في دار المداراة
من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى عما قليل نديما للندامات

واعلم أن حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن، لما في الحديث: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه» فإذا تعمّر قلب العبد بالمراقبة لله تعالى وتأدب بالآداب الشرعية تبعته الجوارح.

وقال السهروردي في عوارف المعارف: بالأدب يفهم العلم وبالعلم يصح العمل وبالعمل تنال الحكمة.

وقال أبو يزيد البسطامي: مددت ليلة رجلي في محرابي فهتف بي هاتف: من يجالس الملوك ينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب. قال: فما مددت رجلي بعد ذلك. وقال السيد الشريف: يريدون بالأدب أدب الشريعة، ووقتاً أدب الخدمة، ووقتاً أدب الحق. فأدب الشريعة الوقوف عند رسومها، وأدب الخدمة الفناء عن رؤيتها مع المبالغة فيها، وأدب الحق أن تعرف ما لك وما له اهـ.

ومن جوامع الآداب ما كتبه بعض العارفين إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد؛ فخف مما خوفك الله، واحذر مما حذرك الله، وخذ مما في يديك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين، والسلام.

وكتب إليه أيضاً: أما بعد؛ فإن الهول أعظم والأمور المفطعات أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب، واعلم أن من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف أمن، ومن أمن اعتبر، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك، فتمسك بهذه الآداب إن أردت أن تكون من جملة الأحباب.

ومن اللوازم (تجريد همة) يعني: أن تكون همة المريد وهي الاهتمام بالشيء مجردة لما يقربه لمولاه، فلا يهتم إلى بما يحبه سيده ويرضاه.

قال السيد الشريف: الهمة توجه القلب. وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال أو لغيره.

وسئل سيدي عبد القادر الجيلي عن الهمة فقال: هي أن يتعزى العبر بنفسه عن حب الدنيا، وبروحه عن التعلق بالعقبى، ويقلبه عن إرادته مع إرادة المولى، ويتجرد بسره عن أن يلمح الكون أو يخطر على سره.

ثم قال المصنف رضي الله عنه عاطفاً على ما تقدم بتقدير حرف العطف:

3 | حَيَاءٌ وَإِخْلَاصٌ ذَكَاءٌ وَفِطْنَةٌ كَذَا الْوَرَعُ الْمَحْمُودُ فِي كُلِّ شَرْعَةٍ |

أي: ومن شروط الطريق (حياء) بالمد وهو خلق يبعث على ترك القبيح، وفعل المليح. ويقال: هو ما يمنعك عما يضرّك، وفي الحديث: «الحياة خير كله لا

بالله سبحانه ثم برسله وجميع أوليائه وعرضت عليها الموت والقبر والقيامة لا تكاد تعطي القياد، ولا تترك الشهوة والعناد، ثم إن منعتها رغيفا سكنت وذلت بعد الصعوبة والجماح، ولانت وانقادت إلى طريق الفلاح، فعليك بهذا العلاج، فإنه أعظم منهاج. ولله در القائل:

ومن البلاء وللبلاء علامة أن لا يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها والحر يشبع تارة ويجوع
وفي الحديث الشريف عنه ﷺ قال: «لا تमितوا القلب بالطعام والشراب فإن القلب كالزراع يموت إذا كثر عليه الماء». وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال:

يميت الطعام القلب إن زاد كثرة كزرع إذا بالماء قد زاد سقيه
وإن لبيا يرضى نقص عقله بأكل لقيمات لقد ضل سعيه
وقد انتهى الحال بالإمام البخاري إلى أن صار يأكل كل يوم تمر، أو لوزتين، ورعا وحياء من الله تعالى في ترده إلى الخلاء. وقيل لما خلق الله الخلق جعل العلم والحكمة في الجوع، وجعل الجهل والمعصية في الشبع، وفي الحديث: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع» وذلك لأن الجوع ينقص دم القلب ويبيضه، وفي بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد، وفي ذوبانه رفته، ورقته مفتاح المكاشفة، كما أن قساوته سبب الحجاب، ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدو، فإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات. وما أطف قول الإمام النووي:

دواء قلبك خمس عند قسوته قدم عليها تفز بالخير والظفر
إخلاء بطن وقرآن تدبره كذا تضرع باك ساعة السحر
كذا قيامك جنح الليل أوسطه وأن تجالس أهل الخير والخبر
وقال سيدي إبراهيم الدسوقي: قوت المريد الصادق الجوع، وشرابه الدموع، وأما من شبع ونام، ولغى في الكلام، وترخص وقال: ما على ذلك ملام، فإنه لا يجيء منه شيء في الطريق والسلام.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

10	وإِثْبَاتُ إِثَارٍ وَبَسْطُ كَرَامَةٍ بِمَا حُزَّتْ مِنْ مَالٍ وَرُوحٍ لِمِنْحَةٍ
----	---

أي: (و) من شروط الطريق (إثبات) أي: تحقيق (إيثار) أي: تقديم للغير على النفس ليكون المريد من الذين قال الله فيهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9] ومحل تقديم الغير على النفس إذا كان من الذين عندهم صبر، وإلا قدم نفسه، لما في الحديث: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» وقوله (وبسط كرامة) أي: بذل كرم للغير مع التوسعة عليه، فإن الكريم قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بضد ذلك، كما تقدم. وقوله (بما حزت من مال) معناه: أنك تؤثر الغير على نفسك، وتكرمه بما حزت، أي: جمعت من مال حلال، فإنه ورد: «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

وورد: «نعمت الدنيا مطية المؤمن بها يصل إلى الآخرة» فليست الدنيا مذمومة إلا بالنسبة لمن يجمعها من غير حل، أو يصرفها في وجوه البر، كما قال محمود الوراق:

من شرف الدنيا ومن فضلها أن بها تستدرك الآخرة
وقوله: (وروح) بضم الراء ما به الحياة، أي: أنك تكرم الغير بروحك أيضاً، بمعنى أنك تفديه بها، وقد اتهم جماعة من الصوفية بأنهم زنادقة، فلما قدموهم ليضربوا أعناقهم سارع أحدهم في التقدم إلى السيف، فقيل له في ذلك، فقال: لأوثر أصحابي بالحياة بعدي مقدار ضرب عنقي، فلما تحققوا كمالهم وبراءتهم خلوا سبيلهم، فأنت تراه أثر أصحابه بروحه.

وما ألطف قول ابن الفارض:

إذا جاد أقوام بمال رأيتهم يجودون بالأرواح منهم بلا بخل
وقوله (لمنحه) بكسر الميم وسكون النون وفتح الحاء المهملة، أي: عطية، أي: لتكون بفعلك هذا صاحب عطية، وأصل المنحة الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها لمن يشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع اللبن، ثم أطلقت على كل عطاء، يقال: منحته منحا من بابي ضرب ونفع أعطيته.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

11 | وَرَفَقٌ وَتَصْدِيقٌ وَعِشْقٌ مَحَبَّةٌ وَسَحْقٌ وَمَحَقٌّ وَالْفَنَّا بَعْدَ سَكْرَةٍ

أي: ومن الشروط (ورفق) أي: سهولة ولين جانب، وهو نتيجة حسن الخلق، وضده العنف، وفي الحديث: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه». ولنا في هذا المعنى:

عليك بالرفق لتحظى بما ترجو وتجنّي من ثمار النجاح وجانب العنف تزد بهجة فالفرق بين الناس زين الملاح ومن الشروط (تصديق) أي: أن يكون عند المريد تصديق بأحوال القوم ومشاربهم، وإلا رجع عن طريقهم، أو تصديق لمن يخبره بأمر من الأمور فيه صلاحه إن ظهرت عليه دلائل الصدق، من قولهم: صدقت فلانا، أي: نسبته للصدق.

وأما قوله: (وعشق) بالتنوين وقوله: (محبة) بحذف حرف العطف فهما من الأحوال كالذوق والشوق، وقد فسروا العشق بأنه ألفة رحمانية أوجبها كرم الله تعالى على كل ذي روح، لتحصل بها اللذة العظمى، وهي موجودة في كل إنسان بحسب استعداده ومرتبته، وأعظم الناس درجة فيه من عشق شيئاً لم يره، وإنما سمع به، ولذا قال: أشرف المراتب في الدنيا مراتب الذين زهدوا فيها مع كونها مرئية لهم، وعشقوا الآخرة مع كونها غير مرئية لهم، فهو من خصال الكمال وحلل الجمال. وما الناس إلا العاشقون ذو الهوى ولا خير فيمن لا يحب ويعشق واعلم أن النظر يولد في القلب المحبة وهي الميل، ثم يقوى ذلك فيصير صباية، ينصب إليها القلب بكليته، ثم يقوى فيصير غراماً يلزم القلب كلزوم الغريم، ثم يقوى فيصير عشقا، ثم يقوى فيصير شغفا، أي: يصل إلى شغاف القلب وداخله، ثم يقوى فيصير تتيماً، أي: تعبدًا، من قولهم: تيمه الحب إذا عبده وصيره عبداً للمحبوب، فيكون المحب متيماً مأموراً، ومغرماً مأسوراً، لا يقر له قرار، ولا يفرق بين النافع والضار، يكابد من فرط العشق كل أمر مهول. حتى يرثي له كل رقيب وعذول.

وقال بعضهم: الجنون فنون والعشق فن من فنونه، واحتج بقول القائل:

قالوا جنت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين وفي الحديث الشريف: من عشق فعف فكمات مات شهيدا، ول بعضهم: حسب المحبين في الدنيا عذابهموا تالله ما عذبهم بعدها سقر بل جنة الخلد مأواهم مزخرفة ينعمون بها حقا بما صبروا وكيف لا وهمو حبوا وقد كتموا مع العفاف بهذا يشهد الخبر وهذا إذا كان التعلق ببعض المخلوقين، فما بالك إذا كان التعلق برب العالمين، لعمرك إنهم يصيرون من المحبوبين لديه، المقربين إليه، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54]، وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»، ومن دعائه ﷺ: «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك».

وجاء أعرابي فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال ﷺ: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أنني أحب الله ورسوله، فقال له ﷺ: «المرء مع من أحب». قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك.

واعلم أن المحبين على ثلاثة أقسام؛ عوام وخواص وخواص الخواص. فأما العوام: فمحبتهم له تعالى خالصة عن الشوائب. وأما خواص الخواص: فمحبتهم عبارة عن التعشق الذي به ينمحي العاشق عند تجلي نور معشوقه، ولا تحصل هذه المحبة إلا بعد اليقين. وأكمل الخلق في المحبة سيد الأولين والآخرين.

وفي الحديث القدسي: «يا محمد إن كنت اتخذت إبراهيم خليلا، وموسى كليما ونجيا، فلقد اتخذتك حبيبا، وعزتي وجلالي ما خلقت الدنيا وأهلها والجنة إلا لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الأفلاك».

ثم اعلم أن المحبة دين أهل الله المقربين، كما قال ابن الفارض سلطان العاشقين:

وعن مذهبي في الحب مالي مذهب وإن ملت يوما عنه فارقت ملتي

وإذا أفرط المحب في المحبة تأججت في قلبه نار الأشواق، وطلبت الروح
المواصلة والتلاق، وازداد تحيرا وغراما، وطلب الزيادة من ذلك طربا وغراما، كما
قال:

زدني بفرط الحب فيك تحيرا وارحم حشا بلظى هواك تسعرا
والمراد بمحبة الله لعباده حصول الخيرات البهية، والأحوال الباهرة العلية،
فمتى حصل للعبد عواطف المحبة من الحنان دخل حضرة الامتتان بالأمان، وأما
محبة الله فهي حالة يجدها في قلبه تحمله على الانهماك في طاعته، وإيثار رضاه
والتحرز عن معصيته، كما قال بعض العارفين:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع
وكانت رابعة العدوية تقول في مقام المشاهدة القلبية:

أحبك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا
ثم إن المحب من لا يغيره عدل العاذل، بل يزيده ذلك حبا على حد قول
القائل:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيدة طربا لذكرك فليلمني اللوم
وقال سلطان العاشقين:

أدر ذكر من أهوى ولو بملام فإن أحاديث الحبيب مدامي
ليشهد سمعي من أحب وإن نأى بطيف ملام لا بطيف منام
وإذا أردت أن ترقى في مقام المحبة أعلى الدرجات، فتحقق بقول بعض أهل
الإشارات:

حروف المحبة مرموزها يبشرنا ببلوغ المنى

فميم الممات وحاء الحياة وباء البلاء وماء الهنا
 فلا تطمعن بطيب اللقاء وطول البقاء بدون الفنا
 حمينا الوصال بحد النصال فإن تلق سمر القنا تلقنا
 فلا تجزعن لمر النكال وحر الوبال ففيه الهنا
 ومت مثل ما مات أهل الهوى وذابوا اشتياقا فنالوا المنى
 وما ألطف قول سلطان العاشقين:

ونفس ترى في الحب أن لا ترى عنا متى ما تصدرت للصبابة صدت
 وما ظفرت بالحب روح مراحة ولا بالولا نفس صفا العيش وودت
 وأين الصفا هيهات من عيش عاشق وجنة عدن بالمكارم حفت
 وما أحسن قوله رضي الله عنه من قصيدة:

فإن شئت أن تحي سعيدا فمت به شهيدا وإلا فالغرام له أهل
 وقال أبو بكر الكنانى: جرت مسألة في المحبة أيام الموسم، فتكلم الشيوخ
 فيها وكان الجنيد أصغرهم سنا، فقالوا له: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق ساعة
 ودمعت عيناه، ثم قال: المحب عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء
 حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته، وصفى شربه من كأس وده،
 وكشف له الجبار عن أستار غيبه، فإذا تكلم فبالله، وإن نطق فممن الله، وإن تحرك
 فبأمر الله، وإن سكت فمع الله، فهو بالله ومن الله ولله ومع الله. فبكى الشيوخ،
 وقالوا: ما على هذا مزيد.

وقوله: (وسحق ومحق) بفتح أولهما، حالان من أحوال السالكين، ثانيهما
 أعلى من أولهما عند العارفين، كما أن المحو والطمس حالان، فمن شغله الله بذكره
 عن نفسه وبقيت فيه بقية يتنعم بها فهو في حال السحق، ومن غاب عن نفسه بالكلية
 فهو في حال المحق، فالمحق أتم من السحق، لأنه فناء وجود العبد في ذات الحق.
 وأما المحو فهو فناء أفعاله في أفعال الحق، والطمس فناء صفاته في صفات الحق،
 كما أفاده السيد الشريف، فمن كان في مقام السحق والمحق لا يرى وجودا إلا
 للحق، ومن كان في مقام المحو لا يرى أفعالا إلا للحق، ومن كان في مقام الطمس
 لا يرى صفة إلا للحق.

(والفنا) بفتح الفاء والمد وإنما قصره في البيت لضرورة الوزن، يطلق على معنيين؛ أحدهما: سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة. والثاني: الاستغراق في المشاهدة القلبية حتى لا يشعر بغير الله، ويغيب عن نفسه بالكلية، وهو انتهاء السير إليه تعالى، فيكون فانيا في الله باقيا به على حد قول بعضهم:

وبعد الفنا في الله كن كيف ما تشا فعلنك لا جهل وفعلنك لا وزر
قالوا: والفناء على ثلاثة أوجه؛ فناء في الأفعال لا فاعل إلا الله، وفناء في الصفة لا حي ولا عالم ولا قادر ولا مريد ولا سميع ولا بصير ولا متكلم على الحقيقة إلا الله، وفناء في الذات لا موجود بالوجود الذاتي إلا الله، وأنشدوا في ذلك:

فيفنى ثم يفنى ثم يفنى فكان فناؤه عين البقاء
فيفنى أولا في الأفعال بذوق، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفافات: 96]، ثم يفنى ثانيا في الصفات بذوق ﴿وَمَا رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17]، ثم يفنى ثالثا في الذات بذوق، كان الله ولا شيء معه، ويبقى الله ولا شيء معه، وعند ذلك يبقى بربه سبحانه وتعالى. وهذه المراتب إنما تحصل بالمقامات التي يقطعها السالك كالنوبة والمحاسبة والمراقبة والمجاهدة والورع والإخلاص والصدق والزهد والحضور مع الله بالقلب والتسليم والتوكل وشدة التقرب إليه تعالى بالنوافل، كما في الحديث: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها» إلخ. وهذا لمن اختاره لمقام الاصطفاء وسقاه حميا الاجتباء، كما قال بعض العارفين: إذا أراذك لخصوصية الاصطفائية، سفاك بكأس محبته شربة روية، فتزاد بتلك الشربة ظمأ وبالذوق شوقا، وبالقرب طلبا، وبالسكون قلقا، على حد ما قيل:

يزيد ظما مهما تزايد شربه من الحب فاعجب من ظما زاد بالشرب
وأعجب من ذا قربه لحبيبه ويزداد بالقرب اشتياقا إلى القرب
فلا الشرب يرويه ولا القرب يشتفي به القلب بل يزداد كربا على كرب
وليس شفاء القلب إلا فناؤه بأحبابه فاسلك به مسلك الحب

فإذا تمكن منك هذا السكر أدهشك، فإذا أدهشك حيرك، فأنت هاهنا مرید، فإذا دام تحريك أخذك منك، وسلبك عنك، فتبقى تم مسلوبا مجذوبا، فأنت حيثئذ مراد، فإذا فنيت ذاتك، وذهبت صفاتك، قام بصفاته عن صفاتك، وببقائه عن فنائك، وخلع عليك خلعة «فبي يسمع وببي يبصر» فيكون هو متوليك وموالياك، فإن تكلمت فبأذكاره، وإن نظرت فبأنواره، وإن تحركت فبأقداره، وإن بطشت فباقتداره، فإذا رسخ قدمك وتمكن سرك حال سكرك، قلت: هو. وإن غلبك وجدك، وتجاوز بك سكرك، قلت: أنا. ومن هنا أشكل على الأفهام حل رموز هذا الكلام، فقائل يقول: زنديق فيقتل، وقائل يقول: صديق فيحمل، وقائل يقول: مغلوب عليه فيهمل. فهو من حيث تحقيق حاله محق في علمه، والذي حكم بقتله مصيب في حكمه، إذ الشريعة لها حدود، فمن تعداها أقيمت عليه الحدود، والحقيقة لها شهود، خارج عن طوق هذا الوجود.

واعلم أن المشار إليه بـ«أنا» عند المحققين من أهل الله هو الموجود الكلي الساري في كل شيء، وهو وجود الحق عز وجل، لا الوجود الجزئي، فليس هناك حلول ولا اتحاد تعالى الله عن ذلك.

وإذا وقع لفظ الاتحاد في كلام الصوفية فإنما يريدون به هذا المعنى، كما قال السيد الشريف: الاتحاد هو شهود الوجود الحق الواحد المطلق الذي الكل موجود به، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجودا به معدوما بنفسه، لا من حيث إن له وجودا خاصا اتحد به فإنه محال، اهـ. أو يريدون به معنى الفناء الذي هو محو النفس وإثبات الأمر كله لله، كما قال بعض أهل الإشارات:

وعلمك أن كل الأمر أمري هو المعنى المسمى باتحاد

قيل: لما حكم على الحلاج بالقتل حين وصل إلى هذا المقام، وقال: ما في الجبة إلا الله، امتثل الأمر حفظا لسور الشريعة، فلما قطعت يده اليمنى ثم اليسرى أنشأ يقول:

لم أسلم النفس للأسقام تتلفها إلا لعلمي بأن الوصل يحييها
نفس المحب على الآلام صابرة لعل مسقمها يوما يداويها
ولما قدموه للجذع ليصلب أنشأ يقول:

ليبك يا عالما سري ونجوايا لبيك لبيك يا قصدي ومعنايا

أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل ناجيت إياك أن ناجيت إيايا
حبي لمولاي أضناني وأسقمني فكيف أشكو إلى مولاي مولايا
يا ويح روحي من روحي ويا أسفى علي مني فإني أصل بلوايا
وما ألطف قول السيد الشريف: ذو العقل هو الذي يرى الخلق ظاهرا، ويرى
الحق باطنا، فيكون الحق عنده مرآة الخلق لاحتجاب المرآة بالصور الظاهرة، وذو
العين هو الذي يرى الحق ظاهرا والخلق باطنا فيكون الخلق عنده مرآة الحق لظهور
الحق عنده واختفاء الخلق فيه اختفاء المرآة بالصور، وذو العقل والعين هو الذي يرى
الحق في الخلق وهذا قرب النوافل، ويرى الخلق في الحق وهذا قرب الفرائض،
ولا يحتجب بأحدهما عن الآخر بل يرى الوجود الواحد بعينه حقا من وجه وخلقاً
من وجه فلا يحتجب بالكثرة عن شهود الوجه الواحد الأحد، كما لا يحتجب بكثرة
المرائي عن شهود الوجه الواحد الرائي، ثم قال وإلى المراتب الثلاثة أشار ابن العربي
بقوله:

وفي الخلق عين الحق إن كنت ذا عين وفي الحق عين الخلق إن كنت ذا عقل
وإن كنت ذا عين وعقل فما ترى سوى عين شيء واحد فيه بالشكل
وإنما قال المصنف: (بعد سكرة) لأنك قد علمت أن الفناء إنما يكون بعد
شرب كأس المحبة لمن أراد الله اصطفاؤه وقربه، كما قال بعض العارفين الواصلين
إلى رب العالمين:

أديرت علينا بالمعارف قهوة يطوق بها من جوهر العقل خمار
فلما شربناها بأفواه فهمنا أضاءت لنا منه شمس وأقمار
وكاشفنا حتى رأيناه جهرة بأبصار صدق لا تواريه أستار
فغبنا به عنا فنلنا مرادنا فلم يبق منا عند ذلك آثار
وقال آخر:

نحن في عيشة الوصال الهنية تجتلي الراح في الكؤس السنية
قد لبسنا هياكل النور لما فارقتنا الهياكل البشرية
وقد قالوا: خمرة الذوق تكسب اللطافة، وتمحق الكثافة، كؤسها المعاني،
وحاناتها حضرة التداني، ودنها العارف، وندماؤها المعارف، ورواقها الصافي،

ومرافقها الموافي، بها تقلب الأعيان، فيمشي المقعد، ويبصر الأعمى، وينطق الأخرس، ويرتوي الظمآن، على حد ما قيل:

ومقعد قوم قد مشى من شرابنا وأعمى سقيناه سلافا فأبصرا
وأخرس لم ينطق ثمانين حجة أدركنا عليه الراح يوما فأخبرا
فيا هذا عليك شراب القوم فإنه الخالي من اللوم، إذ لا يستوي من اتبع هواه
ومن هو من أهل الله، فإن هذا بطاعته بان، وذاك بمعصية بار، والله تعالى لا يخيب
من أمله فيما أمله، فابذل روحك في الوصول لما وصل له القوم وإلا فلا يسام بغير
ذلك السو، كما قال بعض أهل الإشارات:

اسمح بنفسك إن أردت لقانا واحلف بنا أن لا تحب سوانا
فإذا قضيت حقوقنا يا مدعي عاينتنا بين الأنام عيانا
وما ألطف قول بعضهم:

وليس جناب القدس إلا لأهله وما كل إنسان بواديه يسرح
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

12 | وَحَمْدٌ وَشُكْرٌ وَالْوَفَا بِأَوَامِرٍ وَلَا تَعْدُ عَنْ حُكْمِي كِتَابٌ وَسُنَّةٌ |

أي: ومن الشروط حمد الله تعالى، أي: ثناء عليه بما أنعم، وشكر له على ما تفضل وتكرم، وفي الحديث: «أول من يدعى إلى الجنة الحمادون لله على كل حال»، أي: حالة الضراء والسراء، كما قال بعضهم:

أحمد ربي حالة الضراء حمدي له في حالة السراء
لا حمد من يعبد ربه على حرف فإن وإن كما قد أنزلا
يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: 11]، وورد: «لو أن الدنيا بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله كانت الحمد لله أفضل من ذلك» قال الترمذي: وذلك لأن الدنيا فانية، وهذه الكلمة من الباقيات الصالحات. وورد: «أن من لبس ثوبا جديدا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه».

وروي أن آدم لما أهبط إلى الأرض قال: يا رب علمني كلمة تجمع لي فيها المحامد، فأوحى الله إليه أن قل ثلاثا عند كل صباح ومساء: الحمد لله رب العالمين حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، فهي أفضل المحامد.

واعلم أن شكر النعمة إذا شكرت قرت، وإذا كفرت فرت. فشكر العينين أن تستر عيب أخيك المسلم، وأن لا تنظر إلى ما لا يحل. وشكر الأذنين أن لا تسمع ما لا يحل، وهكذا يقال في باقي الأركان كل جارحة بحسبها. فإن الشكر كما يكون بالقلب واللسان يكون بجميع الأركان، قال الجنيد: كنت بين يدي السرى السقطي وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام ما الشكر؟ فقلت: أن لا يعصى الله ينعمه، ومما قيل في الحض على الشكر:

ومن الرزية أن شكري صامت كما فعلت وأن برك ناطق
أأرى الصنيعة منك ثم أسرها إني إذا ليد الكريم لسارق
وقال الصفي الحلبي:

سأشكر نعماك التي لو جحدتها أقر بها حالي ونم بها سري
وفي حسن حال المرء أعدل شاهد يقر بما أسدت إليه يد القطر

وفي الحديث: «من لم يشكر على القليل لم يشكر على الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله». وفي الحديث القدسي: «عبدى لم تشكرني إذا لم تشكر من أجريت النعمة على يديه». ولما دخل سفيان الثوري على جعفر الصادق وقال له: علمني يا ابن رسول الله مما علمك الله، قال له إذا تظاهرت الذنوب فعليك بالاستغفار، وإذا تظاهرت النعم فعليك بالشكر، وإذا تظاهرت الغموم فقل لا حول ولا قوة إلا بالله، فخرج سفيان وهو يقول: ثلاث وأي ثلاث. وفي الحديث: «من أعطي فشكر، وابتلي فصبر، وظلم فغفر، وظلم فاستغفر أولئك لهم الأمن وهم مهتدون». وروي أن داود عليه السلام قال: إلهي كيف أشكرك وشكرى لك نعمة من عندك؟ فأوحى الله إليه الآن شكرتني. وما ألطف قول بعضهم:

إن كان شكري نعمة الله نعمة علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلته وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها وإن مس بالضراء يعقبها الأجر

فما منها إلا له فيه نعمة تضيق بها الأوهام والسر والجهر
وقال بعض العارفين: من أعطي أربعاً لم يمنع من أربع؛ من أعطي الشكر لم
يمنع المزيد لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]، ومن أعطي التوبة
لم يمنع القبول لقوله تعالى: ﴿هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: 104]، ومن أعطي
الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطي المشورة لم يمنع الصواب لقوله ﷺ: «لا
خاب من استخار ولا ندم من استشار».

وما ألطف قول بعضهم:

لئن شكرتم لأزيدنكم مقالة الله التي قالها
فالكفر بالنعمة يدعو إلى زوالها والشكر أبقى لها
وقوله: (الوفا بأوامر) شرط من الشروط، أي: بما أمر الله به، فإن ذلك من
جملة أمور الدين الأربعة التي هي صحة العقد وصدق القصد والوفاء بالعهد وحفظ
الحد، ومعنى صحة العقد: أن يكون الاعتقاد في ذات الله وصفاته وأنبيائه وجميع
ما جاؤوا به صحيحاً. ومعنى صدق القصد: الإخلاص لله في العبادة، فلا يقصد
بعبادته سواه. ومعنى الوفاء بالعهد: امتثال الأوامر لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ
فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: 7]. ومعنى حفظ الحد: اجتناب النواهي، لقوله تعالى: ﴿وَمَا
نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهَوْا﴾ [الحشر: 7]، وفي الحديث: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها
وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها».

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الله
تعالى يعطي العباد ما يشاؤون وهم مصررون على المعاصي فاعلم أن ذلك استدراج منه
لهم ثم تلا: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا
أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]» فتخلص يا أخي من شرك المعاصي
قبل الأخذ بالنواصي، وقم بأوامر الكبير المتعال، وتدبر قول من قال:

العمر ينقص والذنوب تزيد وتقال عشرات الفتى فيعود
هل يستطيع جحود ذنب واحد رجل جوارحه عليه شهود
ودخل بعض وزراء المأمون عليه فوجد في يده رقعة فيها هذه الموعظة:
إنك في دار لها مدة يقبل فيها عمل العامل

أما ترى الموت محيطا بها يقطع فيها أمل الآمل
تعجل بالذنب لما تشتهي وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتي بعد ذا بغتة ما ذاك فعل الحازم العاقل
فتأمل يا أخي وشمر عن ساعد جدك، وإن كنت من أهل البطالة فقل مخاطبا
لخداك:

يا خد إنك إن توسد لنا وسدت بعد الموت صم الجنادل
فامهد لنفسك صالحا تسعد به فلتندمن غدا إذا لم تفعل
ولله در القائل:

مضى أمسك الأدنى شهيدا معدلا ويومك هذا بالفعال شهيد
فإن تك بالأمس اقترفت إساءة فثن بإحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك إلى غد لعل غدا يأتي وأنت فقيد
واعلم أن الإنسان لا يفي بالأوامر إلا بعد مخالفة النفس والشيطان ومجانبة
الاهواء الموجبة للخذلان، ولذا قال بعضهم في شرح أحوال الصوفية الذبن قاموا لله
على قدم العبودية: تنسموا روح ما دعاهم إليه فاسرعوا إلى محو العلائق الشاغلة،
وتجرعوا المكابدة وصدقوا الله في المعاملة، وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه
وعرفوا قدر مطلوبهم، فجعلوا توكلهم عليه، فحيوا حياة الأبد بالحي الذي لم يزل
ولا يزال، وإن أردت أن تكون على مذهبهم فاعمل بقول من قال:

بالدوق والشوق نالوا عزة الشرف لا بالدلوق ولا بالعجب والصنف
ومذهب القوم أخلاق مطهرة بها تخلقت الأجساد في النطف
صبر وشكر وإيثار ومخمصة وأنفس تقطع الأنفاس باللهف
والزهد في كل فإن لا بقاء له كما مضت سنه الأخيار والسلف
قوم لتصفية الأرواح قد عملوا وسلموا عارض الأشباح للتلف
لا بالتخلف في المعروف تعرفهم ولا التكلف في شيء من الكلف
ما ضرهم رث أطمار ولا خلق كالدر ما ضره مخلوق الصدف
واشقوقى أن تولت أمة سلفت حتى تخلفت في خلف من الخلف

ينمقون تزاوير الغرور لنا
ليس التصوف عكازا ومسبحة
وأن تروح وتغدو في مرقعة
وتظهر الزهد في الدنيا وأنت على
الفقر سر وعنك النفس تحجبه
وفارق الجنس وافن النفس في نفس
واخضع له وتذل إن دعيت له
وقف على عرفات الذل منكسرا
وادخل إلى خلوة الأفكار مبتكرا
واتل المثاني ووحد إن عزمت على
وإن سقاك مدير الراح من يده
واشرب واسق ولا تبخل على ظما

بالزور في القول والبهتان والحلف
كلا ولا الفقر رؤيا دلقك الترف
وتحتها موبقات الكبر والسرف
عكوفها كعكوف الكلب في الجيف
فارفع حجابك تجلو ظلمة السدف
وغب عن الحس واجلب دمة الأسف
واعرف محلك من إياك واعترف
وحول كعبة عرفان الصفا فطف
وعد إلى حانة التذكار بالصحف
ذكر الحبيب وصف ما شئت واتصف
كأس التجلي فخذ بالطاس واغترف
فإن رجعت بلا ري فيا أسفي

وقال الإمام المقسي مبتدئا بمن تزيًا بزيهم، ولم يسر بسيرهم:

ذهب الرجال وحال دون مجالهم
زعموا بأنهمو على آثارهم
لبسوا الدلوق مرقعا وتقشفوا
قطعوا طريق السالكين وأظلموا
عمرؤا ظواهرهم بأثواب التقى
إن قلت قال الله قال رسوله
ويقول قلبي قال لي عن خاطري
عن حضرتي عن فكرتي عن خلوتي
عن صفو وقتي عن حقيقة حكمتي
دعواه إن حققته ألفيتها
تركوا الشرائع والحقائق واقتدوا
جعلوا المرا فتحا وألفاظ الخطا

زمر من الأوباش والأنذال
ساروا ولكن سيرة البطال
كتقشف الأبطال والأبدال
سبل الهدى بجهالة وضلال
وحشوا بواطنهم من الأدغال
همزوك همز المنكر المتغالي
عن سر سري عن صفا أحوالي
عن جلوتي عن شاهدي عن حالي
عن ذات ذاتي عن صفات فعلي
ألقاب زور لفقت بمحال
بطرائق الجهال والضللال
شطحا وصالوا صولة الأدلال

وترصدوا أكل الحرام تخادعا
 فاحذرهمو واحفظ مودة سادة
 القانتين المخبتين لربهم
 التاركين حظوظهم ونفوسهم
 ما شأنهم في شأنهم كذب ولا
 عملوا بما علموا وجادوا بالذي
 وإذا بدليل سمعت أنينهم
 وعيونهم تجري بفيض دموعهم
 متفاوتين بقربهم وبحبهم
 في الليل رهبان لخدمة ربهم
 تاهوا على كل الملوك وإنهم
 ولرب أشعث حقرته ذلوقه
 خمص البطون لما بهم من فاقة
 لم تخل أرض منهمو قد حكموا
 سوى لهم بين الثريا والثرى
 لا ينظرون إلى سوى محبوبهم
 فهموا إليك وسيلتي يا سيدي

كتخادع المتلصص المحتال
 قاموا بذكر الله في الآصال
 الناطقين بأصدق الأقوال
 المؤثرين بخالص الأموال
 عمل لقصد ريا ولا لجدال
 وجدوا وما يخلوا بفضل نوال
 وحنينهم بتضرع وسؤال
 مثل انهمال الوابل الهطال
 كتفاوت العمال في الأعمال
 وتخالهم في الجود كالأبطال
 لهم الملوك بعزة الإقبال
 ولدى المليك هو العزيز الغالي
 شعث الرؤوس لروعة الأهوال
 ذات اليمين بها وذات شمال
 والفرش والعرش الرفيع العالي
 شغلا به عن سائر الأشغال
 إلا وصلت حبالهم بحبالي

ثم إن المصنف حث المريد على عدم تجاوز الكتاب والسنة في الأوامر والنواهي بقوله: (ولا تعد عن حكي كتاب وسنة) أي: لا تتجاوز ما حكم به الكتاب العزيز الذي هو القرآن، ولا ما حكمت به سنة سيد ولد عدنان، وهي أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته، ويلحق بالكتاب والسنة ما استنبط منهما لما ورد: «عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» وما استنبطه الأئمة المجتهدون من الكتاب والسنة يعطى حكمهما لأن الفرع تابع لأصله.

قال الإمام الغزالي: من حصل العلم ثم تصوف أفلح ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه.

وقال الجنيد: ومن لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه عن المتأدبين، أفسد من اتبعه، وكان يقول: علمنا هذا مقتد بالكتاب والسنة، قال ابن العربي: يريد أنه نتيجة العمل بهما، وهما الشاهدان العدلان.

وقال الإمام الشعراني في طبقاته نقلا عن سيدي أبي الحسن الشاذلي: إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة، مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرض ذلك على الكتاب والسنة.

وقال في محل آخر نقلا عن بعض العارفين: أصولنا سبعة أشياء؛ التمسك بكتاب الله، والافتداء بسنة رسول الله ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي إذا أخذ العهد على فقير يقول له: يا فلان اسلك طريق النسك على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام، واتباع جميع الأوامر المشروعة والأخبار المرضية والاشتغال بطاعة الله تعالى قولاً وفعلًا واعتقاداً ولا تنظر يا ولدي إلى زخارف الدنيا ومطاياها وقماشها ورياشها وحظوظها واتباع نبيك محمداً ﷺ في أخلاقه، فإن لم تستطع فاتباع خلق شيخك، فإن نزلت عن ذلك هلكت مع الهالكين.

وقال سيدي سعيد المغربي: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمت المشايخ وإقامة المعاذير للخلق والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص، والتأويلات وما ضل أحد عن هذا الطريق إلا انحط عن مقام الرجال، اهـ.

وإنما أظننا لك في هذا المقام، وسردنا عليك أقوال هؤلاء الأئمة الأعلام لتنظر ما عليه أبناء الطريق اليوم، وتختار لنفسك من رزقه الله التوفيق فسلوك سبيل القوم، وإلا فالزم العمل بالكتاب والسنة فإنهما الحرز المصون، وعليك بخاصة نفسك ولا تتبع أهواء الذين لا يعملون، وهذه بعض أبيات من نصيحة صديقنا الشيخ محمد محرم العمروسي ترشدك إلى أكمل الحالات:

تمسك بحبل الشرع واضرب بسيفه رؤس المعاصي واتخذ منه جوشنا

وبادر إلى إنكار ما كان خارجا
ولا تجعل الذكر النفيس وسيلة
ولا تجعل المقصود منه تكسبا
ولا تتخذه للرياسة سلما
وتأتي ما تأتي رياء وسمعة
وليست بإرخاء الشعور ولاية
وليس بإظهار التباه خدعة
وغير مفيد لس تاج وخرقة
فوحدهوى ليلى لتحظى بوصلها
وما دمت مأسورا لنفسك والهوى
فطلق هداك الله نفسا خونة
فما هي إلا ذات سم مخبا
وإلا فدع دعوى الصلاح ولا تكن
وخل مقامات الرجال لأهلها
فيا فقراء الوقت مالي أراكموا
فكم بدع أحدثتموها بجهلكم
جعلتم طريق القوم رقصا وصيحة
وملأ بطون من غذا لم يفد سوى
وتحصيل أرزاق وضرب عوائد
وحرقتما التهليل عن وضعه الذي
وطرقتما فيه طرائق لم يكن
أكان رسول الله يصحب منشدا
فما زدتما المردان إلا تمردا
وما زدتما الجهال إلا جهالة
فكن عالما بالشرع واعمل به فمن

عن الحق واحذر أن تكون مداهنا
إلى عرض الدنيا المعرض للفنا
فتنحط قدرا من علاك وتفتنا
فتغضب مربوبا وربما مهيمنا
وتتخذ الشرك الخفي تدينا
إذا كان منك القلب أسود عاطنا
إذا كان فيك الغش والمكر كامنا
إذا كان إبليس بجسمك ساكنا
وترقى بلقيها وتظفر بالمنى
فما زلت في سجن القطيعة قاطنا
طلاقا صريحا بالثلاثة بائنا
وأعدى عدو في الحشا متوطنا
بغير فلاح للولاية معلنا
وعش خاليا فالحب راحته عنا
أتيتم أمورا لا تحل بشرعنا
وصرتم عليها عاكفين ليومنا
ومنكر أصوات يهيجا الغنا
تجشئكم يا قوم حول بيوتنا
على الناس تأباها قواعد ديننا
أتانا به التنزيل من عند ربنا
عليها رسول الله والقوم قبلنا
ينادي بأعلى الصوت ليلا مدندا
وما زدتما الشيبان إلا تشيطنا
وبعدا عن الأخرى وقربا إلى الدنا
أراد طريقا دون علم فقد جنى

ولا ينبغي للجاهلين تصدر
 ألم يعلموا أن الطريق كناية
 وذبح النفوس الضاريات بمدية
 وزهد عن الدنيا وعن شهواتها
 وجوع وصمت واعتزال وفكرة
 وذكر بنار الشوق يحرق خاطرا
 يكون بجهد واجتهاد وهمة
 وعلم وحلم واقتداء بعارف
 فمن لم يصاحب شيخ صدق ملقن
 فأخلص هداك الله تخلص فهذه
 ثم قال المصنف رضي الله عنه :

13 | وَرَاقِبْ جَنَابَ الْحَقِّ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرَى لِنَفْسِكَ فِعْلاً مِنْ فِعَالٍ جَمِيلَةٍ

هذا إشارة إلى مقام المراقبة التي هي شرط في طريق المقربين، وهي دوام استحضار القلب، إحاطة علم الله تعالى بحركاته وسكناته، فالمعنى: عليك بمراقبة مولاك في حركاتك وسكناتك، ولحظاتك وخطراتك، واعلم أنه ناظر إليك، ومطلع عليك، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: 61] ﴿وَلَنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: 4]. بالعلم والإحاطة والاعتدال، والحفظ والرعاية والهداية لمنازل الأبرار. فاستح من مولاك أن يراك حيث نهاك، وابعده كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال ذو النون المصري: علامة المراقبة إثارة ما أثر الله، وتعظيم ما عظم الله. وقال ابن عطاء الله: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات.

واعلم أن المراقبة لا تكون إلا بعد المحاسبة فإذا حاسب العبد نفسه على عدد الأنفاس، وتحرز من كيد الوسواس الخناس، صحت له المراقبة في عموم الأحوال، وعلم أن الله مطلع عليه في جميع الأقوال والأفعال، وإلا كان بعيدا عن هذا المقام،

ولم يصل إلى هذا المرام.

وقال بعض العارفين: من راقب الله في خواطره عصمه في جوارحه. وقال بعضهم: إذا جلست للناس فكن واعضاً لنفسك وقلبك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله تعالى يراقب باطنك.

وروي أن الواعظ إذا جلس ليعظ الناس قال له كاتباه: يا عبد الله عظ نفسك بما تعظ به أخاك، واستح من سيدك فإنه يراك.

وسئل أبو الحسن بن هندي: متى يحفظ الراعي غنمه بعصى الرعية عن مواقع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيباً.

وكان ابن عمر في سفر، فرأى غلاماً يرعى غنماً، فأعجبه حسن رعايته لها في الظاهر، فأراد أم يختبر باطنه، فقال له: تبيع من هذه الغنم واحدة؟ فقال: إنها ليست لي، فقال: قل: لصاحبها إن الذئب أخذ منها واحدة، فقال الغلام: فأين الله؟! فأعجبه حسن مراقبته، وصار يترنم بذلك ويقول: فأين الله؟.

وكتب بعض الحكماء إلى صديق له: أما بعد، فحفظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك، واستح من الله بقدر قربك منك، وخفه بقدر قدرته عليك، والسلام.

وقال بشر بن مروان لأبي حازم: ما المخرج مما نحن فيه؟ فقال: أن تنظر إلى ما عندك فلا تضعه إلا في حقه، وإلى ما ليس عندك فلا تأخذه إلا بحقه، قال: ومن يطيق هذا يا أبا حازم؟ فقال: من أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين.

وقيل لأبي حازم: ما مالك؟ فقال: شيطان؛ الرضا عن الله والغنى عن الناس، فقليل له: إنك لمسكين، فقال: كيف أكون مسكيناً ومولاي له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى؟!.

وقد قالوا: غفلة القلب عن الرب من أعظم الذنوب، وأكبر العيوب، ولو كانت أنا من الآفات، أو لمحة من اللمحات، فإنه كما تعاقب العوام على سيئاتهم، تعاقب الخواص على غفلاتهم. فاجتنب الاختلاط بأصحاب الغفلة على كل حال، إن أردت أن تكون من زمرة أهل الكمال:

فنحن في سفر نمضي إلى حفر وكل آت لنا قرب من العدم والموت يشملنا والحشر يجمعنا وبالتقى الفخر لا بالمال والحشم

وإنما قال المصنف: (من غير أن ترى لنفسك فعلا) لأن الأفعال كلها في الحقيقة لله، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: 96] فلا ينبغي للمريد أن يرى لنفسه فعلا جميلا بل يتهمها بالتقصير في الطاعة، لأن الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة، كما أن عدم الرضا عنها أصل جميع الصفات الممدوحة، وقد كان السري السقطي يقول: كل من ظن من نفسه أنه محسن فهو ممن زين له سوء عمله، ومن لم يظن من نفسه أنه هالك فهو هالك. وكان سيدي على الخواص يقول لتلميذه الإمام الشعراني: إن لم تخف أن يهلكك الله تعالى بالنقص الذي في أعمالك الصالحة عندك فضلا عن معاصيك فأنت هالك.

فتأمل ذلك يا أخي وتيقن أن الناجي من اتهم نفسه بالتقصير، وباعها في مرضاة العليم الخبير، وقد حكى أن رجلا قال لأبي يزيد: إن نفسي تطالبني، فقال: أولك نفس؟ قال: نعم، قال: إن المؤمن بلا نفس، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: 111]، فمن باع نفسه فكيف يكون له نفس. وإنما خص المصنف الأفعال الجميلة بعدم نسبتها للنفس لأنها التي بها الزهو والعجب، فإذا نسبها للنفس حصل لها العجب المؤدي إلى الهلاك، وأما الأفعال الذميمة فينبغي نسبتها للنفس تأدبا، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: 79] أي إيجادا وخلقا ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: 79] أي: كسبا لا خلقا، وإن كان الكل من الله خلقا، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: 78] وانظر إلى أدب الخضر عليه السلام حيث قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: 82] وقال: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79] ولم يقل فأراد أن يعيها وكذلك إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 78] ثم قال: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 80] ولم يقل أمرضني بل نسب المرض لنفسه تأدبا، وقد كان بعض العارفين لا يعيب فعل أحد لمشاهدته أن كل الأفعال لله تعالى.

وما ألطف قول بعضهم:

إذا ما رأيت الله في الكل فاعلا
وإن لم ترى إلا مظاهر صنعته
رأيت جميع الكائنات ملاحا
حجبت فصيرت الملاح قباحا
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

14 | وَجَاهِدْ تُشَاهِدْ كُلَّ مَعْنَى مُحَجَّبٍ عَنِ الْعَقْلِ وَالْأَبْصَارِ مِنْ غَيْرِ رِيَّةٍ |

أي: ومن الأصول أن تجاهد نفسك الأمانة بالسوء، فإن جهادها هو الجهاد الأكبر، ومجاهدتها أشد من مجاهدة الشيطان، فإنها العدو الملازم، واللص إذا كان من أهل البيت تضيع فيه الحيل، بخلاف الشيطان، فإنه خارج عن البدن، ليتمكن منه بتضييق مجاريه بالجوع، وأيضا الشيطان عدو مبغوض بخلاف النفس، فإنها عدو محبوب، والمحِب يعمى عن عيوب محبوبه.

وقد ورد: «حبك الشيء يعمي ويصم»، فيلزمك أيها المريد أن تتبصر في عيوبها، وتحملها على حسن القيام بالتكاليف الشاقة التي أمر بها الشارع عليه السلام، فإن بعض العارفين قال: ما أخذنا التصوف من القيل والقال، ولكن من الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات، وامتنال الأوامر واجتناب المنهيات، واعلم أن أصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات، ولا أقول لك: اقلع شجرة الطبع من أرض الوضع، إذ ليس في الإمكان قلب طبع الإنسان، وإنما أقول: دم على المجاهدة تحظ بالمساعدة، وكلما نبت عرق من عروق الهوى فأقلعه بعلاج التقوى، واستعمل الصبر على المجاهدات، وتدبر قول بعض السادات:

الصبر كالصبر مر في مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل
وقال آخر:

وقل من جد في أمر يحاوله واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر
وقد كانت بعض العابدات الصابرات إذا مات لها ولد تضع رأسه على حجرها، وتقول: والله لتقدمك أمامي خير عندي من تأخرك بعدي، ولصبري عليك أولى من جزعي عليك، ولئن كان فراقك حسرة فإن في توقع أجرك الخيرة، ثم تشد قول عمرو بن معدي كرب:

وإننا لقوم لا تفيض دموعنا على هالك منا وإن قصم الظهر
فلا تتأخر أيها الرجل الكامل عن الوصول إلى هذه الدرجة التي أحق بها الرجال، واستعمل الصبر في مجاهدتك لنفسك حتى تبلغ الآمال، واحذر في حال المجاهدة أن تخذلك بتسوياتها وإظهار شفقتها عليك، فإنه قد ورد: «أعدى عدوك

نفسك التي بين جنبيك»، ففي إعزازها بعدك عن مقام تبلغ فيه هنالك منك، وفي إذلالها عزك وقربك من مواهب مولاك، ومن ثم قال ﷺ: «من أعز نفسه فقد أذل دينه ومن أذل نفسه فقد أعز دينه».

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل في الطواف: اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات؛ أولها: أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة، والثانية: أن تغلق باب العز وتفتح باب الذل، والثالثة: أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد، والرابعة: أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر، والخامسة: أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر، والسادسة: أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت. ومن كلام ابن العربي في الفتوحات:

سبح إلهك بكرة وأصيلا فالنفل يرجع بالهدى إكليلا
جاهد هواك ولا تكن ذا فترة فيه وكن للنائبات خليلا
إن المجاهد لا يزال مكابدا يهوى الخطوب ويعشق التعليلا
لا تركزن إلى البطالة إنها تردي وكن للحداثات وصولا
ومن النصائح قول بعضهم:

حتام أنت بما يلهيك مشغل عن نجاح قصدك من خمر الهوى ثمل
ترضى من الدهر بالعيش الذميم إلى كم ذا التواني وكم يغري بك الأمل
وتدعي بطريق القوم معرفة وأنت منقطع والقوم قد وصلوا
فانهض إلى ذروة العلياء مبتدرا عزمنا الترقى مكانا دونه زحل
فإن ظفرت فقد أعطيت مكربة بقاؤها ببقاء الله متصل
وإن قضيت بهم وجدا فأحسن ما يقال عنك قضى من وجده الرجل

وقال أبو الفتح البستي:

دع التكاثر في الخيرات تطلبها فليس يسعد بالخيرات كسلان
لا ظل للمرء أخرى من تقى ونهى وإن أظلمته أوراق وأغصان
وقال أبو بكر الخوارزمي:

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد

عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد
قال بعضهم: رأيت أبا ميسرة العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد في
الطاعة، فقلت: يرحمك الله إن رحمة الله واسعة، فغضب وقال: هل رأيت ما يدل
على القنوط إن رحمة الله قريب من المحسنين فأبكاني والله كلامه.

ولينظر العاقل إلى حال الرسل والأبدال والأولياء، واجتهادهم في الطاعات،
وصرفهم العمر في العبادات، لا يفترون عنها ليلا ونهارا، أما كان لهم حسن ظن
بالله؟ بلى والله، إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأحسن ظنا بجوده من كل ظان،
ولكن علموا أن ذلك بدون الجد والاجتهاد أمنية محضة، وغرور باطل، فأجهدوا
أنفسهم في العبادة والطاعة ليتحقق لهم الرجاء الذي هو من أحسن بضاعة، وفي
الحديث القدسي: «ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عمل كيف أجود برحمتي
على من يخل بطاعتي»، ولذا قال المصنف: (وجاهد تشاهد كل معنى محجب) يعني
أن من جاهد نفسه يرى تجليا رحمانيا محجبا (عن العقل والأبصار)، يكون به المريد
في أعلى مقام القرب والافتخار، وقوله: (من غير ريبة) أي: من غير شك في ذلك،
وقد سئل بعضهم عن المشاهدة، فقال: كشف الحجاب بين القلب والرب، والمراد
كشف الحجاب عن العبد فإن الرب لا يحجبه شيء، وقال الجنيد: المشاهدة إدراك
الغيوب، بأنوار الأسرار عند صفاء القلوب، قالوا: ولم يزد في بيان تحقيق المشاهدة
أحد على قول عمرو بن عثمان المالكي: هي توالي أنوار التجلي على القلب من غير
أن يتخللها ستر ولا انقطاع، كما لو قدر اتصال البروق في الليلة الظلماء، وأنشدوا:
لـيلى بـوجـهك مشـرق وظلامه في الناس ساري
فالناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار
وقال الشبلي: استنار قلبي يوما فشاهدت ملكوت السماوات والأرض، ثم
وقعت مني هفوة فحجبت عن شهود ذلك، فتعجبت كيف حجبتني هذا الأمر الصغير
عن درك الأمر الكبير، فقل لي: البصيرة كالبصر، فكما أنه إذا حل أدني شيء في
البصر حجبه عن النظر، فكذلك البصيرة.

ثم شرع المصنف يبين حقيقة من يحسن السلوك على يديه، من شيخ عارف

بالطريقة يكون خبيراً بما للمريد وما عليه، ليحصل به الهداية والإرشاد، فقال رضي الله عنه موفياً بالمراد:

15 | وَلَا بُدَّ مِنْ فِكْرٍ وَذِكْرٍ وَوَجْهَةٍ عَلَى يَدِ شَيْخٍ عَارِفٍ بِالطَّرِيقَةِ

يعني أنه يشترط أن يتفكر المريد في مصنوعات الله تعالى، ليستدل بذلك على عجب قدرته، لما في الحديث: «تفكروا في آلام الله ولا تفكروا في ذاته فإنه لا تحيط به الفكرة».

وما ألطف قول بعضهم:

كل ما ترتقي إليه بوهم من جلال وقدره وسناء
فالذي أبدع البرية أعلى منه سبحانه مبدع الأشياء
وكذلك يتفكر في أحوال المعاد ليجتهد في تقديم ما يحصل له به الإسعاد،
والتفكر هو تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب، ويقال: هو سراج
القلب يرى به خيره وشره، ومنافعه ومضاره، وكل قلب لا تفكر فيه فهو في ظلمات
يتخبط. ويقال: هو مصباح الاعتبار ومفتاح الاختبار. ويقال: هو حديقة أشجار
الحقائق، وحديقة أنوار الدقائق. ويقال: هو مزرعة الحقيقة، ومشرفة الشريعة.
ويقال: هو شبكة طائر الحكمة.

فكن متفكراً في كل أمر لتحظى بالمسرة في المال
ولا بد أيضاً من ذكر باللسان والقلب، وهو من اللوازم المعبر عنه بالسراج،
وناهيك قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152] وقوله سبحانه: ﴿أَلَا يَذْكُرُ
اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

وفي الحديث: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قيل وما رياض الجنة يا
رسول الله قال: «خلق الذكر» وقال ﷺ: «الذكر الله عز وجل بالغداة والعشي أفضل
من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المال سخا»، وقال ﷺ: «ألا أنبئكم
بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الورق
والذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قلنا:
بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «ذكر الله عز وجل»، وقال ﷺ: «أحب الأعمال إلى

الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله». وفي الحديث القدسي: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»، وروي أن الله عز وجل قال: «يا عبدي اذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما».

فالذكر أفضل باب أنت داخله لله فاجعل له الأنفاس حراسا وكان سيدي أبو العشائر يقول: الأصول التي يبنى عليها المريد أمره أربعة، اشتغال اللسان مع حضور القلب بذكر الله، وجبر القلب على مراقبته، ومخالفة النفس والهوى من أجله، وتصفية اللقمة لعبوديته، وهي القطب وبها تركوا الجوارح ويصفو القلب. واعلم أن حقيقة الذكر دوام الحضور، من غير تخلل غفلة وقصور. ولله در الشبلي حيث قال:

ذكرتك لا أني نسيتك لمحة وأيسر ما في الذكر ذكر لساني
وكدت بلا وجد أموت من الهوى وهان على القلب بالخفقان
قلما أراني الوجد أنك حاضري شهدتك موجودا بكل مكان
فخاطبت موجودا بغير تكلم ولاحظت معلوما بكل عيان
ويكفيك في خصائص أهل الذكر أنهم القوم الذين لا يشقى لهم جليس، لما في الحديث: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يلتمسون مجالس الذكر فإذا رأوا مجلس الذكر نادى بعضهم بعضا هلموا هذه حاجتكم فتحفهم الملائكة بأجنتهم إلى عنان السماء، ثم يقول الله تعالى لملائكته: أشهدكم يا ملائكتي أني غفرت لهم، فتقول الملائكة: إلهنا إن فيهم فلانا جلس لغير حاجة الذكر، فيقول الله تعالى: هم القوم لا يشقى لهم جليس». وفي رواية: «لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده».

قال العلامة الأمير: ينبغي للذاكر بـ«لا إله إلا الله» أن يلاحظ كونها آية من كتاب الله ليكثر له الثواب، وإن لم يلاحظ المعنى، اه. ومعناها لا معبود بحق إلا الله، ثم اعلم أن الذكر عند العارفين لغير أرباب الشهود، لما في الحديث القدسي: «من ذكر لم يشهد، ومن شهد لم يذكر»، أي: من كان يرى له وجودا يذكركني به فإنه محجوب، والمحجوب لا يشهد، ومن شهد أن الوجود لي ولا وجود لغيري علم أني الذاكر والمذكور والذكر فلم يذكر، وبهذا يتضح قول ابن العربي:

بذكر الله تزداد الذنوب وتنعكس البصائر والقلوب

وترك الذكر أفضل كل شيء فشمس الذات ليس لها غروب وهذا من باب حسنات الأبرار سيآت المقربين، وقليل أهل هذا المقام الذين قال قائلهم:

الله يعلم أنني لست أذكره وكيف أذكره إذ لست أنساه
وقوله: (وجهة) أي: ولا بد أيضا للمريد من وجهة، أي: حسن توجه على يد شيخ، وهو من اللوازم المعبر عنه بالدليل، ومن لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه، لأن النفس التي هي مريدة الشيطان كثيرة التلبس، عظيمة التدليس، توهم العبد أنه صادق وهو كاذب، وأنه موف بعهده وهو ناكث، وأنه زاهد وهو راغب، وإنما يعرف ذلك من نفسه بتنبيه شيخ يلقي إليه قياده، أو فقيه يستفتيه في سائر أموره، أو صاحب ناصح، فالشيخ أول دليل، وعليه عند القوم التعويل، فمن استضاء به اهتدى، ومن ضل عنه ارتدى، على حد ما قيل:

من لم يكن خلف الدليل مسيره كثرت عليه طرائق الأوهام
وقال آخر:

لا تسلكن طريقا لست تعرفها بلا دليل فتهدى في مهاويها
فلا بد للمريد من شيخ كامل يقتدي بآثاره، ويهتدي بهديه وأنواره، فإنه واسطة الخير، والوسيلة إلى المنع من الضير، وناهيك في اكتساب هذه الفضيلة قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35] ولله در من قال:

وغنم مريد في انقياد لكامل له خبرة بالعلم والوقت والحال
هو الكنز الإكسير والكيما لمن أراد وصولا أو بغى نيل آمال
واعلم أنه لا يصلح للإرشاد إلا من كان على علم يهدي به العباد، فإذا مرض مريده بسبب شبهة في علم التوحيد داواه، أو تحير في مسألة من مسائل الفقه أفتاه مع قناعة تورثه الغنى عن الناس، وخوف يحجزه عن المعاصي والأدناس، وملازمة للعمل بالكتاب والسنة، فمن اجتمعت فيه هذه المزايا كملت به على المريد المنة.
وقد شرع المصنف في أوصافه وبدأ منها بقوله: (عارف بالطريقة) أي: أن يكون كاملا في العلم والعمل، وقد ذكر بعضهم الأوصاف التي ينبغي أن تكون في

الشيخ فقال:

إذا لم يكن في الشيخ خمس فوائد وإلا فدجال يقود إلى الجهل
 بصير بأحكام الشريعة عارف ويبحث في علم الحقيقة عن أصل
 يبادر للوراد بالبشر والقرى ويخضع للمسكين في القول والفعل
 فهذا هو الشيخ المعظم قدره جدير بتمييز الحرام من الحل
 وقال سيدي علي الخواص: لا يكون الرجل معدودا عندنا من أهل الطريق
 حتى يكون عالما بالشريعة المطهرة مجملها ومفصلها ناسخها ومنسوخها خاصها
 وعامها، ومن جهل حكما واحدا منها سقط عن درجة الرجال، قال الإمام الشعراني
 فقلت له سيدي: إن غالب مسلكي هذا الزمان على هذا ساقطون عن درجة الرجال؟
 فقال: نعم، إن هؤلاء يرشدون الناس إلى بعض أمور دينهم، وأما المسلك فهو من
 لو انفرد في جميع الوجود لكفى الناس كلهم من العلم في سائر ما يطلبونه، اهـ.
 قلت: وهذا جوهر نفيس لا يزال عزيز الوجود، يكاد لغزته أن يكون في حكم
 المفقود، كما قال أبو مدين الغوث:

واعلم بأن طريق القوم دراسة وحال من يدعيها اليوم كيف ترى
 ثم تمنى رؤية القوم، الذين ليسوا على ما عليه أهل اليوم، فقال:

متى أراهم وأنى لي برؤيتهم أو تسمع الأذن مني عنهموا خبرا
 وكان سيد هذه الطائفة الإمام الجنيد يقول: لا يستحق الرجل أن يكون شيخا
 حتى يأخذ حظا من كل علم شرعي، وأن يتورع عن جميع المحارم، وأن يزهّد في
 الدنيا، وأن لا يشرع في مداواة غيره إلا بعد فراغه من مداواة نفسه، ثم قال، فإياك
 ومتابعة من لم يكن على هذه الأوصاف، فإنه من جنود الشيطان، واعتبر أقواله
 وأفعاله وأحواله وزنها بميزان الشريعة والطريقة، فإن رأيت شيئا مخالفا لهما فرده،
 فإن كان صاحب حال صحيح ورددته فما عليك من رده بحكم الشرع، ولا تتخذ
 شيخا ومرشدا.

وقال أبو يزيد: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في
 الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود،
 وأداء الشريعة، وذلك لأن الكرامة ما كانت عوناً لصاحبها على ما يقربه لمولاه،
 ويقوي يقينه ويمكنه من محبته ورضاه، فإذا جرى الخارق للعادة على يد العبد، ولم

تشهد له الشريعة بالاستقامة، فهو ممكور به مخدوع، وما ألطف ما قاله بعض العارفين من قصيدة جامعة:

وللشيخ آيات إذا لم تكن له
إذا لم يكن علم لديه بظاهر
وإن كان إلا أنه غير جامع
فأقرب أحوال العليل إلى الردى
وآيته أن لا يميل إلى هوى
وإن كان ذا جمع لأكل طعامه
ولا تسألن عنه سوى ذي بصيرة
ولا تقدمن قبل اعتقادك أنه
فإن رقيب الالتفات لغيره
ولا تعترض يوما عليه فإنه
ومن يعترض والعلم عنه بمعزل
ومن لم يوافق شيخه في اعتقاده
فذو العقل لا يرضى سواه وإن نأى
ولا تعرفن في حضرة الشيخ غيره
ولا تنطقن يوما لديه فإن دعا
ولا ترفعن بالضحك صوتك عنده
ولا تقعدن قدامه متربعا
ولا باسطا سجادة بحضوره
وسجادة الصوفي بيت سكونه
وما دمت لم تفطم فلا فرجية
ولا ترين في الأرض دونك مؤمنا
فإن ختام الأمن عنك مغيب
فما هو إلا في ليالي الهوى يسري
ولا باطن فاضرب به لجج البحر
لوصفيهما جمعا على أكمل الأمر
إذا لم يكن منها الطبيب على خبر
فدنياه في طي وأخراه في نشر
مريدا فلا تصحبه يوما من الدهر
خلى من الأهواء ليس بمغتر
مرب ولا أولى بها منه في العصر
بقول لمحبوب السراية لا تسرى
كفيل بتشتيت المريد على هجر
يرى النقص في عين الكمال ولا يدري
يظل من الإنكار في لهب الجمر
عن الحق نأى الليل عن واضح الفجر
ولا تملأن عينا من النظر الشزر
إليه فلا تعدل عن الكلم النزر
فلا قبح إلا دون ذلك فاستقر
ولا باديا رجلا فبادر إلى الستر
فلا قصد إلا السعي للخادم البر
ولا وكر إلا أن يطير عن الوكر
عليك ولا تلف عليها بمستجر
ولا كافرا حتى تغيب في القبر
ومن ليس ذا خسر يخاف من المكر
"تنبيه": يجب على المريد قبل الاشتغال بالذكر والرياضة أن يحصل من علم

التوحيد ما يصبح به اعتقاده على مذهب أهل السنة والجماعة، وما يحترز به عن شبه المبتدعة، فإن القلب ما دام مكدرًا بظلمة البدعة الاعتقادية لا يستنير بأنوار الطاعة، وهذه عقيدة أكابر أهل السنة، فيجب على كل مسلم الأخذ بها، وهي أن يعتقد اعتقادًا جازمًا أن الله تعالى إله واحد منزّه عن الشريك والمعين والصاحبة والولد، موجود بذاته من غير افتتاح لوجوده، ولا نهاية لبقائه، مستغن عن كل ما سواه، ومفتقر إليه كل ما عداه، قائم بنفسه، ليس بجوهر متحيز فيحتاج إلى مكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسم فيكون له الجهة والتلقاء، مقدس عن الجهات والأقطار، مرئي للمؤمنين بالقلوب في الدنيا، وفي الآخرة بالأبصار، استوى على العرش كما قال وعلى المعنى الذي أراد، كما أن العرش وما حواه به استوى.

له الآخرة والأولى، لا يؤوده حفظ المخلوقات، وهو موجود بعلمه في جميع الجهات، مقدس عن القبل والبعد، فإن ذلك من صفات الزمان الذي أبدعه، فهو سبحانه لا يحده زمان ولا يقله مكان، بل كان ولا مكان ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان، السماوات والأرض ومن فيهن جميعا منه، خلق اللوح والقلم وأجراه كاتبًا بعلمه في خلقه، فلا تتحرك ذرة إلا إليه وعنه، أوجد الكل من غير حاجة إليه، ولا موجب أوجب ذلك عليه، إلا أن علمه قد سبق، فذلك خلق من خلق، لم تتعلق قدرته إلا بما أراد، كما أنه لم يرد إلا ما علم، ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12]، ﴿وَأَخَصَّى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: 28]، ﴿يَعْلَمُ الْسِرَّ وَآخَفَى﴾ [طه: 7]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14] علم الأشياء قبل وجودها، ثم أوجدها على حد ما علمها، مريد لجميع الكائنات في الأرضين والسماوات، فما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فوت، ولا متحرك ولا ساكن، ولا ظاهر ولا باطن، إلا وهو مراد للحق جل وعلا لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، أخرج العالم فريقين، وأوجد لهم منزلتين، فقال: هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي، لم يتصرف في ملك غيره، فلا ينسب إليه الظلم والحيث، ولا يتوجه إليه من الغير سؤال بـ«لِمَ» أو «كيف». فهو سبحانه كما قال في كتابه المكنون: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23].

فإن رأيت من لم يخضع لهذا الاعتقاد من الضالين المضلين، فاصرف النظر

عنهم وقل: لله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين، يسمع ديبب النملة على الصخرة الصماء، ويبصر السواد في الظلماء، متكلم لا عن صمت تقدم، ولا عن سكوت متوهم بكلام قديم أزلي منزه عن الحروف والأصوات، وعن جميع آلات النطق واللهات، كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان، وبصره من غير حدقة ولا أجفان، وعلمه من غير نظر ولا برهان، وحياته من غير بخار حدث عن امتزاج الأركان، وبالجمله فهو سبحانه وتعالى متصف بكل كمال، ومنزه عن كل نقص إذ هو الكبير المتعال، فلا يشبه شيئاً من الحوادث، بل كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

وكذلك يجب اعتقاد أن لله تعالى أنبياء ورسلاً مبشرين ومنذرين، وأن سيدنا محمداً رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين بعث إلى كافة الخلق أجمعين، وقد خاطبه الله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿[الأحزاب: 45-46] فبلغ جميع ما أنزله الله إليه، وأدى الأمانة ونصح الخليقة صلوات الله وسلامه عليه، ويجب اعتقاد أن كل ما جاء به النبي ﷺ حق، ومن جملة ما جاء به أن الموت حق، وأن سؤال القبر حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن العرض على الله حق، وأن الميزان حق، وأن الحوض حق، وأن الصراط حق، وأن تطاير الصحف حق، وأن الجنة والنار حق، وأن فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير، وأن شفاعة الأنبياء والملائكة والعلماء والشهداء وصالحي المؤمنين حق، وأن كل ما جاءت به الأنبياء عن الله حق.

فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي بحمد الله عقيدتنا إلى قيام الساعة، أسأل الله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يمتنعنا بالنظر إلى وجهه الكريم في الدار الفاخرة، وكذا يجب على المريد أن يحصل من علم الفقه ما تصح به أعماله على وفق الشريعة المطهرة، وإلا كانت جميع أعماله باطلة، فيصير تبعه هباء منثوراً.

"تتمة": من شرط الذكر النافع المفيد أن يأخذه المريد بالتلقين من أهل الذكر، كما أخذته الصحابة رضي الله عنهم من رسول الله ﷺ، فقد روي عن شداد ابن أوس أنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «هل فيكم غريب؟» يعني من أهل الكتاب، قلنا: لا يا رسول الله، فأمر بغلق الباب، وقال: «ارفعوا أيديكم وقولوا: لا

إله إلا الله»، فرفعنا أيدينا وقلنا: لا إله إلا الله، ثم قال رسول الله ﷺ: «أبشروا فإن الله قد غفر لكم».

وأما تلقين الذكر فرادى، فروي أن عليا كرم الله وجهه قال: يا رسول الله دلني على أقرب الطرق إلى الله وأسهلها عبادة، فقال ﷺ: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله»، ثم قال علي ؓ: كيف أذكر يا رسول الله؟ فقال: «غمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات، ثم قل أنت ثلاث مرات، وأنا أسمع»، فقال ﷺ: «لا إله إلا الله» ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته وعلي ؓ يسمع، ثم قال علي ؓ لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته والنبي ﷺ يسمع. قلت: وهذا أصل سند القوم في التلقين.

ثم بعد ذلك يأمر الشيخ المريد بما يليق به من الأوراد؛ ومن آداب الذاكر أن يكون على طهارة كاملة، وأن يكون حاضر القلب مستقبل القبلة، غاضا بصره، مستحضرا لشيخه، فإنه إذا استحضر شيخه في حال الذكر ولاحظ استمداده منه، تتحرك سلسلة الطريق إلى الحضرة النبوية، فيكتسب عند ذلك أعظم مزية بتوارد الإمدادات المصطفوية، وبقية الآداب المذكورة في المطولات، فعليك بمطالعة كتب الأكابر السادات.

وينبغي للمريد أن يلازم ما يعينه له أستاذه من الأذكار خصوصا لا إله إلا الله، لما في الحديث القدسي: «لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي»، وفي الحديث: «إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل وما جلاؤها يا رسول الله قال ذكر الله عز وجل»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة: فقال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه».

واعلم أن الذكر ثقيل على الذات الخبيثة لأنها سقيت بالظلام، وفي الذكر نور، وهي لا تقبل ما لا يوافق طبعها إلا بالمجاهدة، فتدبر ذلك والله يتولى هداك، وهو يتولى الصالحين.

[أوصاف الشيخ المرشد]

ثم وصف المصنف رضي الله عنه الشيخ العارف بقوله:

16 | مَحَا لِحُظُوظِ النَّفْسِ بِالْعِلْمِ وَالتَّقَى نَصُوحٌ كَرِيمٌ بِالْعُلُومِ السَّيِّئَةِ

أي: من أوصاف الشيخ المرشد أن يكون قد (محا لحظوظ النفس) الأمانة بالسوء من شهواتها القتالة (بالعلم) الذي أفاضه الله عليه، (والتقى) الذي قرب به إليه، فإن النفس طبعت على مخالفة العقل وموافقة الهوى، وحب الشر ومجانبة التقوى، فإذا عاملها الإنسان بمخالفة هواها، رجعت إلى طاعة من ألهمها فجورها وتقواها.

ومن أوصاف الشيخ أيضا أنه (نصوح) أي: كثير النصح لما في الحديث: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». وقد أشبعنا الكلام على هذا الحديث في شرح الأربعين النووية فانظره إن شئت.

ومن كلام سيدي علي الخواص: الزموا النصح والاستشارة لإخوانكم، فإنهما بمنزلة تنبيه النائم أو الغافل. وقوله: (كريم بالعلوم السنية) أي: أنه يبيث العلوم الشريفة التي أفاضها الله عليه فيلقياها على من رآه أهلا لها وإن لم يسأله عنها، فإن الكريم هو الذي يبادر بالنوال قبل السؤال، وأما من لم يكن أهلا لها فليس له حظ في نوالها، كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

سأكنتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي ولا أنثر الدر النفيس على الرمم
فإن يسر الله الكريم بفضله وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
بثت مفيدا واستفدت ودادهم وإلا فمخبوء لدي ومكتم
فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

17 | تَجَلَّى لَهُ الرَّغْبُوتُ وَالْهُوتُ فِي السَّرَى وَنَاسُوتُهُ بِالسَّرِّ حَجَّتْ وَلَبَّتْ

قال السيد الشريف في تعريفاته: التجلي: هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، وإنما جمع الغيوب باعتبار تعدد موارد التجلي فإن لكل اسم إلهي بحسب محيطه ووجوهه تجليات متنوعة.

وقال في موضع آخر: التجلي الذاتي: ما يكون مبدؤه الذات من غير اعتبار صفة من الصفات معها وإن كان لا يحصل ذلك إلا بواسطة الأسماء والصفات، إذ لا يتجلى الحق من حيث ذاته على الموجودات إلا من وراء حجاب من الحجب الاسمائية.

والتجلي الصفاتي: ما يكون مبدؤه صفة من الصفات من حيث تعيينها وامتيازها عن الذات اهـ.

فالمعنى هنا أنه كشف الحجاب عن قلب هذا العارف فشهد تجلي (الرغبات) بفتح الغين المعجمة لكنه في البيت مسكن لأجل الوزن وهو مبالغة في الرغبة، أي: المرغوب فيه كثيرا وهو المراد بقول ابن العربي في قصيدته:

تجلى لي النور الأعم بكنهه فشاهدت ذاك النور في كل صورة
ومن حل بالبيت المعظم قدره فقبلته صارت إلى كل وجهة

(والهوت) المراد به اللاهوت وهو سر الألوهية، قال الواحدي: يقولون: لله لاهوت، وللإنسان ناسوت. ويقال: اللاهوت الروحانية، والناسوت البشرية، كما قال ابن الفارض:

ولم أله باللاهوت عن حكم مظهري ولم أنس بالناسوت مظهر حكمتي
ومراده: أن المقام الذي تغلب عليه فيه الروحانية، لا يليه عن وظائفه العبودية، كما أنه لم ينس بناسوته، أي: بشريته مظهر الحكمة في إيجاد المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، والتعبير باللاهوت والناسوت لغة عبرانية، وقد كفرت النصارى بقولهم: إن اللاهوت وهو الله تعالى تلبس بالناسوت، أي: جسد عيسى ودخل فيه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وقوله: (في السرى) بضم السين المهملة وفتح الراء، أي: في مقام السير والسفر الذي قطع فيه مفاوز البعد عن الله، وتقرب إليه بما يحبه ويرضاه. فتحقق في حضرة الإسعاد بأنواع الكمال، واكتسى بعد التحلل من حرمان الإحرام بحلل

الجمال، ولذا قال: (وناسوته بالسر حجت ولبت) أي: وقد حجت ذاته بمعنى قصدت جناب الحق ولبت، أي: أجابت داعي القرب إليه بسبب ما أودع فيها من السر، قال بعض أهل الإشارات: الحج حجان حج جسماني، وحج روحاني، فالحج الجسماني إلى كعبة المباني، والحج الروحاني إلى حضرة التداني. فمن حج إلى كعبة المباني خصصته بغفراني، ومن حج إلى حضرة التداني كشفت عنه الحجب حتى يراني، وجعلته من ندمائي، وخلعت عليه خلعة رضوني. جعلنا الله من جملة الأحاب، إنه حلیم كريم عظیم وهاب.

وفي تعريفات السيد الشريف ما نصه: السفر عند أهل الحقيقة عبارة عن سير القلب عند أخذه في التوجه إلى الحق بالذكر، والأسفار أربعة:

السفر الأول: هو رفع حجب الكثرة عن وجه الوحدة، وهو السير إلى الله من منازل النفس بإزالة التعشق من المظاهر والأغيار إلى أن يصل العبد إلى الأفق المبين وهو نهاية مقام القلب.

السفر الثاني: هو رفع حجاب الوحدة عن وجوه الكثرة العلمية الباطنة وهو السير في الله بالاتصاف بصفاته والتحقيق بأسمائه وهو السير في الحق بالحق إلى الأفق الأعلى وهو نهاية حضرة الواحدية.

السفر الثالث: هو زوال التقيد بالضدين الظاهر والباطن بالحصول في أحدية عين الجمع وهو الترقى إلى عين الجمع والحضرة الأحدية وهو مقام قاب قوسين ما بقيت الاثنينية فإذا ارتفعت فهو مقام أو أدنى وهو نهاية الولاية.

السفر الرابع: عند الرجوع من الحق إلى الخلق وهو أحدية الجمع والفرق بشهود اندراج الحق في الخلق، واضمحلال الخلق في الحق حتى يرى عين الوحدة في صورة الكثرة، وصورة الكثرة في عين الوحدة، وهو السير بالله عن الله للتكميل وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع اهـ.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

18 | وَقَدْ جَالَ فِي مَلَكُوتِ كُلِّ حَاصِلٍ كَذَا رَهْبُوتُ الْغَيْبِ مِنْ غَيْرِ شُبْهَةٍ

يقال: (جال) في البلاد طاف، و(كل) بالرفع على الفاعلية و(الملكوت) بفتح

الميم واللام لكن اللام في البيت مسكنة لأجل الوزن، هو عالم الغيب أعني: عالم الأرواح والنفوس، كما أن عالم الملك هو عالم الشهادة، أعني: عالم الأجساد والجسمانيات.

وأما عالم الجبروت فهو أعلى من عالم الملكوت لأنه مأخوذ من الجبر وهو القهر لأن العباد مقهورون عن إدراك كنهه ما عدا أهل الصفوة والاجتباء، وهو عند أبي طالب المكي عالم العظمة يريد به عالم الأسماء والصفات الإلهية وعند الأكثرين عالم البرزخ المحيط بالأمريات الجمّة، ويقال: الجبروت علم الذات والملكوت علم الأسماء والصفات الدالة على الذات. والملك علم فعله الظاهر الدال على ما سبق، ويقال: الإنسان روح ثم نفس ثم جسم، فالروح عالم الجبروت، والنفس عالم الملكوت، والجسم عالم الملك فالروح الجبروتي مظهر الذات والنفس الملكوتي مظهر الأسماء والصفات والجسم الملكي مظهر الأفعال. فالمعنى هنا: وقد جال في نفس هذا العارف كل شيء حاصل حتى أطلع عليه.

وقوله: (كذا رهبوت الغيب) بفتح الراء والهاء مبالغة في الرهبة، كما أن الرغبوت مبالغة في الرغبة، والرحموت مبالغة في الرحمة، يعني: أن هذا العارف جال في نفسه شدة الرهبة من الله تعالى حيث صار من أرباب هذه المقامات العلية الذين شربوا من كؤوسها السنية ففئيت ذاتهم في مقام الرهبوت، ثم بقيت في مقام الرغبوت وتحلت بحلل في مقام الرحموت فهم دائماً في مقام التسليم للحى الذي لا يموت.

واعلم أن التجليات الغيبية لا تزال متوالية على قلب الكامل لأجل الإمداد فتارة ترد من تنزلات حضرة اسمه تعالى القابض فتحصل الخشية والرهبة ويكون صاحب هذا المقام في قبض ما دام عليه هذا التجلي، وتارة ترد من تنزلات حضرة اسمه تعالى الباسط فيحصل الانبساط لصاحب هذا المقام وتغلب عليه الرغبة.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

19	وَسَارَ بِعَزْمٍ فِي كَرَّاسِي عُرُوشِهِ وَطَارَ بِسِرِّ السَّرِّ فِي حَالِ نَشْأَةِ
----	--

أي: وسار هذا العارف (بعزم) وقوة (في كراسي) جمع كرسي (وعروشه) جمع عرش، وهي كناية عن المقامات العالية التي أعدها الله تعالى لأوليائه، فلا

يقف في حال سيره بل يكون ملاحظاً نداء هواتف كل مقام المقصود أمامك وطار هذا العارف أيضاً (بسر السر) الذي أطلعه الله عليه وحجبه عن غيره.

قال السيد الشريف: السر لطيفة مودعة في القلب كالروح في البدن، وهو محل المشاهدة كما أن الروح محل المحبة، والقلب محل المعرفة، وسر السر ما تفرد به الحق عن العبد كالعلم بتفصيل الحقائق في إجمال الأحدية وجمعها واشتمالها على ما هي عليه ﴿وَعِنْدُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59] اهـ.

قلت: ولا مانع من كونه تعالى يطلع على غيبة بعض أصفائه كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) إِلَّا مَن أَرَزَقْنِي مِّن رَّسُولٍ [الجن: 26 - 27] يعني: أو ولي كما قاله بعض العارفين، والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم لم ينتقل من هذه الدار حتى أطلعه الله على مفاتيح الغيب فلتكن بعض خواص أمتك كذلك بطريق الوراثة المحمدية والله أعلم. ولذا قال سيدي مصطفى البكري في شرح قوله: «وبسر سر سر» أي: غيبك المخزونة أسرار المكنونة أنواره المضمون به على غير أهله الذي لا يطلع عليه إلا من اخترته لشرب نهله اهـ.

ومن كلام بعض العارفين: صدور الأحرار قبور الأسرار. فإن الله تعالى يغار أن تبدو أسرار المصونة لقلوب بشهود الغير مفتونة وأنشد بعضهم في ذلك:

ومستخبر عن سر ليلي وددته بعمياء من ليلي بغير يقين
يقولون خبرنا فأنت أمينها وما أنا إن خبرتهم بأمين
وقوله: (في حال نشأة) أي: في حال النشأة التي أنشأ الله عليها وأعطاه بها هذا المقام.

ومما حكى عن عبد الله السكندري أنه قال: خرجت إلى البرية لعلني أرى أحداً من الرجال الأخيار فرأيت جارية فقلت في نفسي: كان اجتماعي برجل أولى من امرأة، فقالت: يا أبا عبد الله تريد الاجتماع بالرجال وأنت لم تصل إلى مقام النساء فقلت: ما أكثر دعواك؟ فقالت: الدعوى بغير بينة باطلة. فقلت: فما بينتك؟ فقالت: هو لي كما أريد لأنني له كما يريد. ثم قالت: ما تريد في هذه البرية؟ فقلت سمكا مشويا. فقالت هذا من ضعف عقلك ونزول مقامك هلا طلبت منه جناحاً من الشوق تطير به كطيراني ثم طارت في الهواء.

واعلم أنه متى ظهرت الروح وزال الحجاب الذي بينها وبين الذات أمدتها بصفائها الحسي فيحصل في الذات صفاء حسي تنقطع به حظوظ الشيطان لتغذي العروق بماء الصفاء وحينئذ عدها بالصفاء المعنوي حتى يصير للذات ما للروح. ومعلوم أن الله تعالى أعطى الروح قوة السريان فتخرق الأجرام والجبال والصخور والجدران ونحو ذلك وتذهب حيث شاءت، فإذا أسكنت الروح إلى الذات وأحببتها أمدتها بتلك القوة فتخرق الذات الأشجار وتدخل البيوت المغلقة وتطير في الهواء وتقطع المفاوز الوعرة الواسعة في الزمن القريب جدا فلولا هذه القوة التي سرت من الروح للجسم لما أمكنه ذلك.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

20 | يُضِيءُ كَضْوَاءِ الشَّمْسِ تَبْدُو لِنَازِرٍ لَهُ هِمَّةٌ تُبْرِئُ عَليْلَ الْجِبَلَةِ |

أي: يضيء هذا العارف بأنوار المعارف التي فيه كضوء الشمس عند انكشافها حال كونها تبدو أي: تظهر لناظر لها ليس دونها سحاب وقوله: (له همة) أي: لهذا العارف همة، أي: توجهات قلب (تبري) بضم المثناة، أي: تشفي (عليل الجبلية) بكسر الجسم والموحدة وتشديد اللام، أي: الطبيعة، والمعنى أن همة هذا العارف تشفي مرض القلب كما وضح ذلك المصنف رضي الله عنه بقوله:

21 | حَكِيمٌ يُدَاوِي الطَّالِبِينَ بِطَبِّهِ خَبِيرٌ بِدَاءِ الْقَلْبِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ |

يعني أنه ذو حكمة ومعرفة بالطب الروحاني لأنه (يدأوي الطالبين) لأوج الكمالات (بطبه) الذي يوصل صحة قلوبهم إلى أعلى الدرجات. قال ابن دريد: كل كلمة وعظمتك وزجرتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة. وقوله (خبير) أي: عنده خبرة (بداء القلب) من الغش والحقد والحسد وحب الرياسة ونحو ذلك فيصف لصاحبه ما يزيله عنه (في كل لحظة) أي: زمن يسير بقدر ما يلحظ بالعين.

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

22 | يَرَى بِعُيُونِ الْقَلْبِ مَا كَانَ خَافِيًا وَيُدْرِكُ بِالْأَبْصَارِ حُجَبَ الْأَكِنَّةِ |

أي : ومن شأن هذا العارف أن يكون من أهل البصيرة وهي عين في القلب يبصر بها الأشياء كما يبصر بالعين الباصرة فإذا قويت بصيرته صارت كأنها عيون في قلبه يبصر بها ما كان خافيا وفي الحديث : «من أراد الله به خيرا فتح له قفل قلبه وجعل فيه اليقين» يعني : أزال عن قلبه حجب الإشكال وفتح بصيرته للنظر لمراتب الكمال فيصير قابلا للفيض السبحاني ، مستمدا من المدد الرحماني ، حتى إذا هبت رياح الألطاف ، وتدانت مواهب الإسعاف أشرقت على قلبه الأنوار فيرى ما كان خافيا على الأغيار وقوله : (ويدرك بالأبصار) جمع بصر ، أي : العيون . (حجب) جمع حجاب وإنما سكنت الجيم لضرورة النظم أي : يدرك الحجب التي هي (الأكنة) فالإضافة بيانية ، أي : التي تكن الشيء وتستره فيزيلها عن المرید بطبه الروحاني حتى لا يكون هناك حجاب يمنعه عن الوصول إلى رفيع الدرجات والوصول على ما يلحقه بالأكابر السادات .

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

23 | وَأُدْرَجَ فِي التَّوَجِّهِ فِي طَيِّ غَيْبِهِ غُيُوثُ عُيُونِ الْغَيْثِ كَنْزُ الذَّخِيرَةِ |

الظاهر أن قوله : (وأدرج) مبني للمفعول ، وقوله : (في طي غيبه) متعلق به ونائب الفاعل قوله : (غيوث). وقوله : (كنز الذخيرة) بدل منه ، وقوله : (في التوجيه) أي : في حال توجهه إلى الله تعالى . والمراد (بطي غيبه) : سره الذي هو اللطيفة المودعة في القلب كالروح في البدن فالمعنى أن هذا العارف صار سره في حال التوجه إلى الله تعالى محلا لقبول غيوث عيون الغيب التي هي الأسرار والعلوم المفاضة عليه من حضرة عالم الغيب والشهادة وهي كنز الذخيرة للعارف والله تعالى أعلم .

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

24 وَأُذِرْجَتِ الْأَكْوَانُ فِي غَيْبِ ذَاتِهِ كَأِذْرَاجِ مَيِّتٍ فِي قَمِيصٍ وَعِمَّةٍ

أي : ومن شأن هذا العارف أن الأكوان عنده قد أدرجت في غيب أي : مغيب ذاته عنها فلا يشهد شيئاً في الكون سوى مولاه ثم شبه ذلك بقوله : (كإدراج ميت) بتخفيف الياء أي : إدخاله بعد فقد الحياة في قميص وعمة ، ولذا قال بعض العارفين : من علت همته عن الأكوان وصل إلى مكوناتها ، ومن وقف بهمته على شيء دون الحق فإنه الحق لأنه أعز من أن يرضى معه بشريك ، ولله در أبي الحسن التستري حيث قال في هذا المعنى :

فلا تلتفت في السير غيراً فكل ما
سوى الله غير فاتخذ ذكره حصناً
وكل مقام لا تفهم فيه أنه
حجاب فجد السير واستنجد العونا
ومهما ترى كل المراتب تجتلي
عليك فحل عنها فغن مثلها حلنا
وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب
فلا صورة تجلى ولا تحفة تحبنى
ويحتمل كون المعنى أن ذاته جامعة لما في الأكوان على حد ما قيل :

ودواؤك فيك وما تشعر
ودواؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي
بأحرفه يظهر المضمّر

ومعنى البيت الأول : أن الداء الذي يعتر الإنسان ناشئ من نفسه الأمانة بالسوء فإذا جاهدوها وصارت مطمئنة راضية كان ذلك عين الدواء ، ومعنى قوله : وفيك انطوى العالم الأكبر كما أفاده شيخنا العروسي في الرسالة القشيرية : أن الإنسان الكامل كتاب جامع لما في أم الكتاب وما في اللوح المحفوظ وما في الصحف المطهرة إذ هو نتيجة العالم الأكبر ، فهو من حيث روحه وعقله كتاب مسمى بأم الكتاب ، ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفوظ ، ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات وهذه هي الصحف المكرومة المرفوعة المطهرة التي لا يمسه ولا يدرك أسرارها ومعانيها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية ويتفرع عن هذه الكتب كل شيء في الوجود من القوى الروحانية والجسمانية وغيرها مما ينتقش فيها أحكام

الموجودات، وقال في موضع آخر: فأنت أيها الإنسان إذا كنت جامعا لمعاني الأكوان فلا تحتجب بك عنك بل افهم حقائق العرفان ترق لحضرة العيان، وقد قيل في ذلك:

إذا كنت كرسيا وعرشا وجنة وندارا وأفلاكا تدور وأملاكا
وكنت من الكلي نسخة كله وأدركت هذا بالحقيقة ادراكا
فقيم الثاني بالحضيض منبسطا مقيم مع الأسرى أما آن إسراكا
اه

وقال في الفيوضات الإحسانية: قد انطوى في ابن آدم العالم الكبير، فما في الأرض من جبال فهو بمنزلة العظام، وما فيها من بحار عذبة وغير عذبة فهو بمنزلة ما أودع في فمه وعينه، وما فيها من نبات فهو بمنزلة الشعر، وما فيها من سبخ فهو بمنزلة ما لا ينبت الشعر من بدنه، وما فيها من سهل ووعر فهو بمنزلة ما فيه من الخلق الحسن والسيئ، وما في الكون من شمس فهو بمنزلة الروح لأن الجسد يستضيء فإذا غابت أظلم، وما في الكون من قمر فهو بمنزلة العقل، فالهلال بمنزلة عقل الطفل، ثم يزد إلى أن يكمل، والكواكب الخمسة السيارة بمنزلة الحواس الخمس وهي الذوق والشم واللمس والسمع والبصر، والجنة النار بمنزلة ما فيه من الغضب والرضا، والليل والنهار بمنزلة ما فيه من الحزن والسرور، والفصول الأربعة التي في السنة وهي الصيف والشتاء والخريف والربيع بمنزلة الطبائع الأربعة، والنوم بمنزلة الموت، واليقظة بمنزلة البعث، وما يراه النائم من الرؤيا الحسنة أو السيئة بمنزلة النعيم أو العذاب إلى غير ذلك، اه ملخصا.

وما ألطف قول بعضهم:

إذا كنت تقرأ علم الحروف	فشخصك لوح به أسطر
وتمثال ذلك أنموذج	لكل الوجود لمن يبصر
ففيك أشعة لاهوته	من البدر يا ذا النهى أنور
وشمس المعارف أنوارها	من الشمس في ضوئها أظهر
لقد ظهرت بسماء القلوب	خفايا الغيوب لمن ينظر
سماء على قطب توحيده	تدور اشتياقا فلا تقصر

لها من أشعة عرفانه نجوم بإخلاصها تزهـر
فمشرقها أفق سودائها ومغربها سره المضمـر
وعرش الصفاء لها مركز إليه انتهى كل ما يسطـر
وهناك المليك تجلى لها وأوحى لها كل ما يؤمر
وبتدبر هذا تفهم قوله سبحانه في الحديث القدسي: «ما وسعني أرضي ولا
سمائي وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن» فإن المراد تجليه عليه.
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

25	وَيُخْبِرُ بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ وَقُوعِهَا	مِنَ اللَّوْحِ يَقْرَاهَا بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ
----	---	---

أي: ومن شأن هذا العارف الكامل في المعرفة أنه (يخبر بالأشياء) المعلومة
في باطن الغيب (قبل وقوعها) في عالم المشاهدة بعد أن (يقراها) (من اللوح)
المحفوظ بعين بصيرته، و«يقراها» في البيت بدون همزة لأجل الوزن، وقد أطلع الله
بعض خواصه على ما في اللوح المحفوظ الجامع لكل شيء لقوله تعالى: ﴿وَلَا حَبْوَ
فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

وقد كان سيدي جاكير الكردي يقول: ما أخذت العهد قط على مريد حتى
رأيت اسمه مكتوبا في اللوح المحفوظ، وأنه من أولادي.

وقال سيدي إبراهيم الدسوقي: إذا كمل العارف في مقام العرفان أورثه الله
علما بلا واسطة، وأخذ العلوم المكتوبة في ألواح المعاني، ففهم رموزها، وعرف
كنوزها، وفك طلسماتها، وعلم اسمها ورسمها، وأطلعه الله تعالى على العلوم
المودعة في النقط، ولولا خوف الإنكار لنطق بما يبهر العقول، ثم قال: وكذلك
للعارفين اطلاع على ما هو مكتب على أوراق الشجر والماء والهواء وما في البر
والبحر وما هو مكتوب على صفحة قبة خيمة السماء وما في جباه الإنس والجن مما
يقع لهم في الدنيا والآخرة، وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب بلا كتابة من
جميع ما فوق الفوق وما تحت التحت، ولا عجب من حكيم يتلقى علما من حكيم
عليم، فإن مواهب السر اللداني ظهر بعضها في قصة موسى والخضر عليهما السلام،
اهد.

وقوله: (بعين البصيرة) هي قوة القلب المنور بنور القدس، يبصر بها حقائق الأشياء كما يبصر الإنسان بالعين الباصرة، بل عين البصيرة أقوى في الإدراك. قال ابن العربي: لا تنكر على الصوفية النطق عن الغيب مع إيمانك بالمثل المحسوس وهو أن المرأة إذا صقلت وجلت عنها الصداء تجلت صورة الناظر فيها، فإن جاء أحد خلفه تحت صورته في المرأة أبصره على أي صورة هو، ولم يره بعينه المعهودة، فمن عهد إلى امرأة قلبه فجلاها من صداء الأغيار وأماط عنها كل حجاب يحجبها عن تجلي صور المعقولات والمغيبات بأنواع الرياضات نطق عما يشاهده، وتحقق بمقام: ما كذب الفؤاد ما رأى اهـ.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

26 | مَتَيْنُ الْحِجَا يَدْعُو إِلَى الرُّشْدِ بِالْهُدَى | وَقَدْ جَاءَنَا تَشْبِيهُهُ بِالنُّبُوَّةِ

يعني أن من شرط الشيخ أن يكون (متين الحجا) بكسر الحاء المهملة وتخفيف الجيم، أي: قوي العقل، لأنه مرشد فلا بد أن يكون كامل العقل بخلاف المجذوب المأخوذ عقله، فلا يصلح للإرشاد ومداواة علل العباد، وكما أن العقل يسمى «حجا» كذلك يسمى «نهية» لنهاية صاحبه عن المعاصي، والجمع «نهى» قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: 54] أي: لأصحاب العقول، ويسمى أيضا «لبا» ويجمع على «اللباب»، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 21]، ومن أسمائه «القلب»، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] أي: عقل، كما فسر به ذلك ابن عباس، ومن أسمائه «الحجر» بكسر الحاء المهملة وسكون الجيم، قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّئِي حَجْرٍ﴾ [الفجر: 5] أي: عقل، سمي بذلك لأنه يحجر صاحبه عما لا ينبغي، كما أنه سمي عقلا لكونه يعقل صاحبه عن ارتكاب ما لا يليق، وله أسماء غير هذه، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى غالبا.

وقد ورد أن أفضل ما خلق الله العقل، فإن به الأخذ وبه العطاء، ولذا قال بعضهم:

وأفضل قسم الله للمرء عقله فليس من الأشياء شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أخلاقه ومآربه

وقال آخر:

ما وهب الله لامرئ هبة أحسن من عقله ومن أدبه
 هما جمال الفتى فإن فقداه ففقداه للحياة أجمل به
 وقوله: (يدعو) أي: يطلب هذا العارف الناس (إلى الرشد) بضم الراء وهو
 خلاف الغي، فيرشدهم إلى ما فيه الصلاح (بالهدى) أي: الدلالة على سلوك سبيل
 الفلاح (وقد جاءنا) معشر أهل السنة (تشبيهه) في حال إرشاده للعباد (بالنبوة) من
 حيث إن الجامع بينها الدلالة على سبيل الرشاد، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو
 إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]. وقال ابن عباد في شرح الحكم
 نقلا عن ابن القاسم القشيري: ورد في الخبر «أن الشيخ في أهله كالنبي في أمته».
 وقال ابن العربي في الفتوحات:

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله فقم بها أدبا لله بالله
 هم الأدلاء والقربى تؤيدهم على الدلالة تأييدا على الله
 الوارثون همو للرسول أجمعهم فما حديثهموا إلا عن الله
 كالأنبياء تراهم في محاربهم لا يسألون من الله سوى الله
 ثم قال: فالشيخ نواب الحق في العالم كالرسول عليهم الصلاة والسلام في
 زمانهم، بل هم الورثة الذين ورثوا الشرائع عن الأنبياء غير أنهم يشرعون، فلهم
 رضى الله عنهم حفظ الشريعة في العموم وما لهم التشريع ولهم حفظ القلوب
 ومراعاة الآداب في الخصوص، اهـ.

فالمقصود أن من قام في مقام الإرشاد يكون على قدم النبي في دلالاته الناس
 على ما ينفعهم يوم التناد، وإن ظهرت من الولي كرامة فهي في الحقيقة معجزة لنبية
 الذي هو تابع له، إذ لو يكن ذلك الرسول صادقا لم تظهر على يد من تبعه الكرامة،
 ونهايات الأولياء في الكرامات بدايات الأنبياء عليهم السلام في المعجزات، كتسليم
 الحجر والشجر على نبينا صلى الله عليه وسلم في أول أمره، وذلك لأنهم أتباع ولا
 قوة للتابع على غير مبادي المتبوع.

ثم إن الفرق بين المعجزة والكرامة وإن كان كل منهما خارقا للعادة: أن
 المعجزة إنما تكون ممن يدعي النبوة فتكون دليلا على صحة دعواه بخلاف الولي

فإنه لا يدعي ذلك، فإن النبي مأمور بإظهار المعجزة الدالة على صدقه، والولي مأمور بإخفاء الكرامة التي أجراها الله على يده، نعم يجوز إظهارها إذا رأى أمراً لا يصح السكوت عليه، كما اتفق أن بعض الفلاسفة حضر مجلس سيدي محي الدين ابن العربي ومعه بعض أكابر الصوفية في زمن الشتاء وبين أيديهم نار يوقدونها، فقال: إن العامة تقول إن إبراهيم عليه السلام ألقى في النار فلم تحرقه مع أن النار محرقة بطبعها والحقائق لا تتبدل، وأنكر ما جاءت به الأنبياء من خرق العوائد، وتأول قوله سبحانه: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69] بأن النار في الآية عبارة عن غضب نمرود، فهي نار الغضب لا النار الحقيقية المحرقة، فقال له بعض الحاضرين: أنا أقوم لك في هذا المقام مقام إبراهيم، لترجع عن إنكارك، أليست هذه النار المحرقة بطبعها؟ قال: نعم، فوضعها في حجر المنكر وأمره أن يقلبها بيده، فقلبها بيده مدة وهي لا تؤثر فيه ببركة من كانت هذه الكرامة على يده، ثم ردها في مكانها وقال له: قرب يدك منها فقرب يده فأحرقته، فقال له: هكذا كان الأمر، فإنها مأمورة تحرق بالأمر وتترك الإحراق كذلك، فاعترف الفيلسوف ورجع عن إنكاره، لكن بعد أن أحرقه الله بناره.

وقد قسموا الأمر الخارق للعادة إلى ستة أقسام جمعها بعضهم في قوله:

إذا ما رأيت الأمر يخرق عادة	فمعجزة إن من نبي لنا صدر
وإن بان منه قبل وصف نبوة	فالإرهاص سمه تتبع القوم في الأثر
وإن جاء يوماً من ولي فإنه الـ	كرامة في التحقيق عند ذوي النظر
وإن كان من بعض العوام صدوره	فكنوه حقاً بالمعونة واشتهر
ومن فاسق إن كان وفق مراده	يسمى بالاستدراج فيما قد استقر
وإلا فيدعى بالكهانة عندهم	وقد تمت الاقسام عند الذي اختبر

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

27	لَهُ قَدَمٌ فِيمَا يَقُولُ وَيَدْعِي	وَتَضَرِيفُهُ فِيهِ بِحُكْمِ الْمَشِيئَةِ
----	--------------------------------------	---

أي: لهذا العارف (قدم) بفتح القاف والذال أي: رسوخ وتمكن (فيما يقول) هـ (ويدعي) هـ لما أفاضه الله عليه من مواهب الفضل والامتنان، فكل دعوى يقوم عليها

من حاله ألف شاهد وبرهان، (وتصريفه فيه) أي: تصريف هذا العارف فيما يقوله ويدعيه بأن يمضيه أو لا يمضيه، كائن (بحكم المشيئة) أي: مشيئة الله تعالى الذي جعل له هذا التصريف، ومن كلام العارف الشعراني تحدثا بالنعمة التي أسبغها الله عليه: مما من الله علي أنه مكنتني من كن فلو قلت لجبل: كن ذهباً، لكان ولكن أدبا مع الربوبية لا أنطق بذلك.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

28 | يُصَرِّفُ أَقْوَامًا وَمَيِّدَانُ سِرِّهِ جَلَا غَيْهَبَ الْأَسْرَارِ مِنْ كُلِّ بُقْعَةٍ

يعني أن هذا العارف بما جعله الله له من التصريف (يصرف) بحكم المشيئة (أقواما) بحسب مراتبهم ودرجاتهم فيعطي كل إنسان ما يستحقه، والحال أن (ميدان سره جلا) بفتح الجيم واللام أي: كشف (غيب الأسرار) والميدان في الأصل محل تسابق الفرسان، والغيب شدة سواد الليل، والمراد هنا أن هذا العارف يكشف بنوره سره الواسع غيب الأسرار، أي: الخفاء الذي هو فيها بمنزلة السواد، وقوله: (من كل بقعة) أي: من كل قلب من القلوب التي حل فيها سره، فتعود الأسرار من سره ظاهرة نيرة ببركة حلوله عند أربابها.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

29 | لَهُ الْفَضْلُ وَالْإِجْلَالُ وَالْفَخْرُ وَالْعِلَاءُ مِنْ اللَّهِ وَالتَّوْفِيقُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ

أي: لهذا العارف (الفضل) من الله، أي: مزيد العطاء جزاء له، قال تعالى في محكم القرآن: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: 60] أو له الفضل على المريد حيث أرشده لطاعة الغني المجيد، وله أيضا (الإجلال)، أي: التعظيم من المريد لتعظيم ذي العزة والجلال، وله أيضا (الفخر) أي: الافتخار بما أعطاه الله، من باب قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11] أو أن الله تعالى يفاخر به ملائكته، وله أيضا (العلا) أي: الرفعة من الله الذي قربه إليه تفضلا منه تعالى لا وجوبا عليه، وله أيضا (التوفيق) منه تعالى (في كل لحظة) من اللحظات ولمحة من اللمحات، أسأل الله التوفيق لأقوم طريق.

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

30 هُنَاكَ لَهُ الْإِمْدَادُ فِي كُلِّ طَالِبٍ يَدْعُهُ كَمَا الْإِبْرِيْزُ فَوْقَ الْبَسِيْطَةِ

أي: عندما تفاض المواهب على هذا العارف يكون (له الإمداد) أي: أعطاه المدد الذي يسري منه (في كل طالب) للوصول إلى ما وصل إليه القوم بعد سلوك طريقهم، حتى يدع المريد السالك (كما الإبريز) بزيادة «ما» أي: مثل الإبريز، وهو الذهب الخالص من الغش، وقوله: (فوق البسيطة) أي: الأرض، فالعارف الموصوف بهذه الأوصاف المتقدمة يكون له من جانب الحق المدد الذي يسري منه في كل طالب للوصول على يديه بحسب استعداده حتى يخلصه من شوائب الأغيار، كما يخلص الصائغ الذهب الإبريز من الغش الذي فيه بالنار، وإنما سكن العين من «يدعه» لضرورة الوزن، ثم لما فرغ المصنف من أوصاف الشيخ الذي ينبغي أن يكون مرشدا شرع في أوصاف المريد وبيان الآداب التي تلزمه فقال:

[آداب مريد الطريق]

31 | وَفَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُؤَدِّبًا لَدَى شَيْخِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَسَاعَةٍ

أي: ويجب على الطالب لطريق المقربين وهو المريد أن يكون (مؤدبا) بآداب أهل الطريق (لدى) أي: عند شيخه، ليحصل له نتيجة ما يلقيه إليه (في كل وقت) مأخوذ من التوقيت وهو التحديد، والمراد به الزمان وبالساعة القطعة منه.

واعلم أن المريد هو الذي عن مراد ربه لا يحيد، ملازم للأعتاب، مترجي فتح الباب، مجتهد في العبادات، متعرض للرحمات، ذاكر للزلات، باذل عليها العبرات، رافع أكف الضراعة لمن لا يضيع من أطاعه، فأول ما يخرق له من العادة تسمية باسم المريد مع كونه مسلوب الإرادة، وما ألطف قول بعضهم:

تكون مريدا ثم فيك إرادته إذا لم ترد شيئا فأنت مريد
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

32 | لِيُبْدِيَ لَهُ الْإِشْكَالَ فِي كُلِّ صُورَةٍ وَيُلْقِي لَهُ مِنْ سِرِّ السِّرِّ الْحَقِيقَةَ

أي: ليظهر المريد له، أي: لشيخه (الإشكال)، أي: إشكال ما ورد عليه من خفي الأمور (في كل صورة) وردت عليه (ويلقي) أي الشيخ (له) أي: للمريد (من سر) أي: خلاصة (سر الحقيقة) حتى يزول الإشكال. وقال ابن العربي: السر يطلق على معان فيقال: سر العلم بإزاء حقيقة العلم به، وسر الحال بإزاء معرفة مراد الله، وسر الحقيقة بإزاء معرفة ما تقع به الإشارة.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

33 | وَيُضَحِّبُهُ كَالْمَيْتِ فِي حَالِ غُسْلِهِ يُقَلِّبُهُ لِلْغُسْلِ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ

أي: ويلزم المريد أن يسلم قياده لشيخه ولا يجعل لنفسه معه اختيارا أبدا بل يكون بين يديه (كال ميت) بين يدي الغاسل (يقبله للغسل) كيف شاء ولأي جهة أراد، والميت بتخفيف الياء هو الذي مات بالفعل، وأما قابل الموت فبالتشديد، قال

تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: 30] وقال بعضهم:

أيا سائلي تفسير ميّت وميت فدونك قد فسرت إن كنت تعقل
فمن كان ذا روح فذلك ميّت وما الميّت إلا من إلى القبر يحمل
فمن صحب شيخه بدون اختيار كشفت له الحجب والأستار.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

34 | مَعَ الذِّلِّ وَالتَّهْذِيبِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَا وَعَجْزٍ وَتَسْلِيمٍ وَتَعْظِيمِ حُرْمَةِ

أي: مع كون المريد ملازماً لـ (الذل) وهو إظهار المسكنة لينال من الله بذلك العز الأبدى. قال أبو يزيد: قيل لي: خزائنا مملوءة فإن أردتنا فعليك بالذل والافتقار. وقال الكيلاني: أتيت جميع أبواب الحق فوجدت عليها الازدحام، حتى أتيت باب الذل والافتقار فوجدته خاليا فدخلت منه، فالتفت فإذا أنا قد سبقت القوم وتركت الناس على الأبواب.

وما ألطف قول بعض أهل الإشارات:

لا يبعدنك عتبنا عن بابنا فالعهد باق والوداد مصان
فبحبنا وبلطفنا وبفضلنا شاع الحديث وسارت الركبان
فإذا ذلت لعزنا يا ذا النهى ذلت لعزتك الملوك وهانوا

ويلزم أن يكون المريد ملازماً لـ (التهذيب) أي: تنقية عيوب النفس حتى تستعد بذلك لخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٧٧) أَرْجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُّرْضِيَةً ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّاتٍ ﴿[الفجر: 27 - 30].

ويلزم أن يكون ملازماً لـ (الخوف والرجاء) كما قال سيدي على الخواص: إذا كنت مؤمناً وسمعت أنه تعالى يمدح المؤمنين فلا تبادر إلى كونك مؤمناً، وتأمل قبل ذلك هل أنت على ما وصف الله به المومنين من الصفات التي مدحهم عليها أم لا؟ ثم إن كنت على ما وصفهم فهل تموت على ذلك أم لا؟ فإن علمت أنك تموت على ذلك فقد أمنت مكر الله، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99] وإن علمت أنك تموت على غير ذلك فقد أيست من رحمة الله ﴿لَا يَأْتِشُّ مِنْ رَّوَجِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87] فكن بين الرجاء والخوف فإنه الصراط المستقيم،

اهـ. غير أنه ينبغي تقديم جانب الخوف في حال الصحة وجانب الرجاء في حال المرض، كما قال الإمام الدردير:

وغلب الخوف على الرجاء وسر لمولاك بلا تناء
وذلك لأن غلبة الخوف في حال الصحة تحرق نار الشهوة وتوجب الإقبال على العمل الذي يقرب العبد إلى الله عز وجل، وغلبة الرجاء عند الموت توجب المحبة التي ينشأ عنها الشوق إلى واسع الجود والكرم، وفي الحديث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه» وأما ما ورد من أنه صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو يجود بنفسه فقال: «كيف تجدك» قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال صلى الله عليه وسلم: «الرجاء والخوف لا يجتمعان في قلب عبد مؤمن في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف». فإنه لا ينافي أن المطلوب في هذه الحالة تغلب جانب الرجاء، لأن الاجتماع المذكور في الحديث لا يستلزم المساواة في المجتمعين، ولذا قال بعض من غلب عليه الرجاء في هذا الموطن: وحمل الزاد أقبح كل شيء إذا كان القدوم على كريم وقال آخر:

إذا أمسى فراشي من تراب وبت مجاور الرب الرحيم
فهنوني أصيحابي وقولوا لك البشرى قدمت على كريم
ورؤي بعضهم في المنام في حالة حسنة، ف قيل له: بم نلت هذا الإكرام؟ فقال: بحسن ظني بربي. ومما يدل على جزيل الفضل والكرم الذي لا يخص من قام في الطاعة على قدم، ما حكى أن أيوب السخيتاني رأى جنازة عاص فاخفى خشية أن يصلي عليها، فرأى بعضهم الميت في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، وقال: قل لأيوب السخيتاني: لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنم خشية الإنفاق.

ومن آداب المريد أن يكون ملازماً للـ (عجز) أي: عدم القدرة على ما يريده إلا بمعونة ربه ومساعدة أنفاس شيخه، فمتى شاهد من نفسه العجز ولم ير لها فعلاً أقدره الله على ما يريد، وكذلك يكون ملازماً للـ (تسليم) وهو الانقياد لأمر الله تعالى وترك الاعتراض فيما لا يلائم طبعه، والانقياد لشيخه أيضاً فيما يأمره به بدون معارضة، وكذلك يلزم (تعظيم حرمة) الله تعالى وحرمة شيخه وحرمة الخلق،

فالأول بامثال الأوامر واجتناب النواهي. والثاني بتعظيم شأنه حيا وميتا والقيام بحقه، فإن تعظيم الشيخ تعظيم لله تعالى الذي أقامه لهداية العباد وإرشادهم إلى سلوك سبيل الرشاد، ولذا قال بعضهم:

وأَنْزَلَ الشيخ في أعلى منازلِه واجعله قبله توجيهِ وتنزيه
واعدم وجدك لا تشهد له أثرا ودعه يهدمه طورا ويبنيه
ولست تفعل هذا إن ظننت به نقصا تشاهده فيما يعانيه
فالمراء أن يعتقد شيئا وليس كما يظنه لم يخب والله يعطيه
وتعظيم حرمة الخلق بالشفقة عليهم والنصح لهم وغير ذلك.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

35 وَيَخْرُجُ عَنْ نَفْسٍ تَوَالَتْ هُمُومُهَا وَيَخْشَعُ لِلَّهِ الْكَرِيمِ بِخَشْيَةٍ

أي: ويلزم المريـد أنه (يخرج عن نفسه) التي (توالى) أي: توارى (همومها) وخواطرها، فإن النفس أماراة بالسوء فمتى خرج عنها وطرحها فقد أفلح وفاز، وكانت أموره التي يصل بها إلى مطلوبه في إنجاز، حيث لا عائق يعوقه عن بغيته، ولا أمر بالسوء يرجع به عن رغبته.

قال السهروردي: أهل التصوف على ثلاث طبقات؛ مريد طالب ومتوسط طائر ومتمته واصل. فالمريد صاحب وقت، والمتوسط صاحب حال، والمتمته صاحب يقين، وأفضل أشياء عندهم عد الأنفاس، فمقام المريـد المجاهدات والمكابدات وتجزع المرات ومجانبة الحظوظ، وكل ما للنفس فيه منفعة. ومقام المتوسط ركوب الأهوال في طلب المراد ومراعاة الصدق في الأحوال واستعمال الأدب في المقامات، وهو مطالب بآداب المنازل، وهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال وهو في الزيادة. ومقام المتمته الصحو والثبات وإجابة الحق من حيث دعاه، قد جاوز المقامات وهو في محل التمكين لا تغيـره الأحوال، ولا تؤثر فيه الأهوال، قد استوى عنده الشدة والرخاء والمنع والعطاء والجفاء والوفاء، أكله كجوعه ونومه كسهره، قد فنيت حظوظه وبقيت حقوقه ظاهرة مع الخلق وباطنه مع الحق.

وقال سيدي أحمد الرفاعي: إذا أراد الله عز وجل أن يرقى العبد إلى مقامات الرجال كلفه بأمر نفسه أولاً، فإذا أدب نفسه واستقامت معه كلفه بأهله، فإن قام بشأنهم وأحسن عشرتهم كلفه بجيرانه، فإن أحسن إليهم وداراهم كلفه بأهل بلدة، فإن هو أحسن إليهم وداراهم كلفه بجهة من البلاد، فإن هو داراهم وأحسن عشرتهم كلفه بما بين السماء والأرض، فإن بينهن خلقاً لا يعلمهم إلا الله تعالى، ثم لا يزال يرتفع من سماء إلى سماء حتى يصل إلى محل الغوث، ثم ترتفع صفته إلى أن تصير صفة من صفات الحق تعالى فيطلعه على غيبه حتى لا تثبت شجرة ولا تخضر ورقة إلا بنظره، وهناك يتكلم عن الله تعالى بكلام لا تسعه عقول الخلائق لأنه بحر عميق غرق في ساحله خلق كثير، اهـ. من طبقات العارف الشعراني.

ثم قال في ترجمة أبي العباس المرسى وكان رضي الله عنه يقول: ما سمي إبراهيم الخليل فتى إلا لكونه كسر الأصنام الحسية التي وجدها، وأنت يا ولدي لك أصنام خمسة معنوية فإن كسرتها فأنت فتى، وهي: النفس والهوى والشيطان والشهوة والدنيا، وافهم هاهنا:

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي
وكذلك يلزم المريد أن (يخشع) أي: يخضع ويذل (لله الكريم) الذي تكرم عليه (بخشية) أي: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما تكون الخشية عن علم بما يخشى منه، ولذا خص العلماء بها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]. وقد قيل في ذلك:

على قدر علم المرء يعظم خوفه فلا عالم إلا من الله خائف
فأمن مكر الله بالله جاهل وخائف مكر الله بالله عارف
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

وَيَعْتَقِدُ الْأُسْتَاذَ فِيمَا يَقُولُهُ	وَيَفْعَلُهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَرَيْبَةٍ
--	---

أي: ويلزم المريد أنه يعتقد أستاذه فيما يقوله وما يفعله بأن تجزم بصحته، و«الأستاذ» بضم الهمزة كلمة أعجمية معناها الماهر في الشيء، وقد قالوا: إن مخالفة المريد لشيخه في قوله أو فعله سم قاتل، فمن صحب شيخاً من الشيوخ ثم اعترض

عليه بقلبه فقد نقض عهد الصـحبة ووجبـت عليه التوبة، وقوله: (من غير شك) أي: تردد في صحة قوله، (و) من غير (ريبة) أي: تردد في صحة فعله، فإن الريبة والشك مترادفان على معنى واحد، وقد قال الجنيد لبعض تلامذته حين سأله عن مسألة وأجابه عنها فعارضه: فإن لم تؤمنوا فاعتزلون.

وما ألطف قول الإمام الجيلي:

وإن ساعد المقدور أو ساقك القضا
فقم في رضاه واتبع لمراده
وكن عنده كالـميت عند مغسل
ولا تعترض فيما جهلت من أمره
وسلم له فيما تراه وإن يكن
ففي قصة الخضر الكريم كفاية
فلما أضاء الصبح عن ليل سره
أقام له العذر الكلـيم وإنه
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

وَأَوْصَافُهُ بِاللُّطْفِ مِنْهُ اسْتُمِدَّتْ

وَيُذَرِّجُ مَا يَخْتَارُهُ فِي مُرَادِهِ

37

أي: ويلزم المريـد أنه (يـدرج) أي: يدخل (ما يختاره) من الأمور (في مراد) شيخه فلا يختار لنفسه شيئاً خلاف ما يختاره له أستاذه، وقوله: (وأوصافه) أي: أوصاف المريـد وأحواله منه، أي: من شيخه (استمدت)، أي: أخذت المدد وهو الزيادة (ب) سبب (الـطف) أي: الرأفة والرفق من الشيخ بالمريـد.
ثم قال المصنف رضي الله عنه:

حَقِيقٌ بَلَمْ يُفْلَحْ إِلَى يَوْمٍ بَعَثَ

فَإِنْ قَالَ لَمْ يَوْمًا فَذَلِكَ عِنْدَهُمْ

38

أي: (فإن قال) المريـد لشيخه (يوما) من الأيام على سبيل الاستفهام، (لم) بكسر اللام الداخلة على «ما» الاستفهامية وسكنت الميم لأجل الوزن، أي: لم كان

هذا الأمر كذا؟ (فذلك) القول (عندهم) أي: الصوفية (حقيق) أي: جدير بأن المريد الذي قاله (لم يفلح) أي: لم يفز بمقصوده (إلى يوم بعثة) أي: يوم القيامة وذلك لأن طريق القوم مبنية على التسليم بخلاف أهل الظاهر وأصحاب الفروع، فيجب البحث والسؤال عما أشكل على التلامذة.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

39 | وَلَمْ يَتَنَفَّعْ مَا لَمْ يَسْرِ فِي شُهُودِهِ مُرَاعٍ لَهُ مِنْ غَيْرِ مَيِّنٍ وَعِلَّةٍ

أي: (ولم يتنفع) المريد بما تلقاه عن شيخه (ما لم يسر في) طريق (شهوده) أي: مقام مشاهدته وهو (مرac له) بعين الأدب (من غير) أن يتلبس في صحبته بـ (مين) بفتح الميم، أي كذب وتلوين (وعلة) تصحبه من العلل.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

40 | وَلَا يَقْتَرِفْ مَعْنَى شَهِيًّا لِنَفْسِهِ فَإِنَّ حُظُوظَ النَّفْسِ رَأْسُ الْبَلِيَّةِ

أي: ينهى المريد عن أن (يقترف) أي: يطلب (معنى شهيا لنفسه)، واقتراف الذنب فعله، فكأن هذا الأمر الذي نهى عن فعله ذنب لأن النفس جبلت على حب الشهوات، والعبد مأمور بملازمة الأدب مع رب البريات، فالنفس تجري في ميدان المخالفة على طبعها. والعبد يردّها بلجام الكف عن غوايتها عند جماحها. كما قال البوصيري:

من لي برد جماح من غوايتها كما يرد جماح الخيل باللجم
وقال سيدي جعفر الصادق: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الحالات، كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها، فقد أهلكها. ولذا قال المصنف: (فإن حظوظ النفس رأس البلية) يعني: أن تمكين النفس من حظوظها كلذة الجاه وإقبال الخلق «رأس» أي: أصل البلية، أي: ما يتلى به الإنسان، فليزجرها المريد بأشد الزواجر، ويعرض عليها عذاب من يعلم ما في السرائر، وليقتد بأفعال الصالحين، فإنهم كانوا يزجرون نفوسهم كل وقت وحين. فقد حكى أن شقيق البلخي كان يعاتب نفسه وينصحها، ويقول: يا شقيق لا

تعص الله إلا على حسب ما تطيق من عذابه، واعمل لآخرتك على قدر حوائجك،
وطالب بالرزق على قدر مقامك في الدنيا، واعمل لدار لا نفاذ لها فسوف ترى إذا
انكشف الغبار.

وحكي أن سعدون المجنون كان يدور في شوارع البصرة، ويقول: ﴿يَتَأْتِيهَا
النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ إِنَّكَ رَزَلْتَ السَّاعَةَ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: 1] ثم يبكي ويقول:
فلو لم يكن شيء سوى الموت والبلى وتفريق أعضاء ولحم مبدد
لكنت حقيقا يا ابن آدم بالبكا على نائبات الدهر مع كل مسعد
وكان إذا اشتد به الجوع أنشأ يقول:

إلهي أنت قد آليت حقا بأنك لا تضيع من خلقتنا
وأنتك ضامن للرزق حتى تؤدي ما ضمننت كما قسمتا
وإني واثق بك يا إلهي ولكن القلوب كما علمتا
وكان عليه جبة صوف مكتوب على كمها الأيمن سطر:

عصيت مولاك يا سعيد ما هكذا تفعل العبيد
وعلى كمها الأيسر سطران:

تبا لمن قوته رغيف يأتي به السيد اللطيف
يعصي إلهها له جلال وهو به راحم رؤوف
ومن خلفه سطران:

كل يوم يمر يأخذ بعضي يذهب الاطيبين مني ويمضي
نفسى كفى عن المعاصي وتوبي ما المعاصي على العباد بفرض
ومن بين يديه سطران:

أيها الشامخ الذي لا يرام نحن من طينة عليك السلام
إنما هذه الحياة متاع ثم موت به تساوى الأنام
وعلى عكازه سطران:

اعمل وأنت بذى الدنيا على وجل واعلم بأنك بعد الموت مبعوث
واعلم بأنك ما قدمت من عمل يحصى عليك وما خلفت موروث

فقيل له: أنت حكيم لا مجنون، فقال: أنا مجنون الجوارح لا مجنون القلب.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

41 | تَزِينُ لَهُ الْأَفْعَالُ مَعَ قَوْلِهِ وَلَا يَكُونُ لَهُ مِنْ فِعْلِهِ وَزَنُ ذَرَّةٍ

يقال: زان الشيء صاحبه زينا من باب سار، وأزانه إزانه، وزينه تزينا مثله، والزين نقيض الشين، والمعنى أن من شأن النفس أنها (تزین) للإنسان (الأفعال) الذميمة حتى يراها حميدة في نظره، فهي كالشيطان الذي قال الله فيه: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: 24]. وقد روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33] صاح إبليس ودعا بالويل والشور، فاجتمعت عليه شياطينه، وقالوا له: ما لك؟ قال: نزلت آية لا يضر بعدها ذنب وذكرها لهم فقالوا: أنفتح لهم باب الأهواء وتحسين الأعمال حتى لا يتوبوا؟ ففرح بذلك.

واعلم أيها المريد أن الشيطان قاسم أباك آدم وأمك حواء أنه لهما لمن الناصحين، وقد رأيت ما فعل بهما، وأما أنت فقد أقسم على غوايتك، حيث قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا تُخَوِّنُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82] فشمّر عن ساعد الجد في الفرار من مكائده، والبعد عن وساوسه ومقاصده، ولله در الإمام البوصيري حيث قال:

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم وقوله: (مع قوله) أي: تزین له أن يقول القول القبيح، ويعتقد أنه مليح، أو مع قوله بأن الأفعال التي فعلها مليحة، والحال أنه لا يكون له من فعله الذي زينته له نفسه (وزن) أي: زنة (ذرة) وهي النملة الصغيرة، وقيل: ما يرى من الهباء في شعاع الشمس، وذلك لأن هذا الفعل الذي زينته له نفسه باطنه خراب، فلا يستحق عليه الثواب.

"فائدة": روي أن من أراد أن لا يوفقه الله على قبيح أعماله ولا ينشر له ديوانا، فليدع بهذا الدعاء في دبر كل صلاة، وهو: «اللهم إن مغفرتك أرجى من

عملي وإن رحمتك أوسع من ذنبي اللهم إن لم أكن أهلا أن أبلغ رحمتك فرحمتك أهل أن تبلغني لأنها وسعت كل شيء يا أرحم الراحمين» وقد كان الإمام الشافعي ملازما عليه.

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

42	وَيُظْهِرُ مَا يَخْطُرُ عَلَيْهِ لِشَيْخِهِ	فَفِيهِ أُمُورٌ كَالشُّمُوسِ الْمُضِيَّةِ
----	---	---

أي : ومن شأن المريد أنه (يظهر) أي : يبين كل (ما يخطر) بضم الطاء ، أي : يمر على قلبه من الخواطر (لشيخه) ليميز له الوارد الإلهي من غيره ، فإنه كثيرا ما يخطر الشيطان بوساوسه على القلب خصوصا عند الغفلة عن الذكر ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف : 36] ومعلوم أن الخواطر التي يتحرك القلب لها أربعة أقسام : رباني وملكي وهما يبعثان على مفروض أو مندوب وذلك بطريق الإلهام ، ونفساني وهو ما فيه حظ للنفس ، وشيطاني وهو ما يدعو إلى مخالفة الحق .

وقد سكن المصنف الرائ من «يخطر» لضرورة الوزن ، وقوله : (ففيه) أي : فيما يخطر على المريد (أمور) ظاهرة للشيخ (كالشموس المضيئة) فهو الذي يعرف الخواطر ويميز بينها ، ويرشد المريد لما يراه مناسبا لحاله ، فإن الشيخ يلزم أن يكون من أهل الفراسة ، أي : النظر .

وفي الحديث : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل» .

وقال أبو سعيد الخراز : من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق ، وتكون مواد علمه من الحق بلا سهو ولا غفلة ، بل حكم حق جرى على لسان عبد .

وقال الواسطي : إن الفراسة سواطع أنوار لمعت في القلوب ، وتمكين معرفة جلت الأسرار الكامنة في الغيوب ، فصاحبها يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق ، فيتكلم إذ ذاك على ضمير الخلق .

ومن غريب ما اتفق أن الشيخ محي الدين اللقاني جاء ليأخذ الطريق من سيدي أبي السعود الجارحي فقال :

يظن الناس بي خيرا وإنني أشر الناس إن لم تعف عني

بنصب « الناس » ففارقه الشيخ اللقاني ساكنا وقال في نفسه: هذا لا يعرف الفاعل من المفعول، ثم إنه رأى رؤيا تدل على رفعة مقام الشيخ فجاءه، فلما رآه الشيخ قال: الصواب رفع الناس، فقال اللقاني الله أكبر، فقال له الشيخ، كيف تطلب الطريق وأنت تفر من نصبه وتأتي برفعه، فتاب واستغفر.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

43 وَمِنْهُ شُؤُونٌ كَالسُّيُوفِ قَوَاطِعٌ وَفِي كَتْمِهِ حَجَبٌ وَفَقْدُ نَتِيجَةِ

أي: ومن الذي يخطر على قلب المريد (شؤون) أي: أمور لها شأن وهي الأحوال التي يكون بها صلاحه، فتكون عند مرورها على القلب (كالسيوف) اللامعة ومن صفتها أنها (قواطع) للعوائق التي تعوقه عن حسن السير (وفي كتمه) أي: وفي كتم المريد وعدم إظهار ما يخطر على قلبه لشيخه (حجب) بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم أي: منع له عن الوصول إلى مقام الواصلين، (وفقد نتيجة) كانت تظهر له من المقدمات التي يبيدها لشيخه فيكون بها من العارفين، غير أنه لا يبيدي له إلا ما تكرر ودام من الخواطر وإلا فهي كثيرة جدا.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

44 وَتَحْسِينُهُ مَا حَسَّنَ الشَّيْخُ ثُمَّ مَا يُقْبَحُهُ مِنْ بَعْدِ نَصَبِ الْأَدَلَةِ

أي: وفرض على المريد في طريق الصوفية تحسين ما حسنه الشيخ لجزمه بأنه لا يفعل إلا الحسن، ثم تقبيح ما يقبحه لجزمه بأن لا يقبح إلا القبيح في الحقيقة، وإن ظهر للمريد أن الأمر الذي حسنه الشيخ غير حسن بحسب ظاهر الأمر، لأنه ينبغي له أن يحمل أفعال شيخه التي ظاهرها الفساد على نحو من سبعين محملا من الصحة والحسن، فإن الشيخ ربما فعل ذلك مع مريده اختيارا لحاله، وهو معه بالصدق في أفعاله وأقواله، ومن ثم قال الخضر لموسى عليهما السلام: لو صبرت لعلمتك ألف باب من العلم الغامض، وقوله: (من بعد نصب الأدلة) معناه أن المريد يلزمه أن يقيم الأدلة على تحسين ما حسنه شيخه، وتقبيح ما قبحه إن كان فيه قوة على ذلك.

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

45 وَإِنْ صَارَ يُخْفِي عَنْهُ شَيْئًا فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَعِصِي عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ

أي : (وإن صار) المريـد (يخفي) أي : يكتـم عن شيخه (شيئاً) مما يرد عليه من الخواطر والأحوال التي تحتاج إلى الكشف عنها (فإنه بذلك) الـكتمان (يعصي) أي : يصير عاصياً (عند أهل الحقيقة) أي : الصوفية ، لأنه حينئذ يكون كالساعي في إهلاك نفسه ، وأما إذا ظهر له ذلك فإنه ينال شفاء أسقامه بمحاسن أدوائه .

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

46 بَلِ الْوَاجِبُ الْمَشْهُورُ إِثَارُ أَمْرِهِ وَإِظْهَارُهُ بِالصِّدْقِ دُونَ الْبَرِيَّةِ

(بل) للإضراب والانتقال من أمر لآخر ، أي : (بل الواجب) لى المريـد (المشهور) بين القوم (إيثار) بكسر الهمزة ، أي : تقديم (أمره) أي : الشيخ (وإظهاره) بين الناس (بالصدق) أي : موافقة الظاهر للباطن ، بحيث يكون المريـد في جميع نوازله الدينية والدنيوية موافق الظاهر للباطن حتى يكون سره وعلايته سواء ليكون من الصديقين ، وقوله : (دون البرية) أي : الخلق ، بمعنى أن المريـد يتبع ما يأمره به شيخه لا غيره من الناس .

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

47 وَنَفْيُ خِلَافٍ وَامْتِثَالٌ لِأَمْرِهِ وَإِبْدَاءٌ وَارِدُهُ بِصَفْوِ السَّرِيرَةِ

أي : ومن الواجب على المريـد (نفي خلاف) يقع بينه وبين شيخه (وامتثال لأمره) دون منازعة ، (وإبداء) أي : إظهار (وارده) بسكون الدال المهملة لضرورة الوزن ، أي : ما يرد عليه من الخواطر (بصفو السريرة) أي : السريرة الصافية من التكدير من ذلك ، وهذا البيت تأكيد لما تقدم .

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

48 وَيُشْهَدُ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ عِنْدَهُ مُقِيمًا عَلَى حَالِي حُضُورٍ وَغَيْبَةٍ

أي: ومن الواجب على المريد أنه (يشهده) أي: يلاحظ شيخه (في) حال (القرب) منه (والبعد) عنه (مقيما) (عنده) وقوله: (على حالي حضور وغيبة) بفتح اللام تشية حال وقد ذكره لتتميم البيت، وإلا فهو مستفاد من صدره و«على» بمعنى «في» وهذه المشاهدة تساعده على الربط القلبي الذي هو أعظم شرط عندهم.

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

49 وَإِثَارُهُ بِالْمَالِ وَالرُّوحِ بِالرِّضَا وَتَفْوِضُهُ لِلَّهِ فِي كُلِّ طَرَفَةٍ

أي: ومن الواجب على المريد (إيثاره) أي: تقديم شيخه (بالمال) على نفسه وإفداؤه بـ (الروح) في مواطن الهلكات مع تلقي ذلك (بالرضا) فإن أول قدم في الطريق بذل الروح، ومن الواجب عليه أيضا (تفويضه لله) أي: رده كل أمر لله تعالى مع التبري من الحول والقوة (في كل طرفة) عين أي: تحريكها للنظر فإن الله هو الفاعل المختار، ومن فوض إليه الأمر سلم من الأكدار.

ثم قال المصنف رضي الله عنه :

50 وَيَلْزَمُ لُبْسَ الصُّوفِ فَهُوَ شِعَارُ مَنْ تَلَقَّبَ بِالصُّوفِيِّ بَيْنَ الْخَلِيقَةِ

أي: ومن آداب المريد الداخل في طريق القوم أنه (يلزم) أي: يلزم (لبس الصوف) لما في الحديث: «عليكم بلباس الصوف تجدوا حلاوة الإيمان». وقال صلى الله عليه وسلم: «براءة من الكبر لباس الصوف ومجالسة فقراء المؤمنين وركوب الحمار واعتقال العنز وأكل أحدكم مع عياله». وقد كانت الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام يستحبون لباس الصوف، وتبعهم في ذلك من مشى على سنتهم، ولذا قال: (فهو شعار) أي: علامة (من تلقب) أي: عرف واشتهر (بالصوفي بين الخليقة) أي: الخلق فهو منسوب للصوف لكونه ملازما للبس، وهذا على بعض الأقوال كما تقدم.

وكان الحسن البصري يقول: من لبس الصوف تواضعا لله عز وجل زاده نورا في بصره وقلبه. وكان سيدي أحمد الرفاعي إذا رأى على فقير جبة صوف يقول له: يا ولدي انظر بزي من تزيت وإلى من قد انتسبت، قد لبست لبسة الأنبياء وتحليت بحلية الأتقياء، هذا زي العارفين، فاسلك فيه مسالك المقربين، وإلا فانزعه والسلام.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

51 وَيَتَّخِذُ الْإِبْرِيْقَ مِنْ بَعْدِ مِئْزَرٍ وَقَدْ صَحَّ فِي الْأَخْبَارِ إِرْخَاءُ عَذْبَةٍ

أي: (و) من آداب المريد أنه (يتخذ الإبريق) ليباشر طهارته بنفسه كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: (من بعد مئزر) بكسر الميم وبالهَمْزة ويبدل ياء وهو ما يؤتز به من قطن ونحوه، لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلبس الإزار. وعن أبي بردة قال أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساء ملبد أو إزارا غليظا، وقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين، وذكر الواقدي أن طول ردائه صلى الله عليه وسلم كان ستة أذرع في ثلاثة أذرع، وطول إزاره أربعة أذرع وشبرين في ذراعين وشبر، وحيث كان النبي صلى الله عليه وسلم متباعدة عن الدنيا وزينتها وراضيا منها بما يستر العورة، فالصوفي التابع لسنته أولى باتباعه في الزهد فيها والتباعد عن زينتها والرضا منها بالكفاف، وقد (صح) أي: ثبت (في الأخبار) الصحيحة (إرخاء) بكسر الهمزة، أي: إسدال (عذبة) بين الكتفين وهي بفتحيتين وإنما سكنت الذال في البيت للضرورة؛ طرف العمامة، ثم بين مقدارها بقوله رضي الله عنه:

52 وَتَطْوِيلُهَا فِتْرًا جَاءَ مُسْنَدًا وَلِلنَّاسِ فِي خَيْرِ الْوَرَى خَيْرُ أُسْوَةٍ

أي: (وتطويل) العذبة مقدار (فتر) بكسر الفاء أي: قريبا من شبر ومثله الشبر ونحوه، إلى أن تبلغ ذراعا، فإن ذلك كله (قد جاء مسندا) بفتح النون، أي: أسند الراوي على اختلاف الطرق والأحوال إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وقد سئل ابن عمر كيف يعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: كان يدير كور العمامة على